محمد عبد الغني حسن

أعلام من الشرق والغرب

الناشر
دار الفكر العربي

محمد عبد الغني حسين

أعلام من الشرق والغرب

صفوت الساعاتي - المرصفي - النشاشيبي
الدرويش - الطهطاوي - إسماعيل أدهم
أبو السعود - أنطون الجميل ... الخ



الناشر
دار الفكر العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدى الكتاب

بين دفتى هذا الكتاب بضعة عشر علما من الشرق والغرب ، لم يفرد الكتّاب عندنا لهم التراجم وأنما تأتى سير أكثرهم متفرقة مبعثرة فى أسطر قليلة هنا وأسطر قليلة هناك . فلا يستطيع القارىء أن يقع لأحدهم على ترجمة مستقلة له يمكن أن يعول عليها أو يرجع إليها مرة واحدة .

ومن عجب أن أكثر هؤلاء الذين اخترتهم من الشرق لم تترجم لهم كتب التراجم المتداولة بين أيدينا - كتراجم مشاهير الشرق لجورجى زيدان وأعيان البيان لحسن السندوبى ، وتراجم أعيان القرن الثالث عشر لأحمد تيمور باشا ، وأعلام المقتطف ، ومرآة العصر لألياس زخورة - لا إنكارا لفضلهم ولا جحدا لمحلهم فى نواح مختلفة من نهضتنا الحديثة التى بدأت تأخذ سبيلها منذ عصر محمد على الكبير .

ولكن كاتب التراجم معذور حين تزدحم عليه الأعلام فلا يدرى أيها يأخذ وأيها يدع ، كمن يدخل الروض فيتحير فيه أيجنى الورد أم يجنى الأقاحا

وعذرى عند كرام القراء قائم أيضا حينما تخيرت هؤلاء البضعة عشر علما فلم أزد عليهم . ولو قد زدتُ لما ظننتنى قمت ببعض ما فى نفسى من الوفاء لأعلامنا جميعا . فهو مدى لا يصل إليه جهدى ؛ ولكننى دخلت من باب أرى من الحق أن يشركنى فيه غيرى حتى نؤدى لأعلام نهضتنا ما يجب لهم فى أعناقنا من دين .

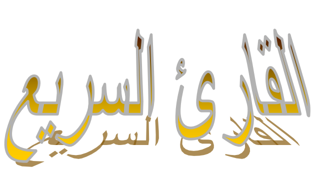
ولا يُلامنّ كاتب على أنه أحب بعض الناس فاختصهم بفضلة من وقته وعاش معهم بالروح وحي معهم بالفكر ، وقرأ لهم وتتبع إنتاجهم ثم أخذ يعرض ذلك فى كتاب ، بل اللوم على من يستطيع أن يفى — ولو بعض الوفاء — لتراث أدبه وأعلام أمته ورجال لغته ثم لا ينهض لذلك قدما ، ولا يحرك فى سبيل ذلك قلما .

ولا أدّعى هنا أنى أحييتُ من رجال نهضتنا مغمورا ، أو نشرت مطمورا . فتلك دعوى لا أجيز نتائجها لمثل هؤلاء الرجال الذين أسعفهم الوجدان فى حياتهم بأعمالهم ولم يسعفهم فى مماتهم بالتراجم المستقلة لهم ؛ ولكننى لخور كل الفخر حينما هيأ الله لى أن أصبر بعض الصبر فأجمع أشتاتا من سير هؤلاء الأعلام ، آخذها من بطون الكتب وأقطفها من ثمرات أفكارهم فى آثارهم ، أو ألمحها على قرب ممن عاصرتهم . فأجعل منها هذه الدراسة المستقلة التى أرجو أن يرضى عنها أصحابها فى رضوان ربهم وأن يرضى عنها الحق الذى كنت أنشده دائما حينما وجهت نفسى إلى هذه الغاية .

وكذلك كنت مع الثلاثة الأعلام الغربيين الذين ضممتهم إلى أعلامنا الشرقيين فى باقة واحدة . فقــد لاحظت أن كثيرا من أمثال برناردشو وويلز وهيجو وبوشكين قد تعرفوا إلى أدبنا العربى بفضل من ترجموا لهم وعرّفوهم إلينا من أدبائنا ، على حين ينزوى من الميدان أمثال هنرى دافيد ثورو كاتب الطبيعة وعابدها ، وجايمس رسل لويل الذى يعـد من طلائع النهضة الأدبية فى ولاية New England ؛ وإدجار والاس الكاتب القصصى المغامر المغمور . فعشت مع هؤلاء زمنا كما عشت مع رجالنا الشرقيين .

وكان من ذلك كله هذا الكتاب الذى أقدمه إلى أرواح هؤلاء الأعلام

محمد عبد الغنى حسن



مصطفى مختار بك

أول وزير المعارف المصرية

١٨٠٢ – ١٨٣٩

ليست أهمية مصطفى مختار بك فى تاريخ التعليم المصرى لأنه أول ناظر للمعارف المصرية ، ولكن لأنه أول وزير للثقافة فى مصر جرى على يديه بصفة رسمية الاتصال بثقافة أوربا وأخذ المصريين من مواردها . فتم بذلك على يديه نوع من العلاقات العلمية والأدبية بين مصر الناهضة وبين الغرب المتقدم . وهى تلك العلاقات التى رأى المفكرون أن تسود بين الأمم – صغيرها وكبيرها – على شكل يضمن بينها قيام نوع من التعاون الفكرى الذى يهدف إلى سلام عالمى . وقد ظهر هذا الاتجاه فى قيام مؤسسة بعد الحرب العالمية الأولى تدعى « منظمة التعاون الفكرى بين الأمم » :

Organisation Internationale de Coopération Intellectulle

وهى تلك المؤسسة التى تمخضت أخيراً بعد الحرب العالمية الثانية عن هيئة الأونسكو التى تعرف باسم

"United Nations Educational, Scientific and Cultural Organisation"

ومصطفى مختار بك من أعضاء بعثة محمد على الأولى إلى فرنسا سنة ١٨٢٦م وقد بلغ عدد أفرادها أربعة وأربعين عضواً ، نجحوا جميعا فى المهمة العلمية التى أرسلوا لها ماعدا خمسة منعهم المرض أو ضعف الكفاية من مداومة التحصيل فأعيدوا قبل إتمام دروسهم .

ويجمع المؤرخون لعصر محمد على – مصريين وأجانب – على أن

بعثة سنة ١٨٢٦ هى البعثة الأولى ، ويخالفهم فى ذلك المغفور له الأمير عمر طوسون الذى يجعل بعثة « نقولا مسابكى » وزملائه إلى إيطاليا سنة ١٨١٣ هى أول بعثة لمحمد على . ويجعل بعثة « عثمان باشا نور الدين » وزملائه إلى فرنسا سنة ١٨١٨ هى البعثة الثانية ، ويجعل بعثة سنة ١٨٢٦ إلى فرنسا ثالثة البعثات المصرية ، وهى تلك البعثة التى سافر فيها المترجم له .

ومهما يكن من أمر هذا التقدير فقد سافر مصطفى بك مختار عضواً فى البعثة وواحداً من رؤسائها الثلاثة للإشراف على بقية الأعضاء فى فرنسا . والرئيسان الآخران هما : حسن باشا الاسكندرانى ، وعبدى شكرى باشا . وسافر معهم الشيخ رفاعة الطهطاوى إماما لهم ومرجعاً فى شئون دينهم .

ولم يفت الشيخ رفاعة الطهطاوى فى كتابه النفيس « تخليص الابريز إلى تلخيص باريز ، أن يذكر هؤلاء الرؤساء الثلاثة بالخير ، ثم يشير إلى أن « حضرة الأفندية الثلاثة يتحلون أيضاً كالباقى ، فحضرة الأفندى المهردار سابقا — عبدى شكرى — يشتغل بعلم تدبير الأمور الملكية ، وحضرة الافندى الدويدار سابقاً — مصطفى مختار — يشتغل بعلم تدبير الأمور العسكرية ، وحضرة الحاج حسن افندى الأسكندرانى يشتغل بعلم القبطانية والهندسة البحرية » .

وكانت رياسة الواحد منهم لأعضاء البعثات بفرنسا يوماً بالتناوب ، ثم صارت النوبة شهراً شهراً ، حتى استقل بها عبدى شكرى فى النهاية ؛ ولم تمنع هذه الرياسة مصطفى مختار ولا زميله من الدأب فى التحصيل بفرنسا . فقد شهد له ولها رفاعة بك بقوله : (ولسائر الثلاثة اجتهاد زائد وتحصيل بالغ ، مع أن الإمرة فى الغالب تأنف من ذلك)

ولا شك أن محمد على باشا كان مهتما بهذه البعثة لأنها أول بعثة منظمة كثيرة العدد . فاختار لها المسيو (جومار) للأشراف عليها وكان هذا العالم الجليل يدرس أحوالهم واحداً واحداً ويكتب التقارير عنهم . وقد نشر ذلك التقرير فى (المجلة الأسيوية Journal Asiatique) سنة ١٨٢٨ م .

وكان مختار بك موضع عناية خاصة من المسيو جومار . فقد أفرده بالذكر فى تقريره عن فرقة الإدارة الحربية . ولم يكن المسيو جومار مهتما بالمترجم له وحده ، فقد كان كثير العناية بأعضاء البعثة ، وكان يشجعهم بألوان من التشجيع ، وأقام لهم فى سنة ١٨٢٨ حفلا لتوزيع المكافآت عليهم . وخطب فيهم خطبة قال فيها : (وأنتم جميعكم شعرتم وتشعرون كل يوم بعظم ما أرسلتم من أجله ، وجميع جهودكم متساوية ، ولكن هنالك فروق بينكم فى دروس لا يتسنى للشبان الشرقيين أن يتساووا فى النجاح فيها وإن الامتحانات التى جزتموها كانت شديدة الوطأة بقدر ما كانت غريبة عنكم ؛ وهذا مما يعلى كعب الذين فازوا فيها ، على أن كلا منكم سيمثل دوره فى الفخر كما آمل ، وذلك ظاهر من الإرادة القوية التى تتجلى فيكم ، والعزم الماضى بكم إلى بلوغ الغاية التى قصدتها حكومتكم السامية)

واستمر جومار فى تشجيعه مستمداً وحيه من محمد على باشا الذى كان يرغبهم ويحيى عزائمهم تارة ، ويوبخ من يثبت عليه التقصير تارة أخرى . وقد أشار إلى ذلك رفاعة بك الطهطاوى فى قوله : (جرت عادته — أى ولى النعم — من مدة خروجنا من مصر بأنه كان يتفضل علينا ببعثه لنا فرماناً كل عدة أشهر يحثنا فيه على تحصيل الفنون والصنائع ، فمن هذه الفرمانات ما كان من باب ما يسمى عند العثمانية إحياء القلوب . . ومنها ما كان من

باب التوبيخ على ما كان يصله منا ويبلغه عنا من بعض الناس حقاً أو غير ذلك)

ولقد امتاز مختار بك فى البعثة بكثرة نشاطه وشدة إقباله على العلم فوق ما امتاز به من حدة الذكاء التى لفتت أنظار كل المتصلين به وخاصة المسيو (هاموند) مدير مدرسة الطب البيطرى.

وكان نسق الحياة الذى يعيش عليه مصطفى مختار بك فى فرنسا مدة بعثته هو ذلك النسق الذى كان يحياه أعضاء البعثات جميعاً، وهو النسق المنظم الموضوع تحت إشراف دقيق ورقابة شديدة، حتى لا ينصرف الطلاب عما أوفدوا من أجله. ولم يضن عليهم محمدعلى باشا فى سبيل تعليمهم وفى سبيل تهوين الغربة عليهم؛ حتى كانت النعمة تبدو عليهم، ويقول فى ذلك رفاعة بك: (ونحن نعد هناك من الموسرين بل من الأغنياء لتجملنا بالملبس الغريب عندهم. ولنسبتنا لولى النعم)

وبلغ من كرم محمد على وحفاوته بهم فى غربتهم أنه أرسل من مصر إلى فرنسا ثلاثة خيول جياد لرؤسائهم عبدى، ومصطفى مختار، وحسن الأسكندرانى. وقد بلغت النفقة على هذه الجياد فى المحجر الصحى بمرسيليا ١١٧٣ فرنكا... ونفقتها ونفقة سواسها إلى باريس ١٢٦٥ فرنكا؛ ونفقتها كل شهر هناك حوالى ٤٧٥ فرنكا..!

وكان فى مختار بك ميل إلى الموسيقى.. فأرسلت إليه ساعات دقاقة منها واحدة تحدث نغما موسيقياً، كما اشتريت له آلتان للموسيقى بـ ١٨٤ فرنكا، وكتب أمامها فى «بند» الملاحظات: «ثمن مزيكة باسم مختار بك عدد ٢» وهكذا لم يكبت فى مترجمنا هوى فنى خاص قد يقال إنه يعطله عن أغراض بعثته، ولكنه شجع فيه إلى أبعد الحدود.

. قلنا إن مصطفى مختار بك هو أول ناظر لديوان المدارس ، وأول وزير للمعارف فى مصر ، فما هو هذا الديوان الذى يرد ذكره كثيراً فى كل كتاب يتحدث عن مآثر محمد على الكبير ؟

الواقع أن هناك « شورى المدارس » و « ديوان المدارس » . وكانت أمور التعليم فى مصر ترجع إلى ديوان الجهادية حتى سنة ١٨٣٦ م ، وهى السنة التى صدر فيها أمر محمدعلى بتأليف «مجلس عام للنظر فى تنظيم المدارس» ولم يكن هذا المجلس ألا لجنة مؤقتة اختير لرياستها مصطفى مختار بك بعد عودته من البعثة بقليل ، وكان من أعضائها : كلوت بك ، وكيانى بك ، وأرتين افندى « باشا » وأسطفان أفندى ، ورفاعة الطهطاوى وبيومى أفندى أستاذ الرياضة بمدرسة المهندسخانة ، وفارين ، وحكاكيان ، ولامبر ، وهامون ، ودوزول .

ويلاحظ أن رجال هذه اللجنة من العلماء الأجانب ومن المصريين الذين أتموا دراستهم فى الخارج ، وعادوا لتسلم إليهم مقاليد الثقافة فى وطنهم.
وبعد زمن غير طويل تحولت هذه اللجنة المؤقتة إلى لجنة دائمة برياسة المترجم له أيضاً ، ولكن هذه اللجنة ظلت تابعة لديوان الجهادية وسميت « شورى المدارس »

وكان فى مصطفى مختار نزوع شديد الى الاستقلال فى كل أعماله ، فلم تكد تصدر قوانين هـــذا المجلس فى ٩ من ذى القعدة سنة ١٢٥١ ﻫ حتى أرسل إلى نظار المدارس يطلب منهم أن يعرضوا عليه جميع الشئون المختصة بهـــم ... فكانت تلك أول خطوة فى محاولة انفصال المجلس عن ديوان الجهادية .

وظهر استقلال هذا المجلس فى المكان أيضا ... فقد كان يشغل حجرة من المكان الذى يشغله مجلس الملكية بالقلعة ، ولكنه انتقل إلى مكان خاص فى الأزبكية بقصر الدفتردار

ولم ييأس مصطفى مختار من محاولة الانفصال عن ديوان الجهادية حتى تستقيم لأدارة التعليم فى مصر شخصية مستقلة . وقد تم ذلك بالفعل فى ٥ من ذى القعدة سنة ١٢٥٢ ه — سنة ١٨٣٧ م ، حيث اجتمع مجلس المدارس برياسة المترجم له وعضوية عشرة أعضاء ، وتلا عليهم الأمر العالى « بتفريق كافة المدارس من ديوان الجهادية وترتيب ديوان خاص لها » . ومنذ ذلك التاريخ الموافق لشهر فبراير سنة ١٨٣٧ م أصبح مصطفى مختار بك مديرا لديوان المدارس أو ناظرا له . وبهذا شهد تاريخ المعارف المصرية مولد أول نظارة للمعارف وقيام أول ناظر لها .

ولم تطل مدة وزارة مصطفى مختار بك ، فقد اخترمته المنية سنة ١٨٣٩ وهو قائم على نظارة الديوان . ولكن عهده القصير كان بركة على حركة التعليم الناهضة . فقد أنشىء فى نظارته كثير من المدارس والمكاتب كما يذكر الأمير عمر طوسون فى كتابه . وكان مثالا للنشاط العجيب الذى لازمه منذ كان طالبا فى بعثة باريس ، فلم يحتج إلى وكيل لوزارة ناشئة حملت عليها الأقدار عبء النهوض بأنشاء جديد ، ولهذا لم تعرف وزارة المعارف منصب الوكالة إلا فى عهد ثانى وزرائها « ابراهيم أدهم بك » باشا » الذى تولى الوزارة سنة ١٨٣٩ بعد وفاة مصطفى مختار بك ، فقد كان أدهم كثير الأسفار إلى انجلترة ، فاضطر ذلك حكومة محمد على باشا إلى تعيين « أحمد بك » وكيلا للديوان ، فكان بذلك أول وكيل لنظارة المعارف المصرية

لم تكن نظارة الدواوين — أو الوزارة — فى عهد محمد على منصباً فيه كثير من مناذح الوجاهة والراحة ، وإنما كانت عملا فيه صعوبة البداية . وكانت عين محمد على لا تغفل عن محاسبة النظار مهما قربوا إليه بالشفاعة أو ابتغوا إليه بالوسيلة . وكان يتتبع أخبار دواوينهم والفروع التابعة لها حتى لا تكاد تفوته صغيرة مما يحدث . فقد أثبت الامتحان السنوى لتلاميذ مدرسة « نبروه » الزراعية أن معلوماتهم ضعيفة محصورة ، وأنها لا تتجاوز المعلومات التى وجدوا آباءهم عليها ، وبلغ ذلك مسامع محمد على ، فأرسل إلى مختار بك ناظر ديوان المدارس كتاباً شديد اللهجة ينبهه فيه إلى ضرورة التنبيه على ناظر المدرسة بالاهتمام بعمله ، وإلا عزله وجعل مكانه من هو أصلح منه . ثم تشتد الشكوى من تلك المدرسة فيذهب محمد على إلى بلدة نبروه بمديرية الغربية ليطلع بنفسه على مواطن الضعف فى المدرسة وليتخذ الأسباب لإصلاحها .

ولم يكن مجلس شورى المدارس أو نظارة ديوان المدارس فيما بعد أول عمل مصطفى مختار بك بعد عودته من البعثة العلمية فى فرنسا سنة ١٨٣٢ . وهنا تختلف المراجع اختلافاً لا يصعب معه كشف الحقيقة على وجهها الصحيح فإن الأمير عمر طوسون يذكر أنه عين عضواً فى المجلس الأعلى للحكومة . ويذكر عبد الرحمن الرافعى بك أنه عين رئيساً للمجلس العالى فى عهد محمد على باشا خلفاً لعبدى شكرى باشا . وكان هذا المجلس المؤسس فى سنة ١٨٣٤ يتألف من نظار الدواوين ورؤساء المصالح واثنين من العلماء يختارهما شيخ الجامع الأزهر ، واثنين من التجار يختارهما كبير تجار العاصمة ، واثنين من ذوى المعرفة بالحسابات ، واثنين من الأعيان عن كل مديرية من مديريات

القطر المصرى ينتخبهما الأهالى . وكان أول رئيس لهذا المجلس عبدى شكرى باشا زميل المترجم له فى البعثة وأحد رؤسائها الثلاثة كما سبق القول .

ويذكر مرجع آخر أن مختار بك كان فى السنة الأولى من إنشاء شورى المدارس ناظراً « لمجلس الملكية » وهو مجلس لم أهتد إلى طبيعة عمله بجانب المجالس الكثيرة التى انشأها محمد على باشا .

وسواء أكان هذا المجلس قضائياً أم إدارياً فإنه مما لا شك فيه أن مصطفى مختار بك قد صُرف فى بعض وظائفه عما تخصص به فى بعثة فرنسا . فقد أرسل لتعلم الإدارة الحربية والأمور العسكرية ، ولكننا نراه بعد عودته يوضع فى ميدان غير الذى كان يجب أن يكون فيه . فما كان له شأن بالتعليم ، ولا بالإدارة الملكية التى تخصص فيها زميله فى البعثة عبدى شكرى باشا . ولكنه على كل حال نجح فى نظارة المعارف وفى الإدارة المدنية على الرغم من عدم تخصصه فى دراستهما .

على أن أكثر الميادين اتصالا بدراسته كان نظارة الأشغال العمومية التى وليها بجانب نظارته للمعارف ، كما ذكر ذلك « بورنج » فى تقريره عن النظار ؛ ومما لا جدال فيه أن كثرة تنقل الموظفين وعدم وضعهم فى الأعمال التى تخصصوا فيها كان مما لفت أنظار الأجانب فى مصر من زمن غير قريب . . .

* * *

ولا شك أن أكبر خدمة أسداها المترجم له إلى التعليم هى كثرة عنايته بالكتب الملائمة لتلاميذ المدارس الابتدائية ، فقد لاحظ الدكتور

« Bowring » فى تقريره أن المدارس تعوزها الكتب الأولية المناسبة إلى حد يدعو إلى الرثاء . . وناشد المترجم له — وكان معاصراً له — أن يعمل على تلافى ذلك النقص ؛ وقد وعده مصطفى مختار بك وأنجز ما وعد فى الحدود التى تسمح بها ظروف مطبعة بولاق الأميرية التى كانت فى ذلك الحين تابعة لديوان المدارس ، والتى كانت مزدحمة بالمطبوعات الرسمية وبالكتب الأدبية القديمة ، وبالكتب المترجمة فى العلوم المختلفة للمدارس الخصوصية .

ولا يذكر تاريخ التأليف والترجمة فى عصر محمد على باشا أن مصطفى مختار بك قام بنفسه بعمل فى هذا السبيل ... فهو ليس من أعضاء البعثات المؤلفين والمترجمين أمثال على باشا مبارك ورفاعة بك الطهطاوى ، ومحمد بيومى المهندس ، ومحمد على البقلى باشا وأحمد حسن الرشيدى بك الطبيبين . ولكنه نبغ فى الإدارة نبوغاً عظيما ، لولا ما كان فيه من « حدة » يقول المسيو هاموند أنه اكتسبها فى أثناء إقامته فى فرنسا . . . وأغلب الظن أنها طبع فيه . وكثيراً ما جنت عليه هذه الحدة فاصطدم مع محمد على باشا ، ولكن العاهل العظيم كان يقدر مواهبه فلا يلبث أن يعفو عنه . ومن ذلك ما حدث عند ما كان ناظراً لمجلس الملكية « فإنه لم يصغ إلى إرادة الجناب العالى الآمرة بأن يقتصر على تنفيذ ما يصدره المجلس من خلاصات الأحكام فلا يكتب بنفسه مذكرات ، بل ركب رأسه وتمادى فى اتباع عادته . . فكتب مذكرات تنافى أحكام المجلس منافاة أوقعت أصحاب المصالح فى الارتباك . . ولكنه لم يقطع أمله هذه المرة فى أن ينتهى عن فرط جبروته واستبداده ولا فى أن ينزل فيندمج فى صفوف بنى آدم ، ولذلك فقد صرف النظر عن معاقبته » .

٭ ٭ ٭

وقد ظفر بعضوية بعثة محمد علي باشا اثنان من أسرة المترجم له : أولهما ابن أخيه أحمد الذي أرسل مع عمه في البعثة الأولى إلى فرنسا سنة ١٨٢٦ لدراسة التاريخ الطبيعي وعلم المعادن ، ولكنه أعيـــد قبل أتمام دراسته سنة ١٨٣٤ لارتكابه بعض المخالفات المحرمة على الغرباء في باريس . وثانيهما ابنه مصطفى باشا مصطفى مختار الذي سافر إلى فرنسا في بعثة سنة ١٨٤٤ لدراسة الفنون الحربية ، ثم عاد بعد إتمام دراسته ، فتقلب في وظائف كثيرة منها وكالة الداخلية سنة ١٨٦٦ ، وعضوية مجلس الأحكام سنة ١٨٦٧ ، ثم عين مديرا للغربية سنة ١٨٧٣ في عهد الخديو إسماعيل باشا .

ولم يتميز مصطفى مختار بك بين رجال عصره بمزية أدبية أو فضيلة كتابية كما امتاز رفاعة بك الطهطاوي وعلي باشا مبارك والشيخ نصر الهوريني العالم اللغوي المشهور الذي كان أماما لبعثة سنة ١٨٤٤ في باريس ، كما كان الشيخ رفاعة بك إماما لبعثة سنة ١٨٢٦ . فلم يعرف عن المترجم له أن له خصيصة أسلوب أو مزية أديب : والسبب في هذا واضح كل الوضوح فأنه لم يكن من رجال الأزهر كما كان رفاعة بك والشيخ نصر ، ولم يعرف حياة التلمذة في المكاتب وفي الكتاتيب كما عرفها علي باشا مبارك . ولم يحفظ القرآن كما حفظه . ولكنه أتى إلى مصر من « قولة » يافعا ، واختير للبعثة وهو في الرابعة والعشرين من عمره . ومن هنا كانت معرفته بالأدب العربي غير وثيقة الصلات . ولكنه استعاض من ذلك ببراعته في الهندسة العسكرية ونبوغه في الادارة ، مما جعل الوالي البعيد النظر محمد علي باشا يطمئن إليه في القيام بأول وزارة للمعارف في مصر .

ولم تمنعه مناصبه الوزارية في نظارتي المعارف والأشغال أن يأخذ نصيبه من الرتب العسكرية بحكم ما كان من طبيعة بعثته الحربية في باريس

فأنعم عليه الوالى برتبة أميرالواء . كما أنعم عليه برتبة البكوية . ومن عجائب الأقدار أن القدر لم يمهله فى خدمة الوالى العظيم حتى يظفر برتبة «الباشوية» التى ظفر بها ولده مصطفى باشا الذى سبقت الأشارة إليه .

ولم تطل مدة مختار بك فى وزارة المعارف ، فقد توفى إلى رحمة الله وهو قائم بالنظارة فى مايو سنة ١٨٣٩ كما يذكر المؤرخون ؛ وقد تابعهم فى ذلك مؤلف كتاب « التعليم فى مصر فى عصر محمد على » ولكننا نجد أنفسنا أمام نصين آخرين مخالفين . فقد ذكر المرحوم أمين سامى باشا أنه انفصل عن الوزارة فى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٣٨ . ومفهوم هذا النص أنه توفى فى سنة ١٨٣٩ بعد انفصاله عن نظارة الديوان . وذكر المرحوم الأمير عمر طوسون باشا أنه فصل من نظارة الديوان فى ١٧ مايو سنة ١٨٣٩ . ويذكر أمين سامى باشا أن إبراهيم أدهم باشا قد خلف مختار بك فى نظارة المعارف فى ١٥ مايو سنة ١٨٣٩ . فهل معنى هذا الذى ذكره أمين سامى باشا أن منصب الوزارة ظل شاغرا من نوفمبر سنة ١٨٣٨ إلى مايو سنة ١٨٣٩ أى حوالى ستة أشهر فى وزارة ناشئة لم يكن لها وكيل يصرف أمورها فى ذلك التاريخ؟ .

قلنا إن مصطفى مختار بك لم يكن له مشاركة فى الأدب والحياة الأدبية بمصر إلا ما كان من جهوده التوجيهية فى سياسة التعليم فى وزارة حمل أول أعبائها ؛ وأسلمها إلى خلفائه من بعده ليحملوا الأمانة فى عبئها بما يحقق لمصر ثقافة تليق بماضيها وحاضرها ولكن الأدب كان له نصيب فى تمجيد ذلك الرائد الأول للمعارف فقد مدحه الشاعر محمد شهاب الدين إمام شعراء ذلك العصر والشاعر الرسمى للخديوى عباس باشا الأول بقصائد عديدة منها قصيدة طويلة رقيقة يهمنا منها بيتان فى وصف همة ذلك الرائد التعليمى الأول

عزيمة كالحسام قطعا ... تمر كالسحب إذ تسير
وهمة دونها الثريا ... وهى لها فى الثرى مسير

الشيخ محمد شهاب الدين

شاعر عباس باشا الأول ١٧٩٥ — ١٨٥٧

ذكرتنا المقدمة البليغة التى قدم بها الدكتور حسين هيكل باشا ديوان البارودى بواحد من شعراء مصر الذين كانوا توطئة لظهور محمود باشا سامى البارودى ولمن جاء بعده من كبار الشعراء المصريين، أمثال إسماعيل صبرى باشا وأحمد شوقى بك وحافظ إبراهيم بك وخليل مطران بك ، هؤلاء الشعراء الذين أنزلوا مصر فى الشعر منزلة أدنتها من منزلة العراق والشام والأندلس والجزيرة العربية فى أيام نهضتها الأولى

وهذا الشاعر الذى خطر بالبال هو الشيخ محمد شهاب الدين ، شاعر الخديو عباس باشا الأول ، والشاعر الرسمى لمصر الحديثة بعد أيام محمد على باشا بقليل .

ولم يكن هذا الشيخ ربيب الأزهر ، ولا أليف العلم فى أول نشأته ، وأنما كان وزانا صغيرا فى أسواق البيع والشراء ، يمسك القب والعاتق ، ويكتال ويكيل ، ويقبل الناس على الوزن عنده لذمة عرفت فيه وأمانة اشتهر بها .

وكأن هذا الوزن المادى فى الأسواق النافقة والكاسدة كان تمهيدا للوزن المعنوى فى سوق « القريض والقصيد » . فقد أصبح هذا الوزان شاعراً « رسمياً » للخديو ، يزن القصيد ، ويقطع الأبحر والتفاعيل ، ثم يتغنى الناس بشعره ويتسامرون ، لما اشتمل عليه من فكاهة مصرية خفيفة ونكتة بلدية لطيفة .

والشيخ شهاب الدين مصرى المولد ، مكى الأصل والمحتد، كما أشار هو إلى ذلك فى مقدمة ديوانه الذى طبع بمصر سنة ١٢٧٧ هـ سنة ١٨٦١ م . ومن الغريب أن ميلاده بمصر أكسبه النكتة البارعة والبديهة الحاضرة ، فطار اسمه فى كل ناد وذاع صيته فى كل حفل، حتى تسامع به الخديو عباس الأول فأحب أن يراه ، فإذا به يرى شيخا معما يروى كثيرا ، وينشد كثيراً ، ويحفظ كثيرا من النكات البـارعة ، ومن اللطائف الأدبية . وهو فوق ذلك صاحب ظل خفيف وذوق سليم وذكاء نادر . فأحبه وقربه إليه وأدناه من مجلسه وجعله صاحب أسماره وكبير ندمانه ، وكان يرتاح إلى مجلسه ويطمئن إلى حديثه . وأباح له الدخول عليه من غير استئذان فهو به حفى كريم .

ولقد بلغ من ذكاء الشيخ الشاعر أنه صادف من نفسه هوى إلى تعلم الموسيقى ،فأخذ يتعلم اصولها ويتلقن قواعدها ،حتى أجادها وبرع فيها البراعة كلها .وألف كتابه المشهور «سفينة الملك ونفيسة الفلك» جمع فيه كثيرا من المواليا وأدوار الموشحات وأودعه كثيراً من مقاطيع الروابط وقصائد الضوابط .

وكان الشيخ — بعد حفظ كثير — يتندر فى مجالسه بالشارد من أبيات العرب ، ويدير على آذان السامعين ألوانا كثيرة من شعره وتلحينه ونوادره وطرائفه . فلا يمل له مجلس ولا تنصرف عنه أذن ، ولا يتلفت عنه قلب . وقد بلغ من أعجاب الخديو عباس به وتعلقه بنوادره وبدائع طرفه أنه أعد له فى كل قصر من قصوره حجرة خاصة به يقضى فيها نهاره ويبيت فيها ليله كلما طلبـه للمنادمة ، أو أراده على المفاكهة والمحادثة ، وتلك منزلة لا نعلم أن شاعراً وصل إليها فى عصر النهضة الحديثة منذ أيام محمد على . إلا ما كان من أمر الشيخ على الليثى .

وعجيب جداً أن يبرع الشيخ شهاب فى الكتابة ويظهر فى الشعر ويمتاز

فى المنادمة وهو لم يتعلم العلم الذى كان معروفاً فى زمانه ولا سار على طريقة أهل عصره . ولكنه حبس نفسه على القراءة . وراضها على المطالعة ، حتى ذل له كل جامح . وانقاد له كل صعب ، وملك ناصية البيان ، وأصبح يصرف الكلام فى الأدب على فنون من القول ، لاتساع مدى محفوظه .

وديوان الشهاب يصور لنا أجمل تصوير وأصدقه حالة مصر الاجتماعية فى زمن عباس باشا الأول . ويصور لنا كذلك اتجاه الشعر وجريه على طريقة كتب له أن يتحرر منها على يد البارودى ومن أخذوا أخذه . وهو مقسم إلى سبعة أجزاء : الأول فى مدح النبى عليه السلام ، والتوسل بجاهه والتماس الشفاعة عنده ، وهى طريقة شاعت فى مصر فى عهد المماليك والأتراك ، ولا أقصد المدح وإنما أقصد الإكثار منه وتخصيص جزء كبير من ديوان الشاعر له . وإلا فإن المدح النبوى قديم من أيام الأعشى الذى يقول مخاطباً ناقته :

متى ماتناخى عند باب ابن هاشم ... تراحى وتلقى من فواضله ندى
نبى يرى مالا ترون . . وذكره ... أغار لعمرى فى البلاد وأنجدا

وأكثر أقسام الديوان وأملؤها هو قسم مدائح أرباب الدولة وأصحاب الجاه والشوكة ، وليس هذا غريباً فى عصر الشاعر ولا مستهجناً منه ، فقد كان مما يقرب الشاعر ويحظيه أن يمدح وأن يطيل فى المدح ، وأن يلتمس عند كل واحد من أصحاب النفوذ تحقيقاً لآماله ومساعدة له .

وأول من مدحهم الشيخ شهاب صاحب السلطان الأول فى مصر « وولى نعمتها الخديو » وهو يبدأ هذه المدائح حينما رتبت له الكسوة على نحو ماكان معروفاً فى ذلك العصر ، ثم يدخل فى المدائح والتهانى فى المناسبات

السعيدة والفرص التي يبسطها الله على الممدوحين ... من شفاء من مرض ، أو عودة من حجيج ، أو فرح بختان ، أو اجتماع شعبي عام .

ولقد مدح الشيخ شهاب الدين مؤسس الأسرة العلوية — محمد على باشا وولده ابراهيم باشا . وهنأ البطل الفاتح إبراهيم عند عودته من حروب الشام بقصيدة نونية . يقول فيها :

يا عزيزاً لا يضاهى أبدا　　عزه يكسو العدا ثوب الهوان
كم حروب كشفت عن ساقها　　خاضها طرفك مطواع العنان
بجيوش شمرت عن ساعد　　ما له يوم نزال من توان

وفى الحق أن اتصاله بالخديو عباس الأول يرجع إلى ما قبل تنصيبه والياً على مصر . وذلك حينما كان عباس باشا كتخدا لجده محمد على . فكان الشاعر يهنئه في كل مناسبة . . ولفتت هذه التهاني المتعاقبة نظر عباس باشا إليه . فلما صارت إليه ولاية مصر بعد عمه إبراهيم استدعاه وأدناه .

وكان فى الشيخ شهاب جرأة على الخديو عباس ودالة عليه . يسأله فى كل شأن من شئونه أو فى كل حاجة تعرض له ، فيقضيها له الخديو قضاء الكفيل بالمطالب المحقق للرغائب .

ولعل القارىء لهذه الأبيات التالية من تلك القصيدة الطويلة يستطيع أن يحكم على خفة روح صاحبها وأن يتبين منها مواضع البراعة والاحتيال فى السؤال حيث قال :

تبت عن مدح غير بابك يا من　　أنت ذخرى وموئلى وثمالى
وتجردت عن ســـواك لعلى　　أكتسى خلعة السنا المتلالى
وترجيت من جميل العطايا　　بغــلة حالها يليق بحالى

إن بدا لى ركوبها تهت عجبا | فى ازدهاء وبهجة واختيال
أو بدا لى ارتباطها فاجتلاها | فى مجالى الجمال زين مجالى
فتفضل وامنن وأنعم على من | هو عبد من بعض عبد الموالى

ولما آلت الولاية الى سعيد باشا اتصل الشاعر به ومدحه وهنأه فى كل مناسبة عرضت أو فرصة سنحت . إلا أنه لم يحز فى عصره ما حازه فى عصر عباس الأول ، ولم يلق منه مثل الذى لقيه

ولم تكن مدائح شهاب الدين مقصورة على الولاة ، ولكنه مدح من دونهم من رجال الحكم والجاه ، أو الشرف والنسب . فمدح الشريف محمد ابن عون ، والشريف عبد المطلب بن غالب شريف مكة لما أنشأ أربعة حصون فى طريق المدينة المنورة لتأمينه ونشر السلامة فيه . وامتدح ابراهيم باشا يكن ، وامتدح محافظ القاهرة ، وامتدح نظار الدواوين وخاصة ناظرى الوقف والمعارف .

والعجيب من أمره أنه كان يقدم شكاواه و « عرائضه » وظلاماته الى الحكام شعرا لا نثرا . ! ومن العجيب أن يتسع الشعر لكل هذه الأغراض

ضاقت به الأمور يوما وخوى وفاضه فكتب الى (خازن خزينة الخديوى) واسمه عبد الباقى بك يطلب منه صرف مرتب شهرين ويقول :

أصبحت فى مضايق من فاقة وعطب
وصرت محتاجا الى نوالك المستعذب
وأنت باقى الكرما وخير سامى الرتب
فاصرف الى ما تشا من فضة أو ذهب
حتى أعود ساعيا فى جمع شمل الحبب

وله مدح فى مصطفى بك مختار مدير المدارس ، وفى أدهم باشا من كبار رجال المعارف فى ذلك الحين .

ويظهر أن هذا الشاعر قد أجاد فن الشكوى من ضيق العيش . وتأخر المرتب أو قلته ، وعدم غنائه بحاجات العيال . وكان يطيل فى ذلك الغرض القصائد ويدبجها ، وهو فى ذلك يخلط الشكوى بالمدح ، ويمزج اللوعة بالتهنئة وكأنه يهنىء لغرض . . . لا للتهنئة فى ذاتها . . ! ويمدح لحاجة فى نفسه ، لا لأن الممدوح يستحق منه ذلك ويستوجبه .

تأخر عليه مرة صرف «الشهرية» أى المرتب . ويظهر أن نظام المرتبات والحسابات ومراجعتها والدقة فى أدائها لم يكن شائعا فى ذلك الحين فكتب ألى « أدهم » باشا يقول من قصيدة محبرة طويلة :

وبادر ألى الشكوى وقل أن صاحبى   محا رسمه عصف الرياح الروامس
وقد ضاقت الدنيا عليه وأظلمت   وكان (شهابا) فى الدياجى الدوامس
فوسع عليه بالذى أنت أهله   وخلصه من أشراك ضيق المنافس

* * *

كان العصر الذى نشأ فيه الشيخ محمد شهاب الدين عصر صناعات لفظية ومحسنات بديعية ، وهو أثر من آثار عصر الأتراك الذى اتجه فيه الشعر ألى هذا النوع من الكلام اتجاها نقص من قيمته وحط من شأنه ؛ وجعله مجرد ألفاظ مرصوفة وجمل مصفوفة لا عناية فيها بمعنى جليل أو فكرة أو حس دقيق .

وكان من الطبيعى أن يجول الشيخ شهاب الدين فى هذا الميدان ويصول ما دامت الأذواق لا تزال على حالها من ولوع بالزخارف القولية والزينات اللفظية ، ولهذا ترى ديوان هذا الشاعر زاخرا بفيض لا نهاية له من هذه

المحسنات ، فهو يتكلفها تكلفا ، ويتصيدها تصيدا ، ويحتال فى الوصول إليها بكل حيلة ممكنة لديه .

ومن الظواهر الغريبة فى شعره أنه اتخذ من اسمه « شهاب » آله ميسورة لاصطناع الكناية الرقيقة أو التورية الخفيفة أو الجناس الذى يحلو حينا ويسمج أحيانا .

فهو يقول فى ص ٣٩ من ديوانه الذى لم يطبع غير مرة واحدة مادحا الخديو عباس الأول قبل توليه حكم مصر :

هاك منى خريدة بنت فكر ما اعترتها يد الخنا بمساس
لو أتاها الشيطان يسترق السمع رماه « شهابها » بانتكاس . .

فهو هنا يحشر الشيطان حشراً فى القصيدة لكى يسلط عليه اسمه «شهابا» مشيراً بذلك إلى قوله تعالى فى سورة الجن : (وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا)

وقد تكون هذه التورية مستملحة ومقبولة لو أن الشاعر لم يكثر استعمالها ، أو يطل من إدارة المدائح عليها . فقد أنهكها بذلك حتى كادت تكون مملولة فى الأذن ، مردودة ثقيلة على السمع ، فهو يقول مادحا ومهنئا أدهم باشا مدير ديوان المدارس بمناسبة عودته من أوربا :

هاك منى وصيفة بنت فكر مثلها خادم ومثلك يخدم
حرست فى سماء حسن حلاها (بشهاب) به الشياطين ترجم

ويقول فى مدح الشيخ أحمد الصائم شيخ الجامع الأزهر وتهنئته بالسلامة من مرض اعتراه :

هذا «شهابك» بالمرصاد يثقب من يستمعون وترديهم قوافيه

ويقول موريا أيضا باسمه شهاب :

إن بين الشهاب والبدر بونا هل تساوى فرع وأصل أصيل

أما الجناس — وهو اتفاق الكلمتين فى اللفظ مع اختلافهما فى المعنى — فشائع فى شعر الشهاب . ولا شك أنه كان يتعمله تعملا استجابة لذوق عصره . فالشاعر فى ذاك العصر كان يقاس ويوزن بما حوت قصائده من هذه الصناعات الكلامية التى لا تعدل شيئا فى زماننا ، وأغلب جناسه كان فى مفتتح قصائده ومستهل أبياته ومقطعاته ، ولو أخذنا نحصى عليه ما استعمل من أنواع الجناس لخرج بنا القول عن المقام ، فنكتفى بإيراد بعض الأمثلة للدلالة على ما نقول :

فهو يخاطب عباس باشا الأول ويستهديه « بغلة » بقصيدة أولها :

أكئوس تجلى بينت (الدوالى) أم شهى الرضاب فيه (الدوالى)

ويلاحظ الجناس بين الدوالى الأولى وهى جمع الدالية أى الكرمة ، والدوالى الثانية وهى مركبة من كلمتين : الدوا وأصلها الدواء ؛ ومن حرف الجر مع ياء المتكلم « لى »

ويقول « مجنساً » أيضاً فى مطلع قصيدة يهنىء بها عباساً بعودته من الآستانة :

شرح الصدور قدوم أعدل(وال) فأدر مدام الأنس صاح و (وال)

ويقول فى مطلع قصيدة يهنىء فيها الخديو أيضاً بسلامته من الهواء الأصفر :

تاب الزمان وقال إنى (نادم) فادعو الندامى والمدام (ونادموا)

ويقول أيضاً فى تهنئته بمولد ولده محمد الصديق :

جاء الزمان وأبدى ليلة (القدر) بوضع نجل جليل الشأن (والقدر)

وهكذا نرى التكلف المرذول فى استعمال الجناس واصطياد الألفاظ التى بها يتم ماذهب إليه وقصد له . وقد يكرر الجناس فى قصائده أكثر من مرة ، فتراه يستعمله فى هذه القصيدة أو تلك ، وتحس حين تقرؤه بسماجة النغمة المكررة وثقل الكلام المردود ، وأحسن مثال على ذلك التكرار جناس كلمة « الدوالى » فقد أعاده فى قصيدته التى يهنىء بها عباسا بقدوم الأميرة شقيقته من الآستانة حيث يقول :

صاح هيا بكأس بنت (الدوالى) واسقنيها فأن فيها (الدوالى)

على أن بعض هذه الجناسات والتوريات كان يختفى من مطالع قصائده ويظهر فى أثناء القصيد وفى وسط الشعر ، كقوله فى مدح صبحى بك نجل عبد الباقى بك الذى كان فى ذلك الحين أميناً لخزانة الخديو :

كم أرى « سائل » دمعى فى حمى فضلك يُنهر

والتورية فى كلمة «سائل» ظاهرة واضحة ، وفيها إشارة إلى قوله تعالى : « وأما السائل فلا تنهر »

وأغرب من ذلك كله هو إغراق هذا الشاعر فى استعمال مصطلحات العلوم وخاصة علم النحو والصرف ، فهو يذكر « الحال » مورياً بين الحال بمعنى الشأن والحال التى هى من منصوبات الأسماء فى علم النحو ، ويذكر « الضمير » ويورى بين الضمير الانسانى Conscience ، وبين الضمير النحوى Pronoun ويذكر الأمر والنهى ويقصد مدلولهما فى علم النحو .

اسمعه يقول فى مدح مصطفى مختار بك مدير المدارس :

رأيت« حالا » « مضى » « فعل » « أبرز » فى « شأنه » « الضمير »

فكل كلمة بين هلالين فى هذا البيت تحمل خلفها تورية نحوية من حال إلى فعل ماض إلى إبراز الضمير إلى ضمير الشأن . وهى كلها مصطلحات فى علم النحو .

واسمعه يقول مادحا سامى باشا ناظر الوقائع :

هو الفلك المحيط بكل معنى   وفياض الفضائل فى الأنام
(بيان) حلى (معانيه) (بديع)   وسحر حديثه حكم الكلام

فهو يورى هنا فى شطر واحد بعلم البيان والمعانى والبديع .

واسمعه يقول مادحا حسن باشا محافظ العاصمة ومورياً فى الحقيقة والمجاز من علم البيان :

ما لأياديه فى « الحقيقة » شبه   إذ « مجاز » النوال فيها « مرسل »

فاستعمل هنا كلمات الحقيقة والمجاز المرسل وهى من مصطلحات علم البيان

ويقول فى القصيدة نفسها مشيراً إلى علل الصرف النحوية :

علل الصرف فى الضرورة تلغى   كيف ذو الصحة اختياراً يعتل

ويورى فى قصيدته لأبراهيم بك رأفت وكيل ديوان المدارس ببعض مصطلح الحديث فيقول :

إنى على دعوى الهوى   والحب لى حجج قوية
(وحديث) أشواقى إليـــك « مسلسل » بالأولية

وكان الشهاب أولع فيما أولع به من المحسنات الكلامية بالكنايات الكثيرة ، فهو لايدعو القمر قمراً ولكن يسميه « سليل الشمس » . ولا يسمى الخمر خمراً ولكن يدعوها « ابنة الكرم » ولا يسمى قصائده قصائد ولكن يدعوها « وصائف » أو « أبكاراً » أو « أوانس » أو ما إليها .

لأنها من بنات أفكاره . ولا يسمى المطر أو الماء باسميهما ولكنه يقول : (السحاب) (وابن المزن) .

اسمعه يقول من قصيدة لعبد الباقى بك خازن الخزانة الخديوية :

زوجت « بابن مزنة » « بنت كروم العنب »

ويقول ممتدحا السيد محمد البكرى شيخ السادة البكرية ونقيب الأشراف فى وقته :

« بنت كرم » عذراء شهد لماها كشذا المسك فى مذاق العقار

ويقول فى القصيدة نفسها :

زوجوها «بابن السحاب» فجاءت من درارى حبابها بذرارى

وهذا المعنى لطيف ، فإن الخمر لما مزجت بالماء حدث من هذا المزج أو الزواج ذرية كثيرة هى الحباب الذى يطفو على وجهها كالدرارى المنثورة

ويقول فى مدح عارف بك شيخ الإسلام فى تركيا :

أرجو قبول « وصيفة » قد قلدت بحلاك عقداً لم تنله وصائف

فهو هنا يكنى عن قصيدته بالوصيفة .

ويقول فى مدح الخديو عباس الأول :

هاك منى خريدة بنت فكر ما اعترتها يد الخنا بمساس

ويكرر الشطر الأول بنصه فى قصيدة أخرى يمدح بها الشريف محمد ابن عون . ولا شك أن هذا التكرار الكثير فى الأشطار والألفاظ والمعانى والجناس والتورية وغيرها ليس دليل قدرة عند الشاعر ولا علامة تمكن ولا إحاطة . ولكن دليل المجال المحدود غير الممدود . فهو يقول للشريف

هاك منى خريدة بنت فكر بهرت فى منصة وزفاف

والشطر الأول هنا كالشطر الأول من قصيدة عباس .

ومما ذهب إليه الشيخ محمد شهاب الدين فى شعره استعمال « التاريخ » وهى بدعة شاعت فى عصور الشعر المتأخرة ، وكان لها فى ذلك الزمان شأن وأى شأن . وإذا راجعنا دواوين الشعراء منذ أيام محمد على باشا إلى العشر الأولى من مطلع القرن العشرين وجدناها مشحونة باستعمال التاريخ الشعرى ولم يسلم من ذلك شاعر واحد . حتى امتدت العدوى إلى شعراء فى العصر الحديث نعدهم من الفحول ونحصيهم فى شعراء الطليعة كالمرحوم إسماعيل صبرى باشا ؛ إن المتصفح لديوانه الذى طبع أخيراً فى ثوب من العناية والرونق — على يد المرحوم الشاعر أحمد الزين — يرى الشاعر الكبير يستعمل التاريخ فى بعض مقطعاته .

على أن هذه البدعة الشعرية قد ماتت فى زماننا هذا ، ولم يعد بحمد الله من يبكى على موتها أو يتطلع إلى إحيائها . فقد أدرك شعراء العصر الحديث ما تقتضيه صناعة التاريخ الشعرى من التكلف والعنت والضرورات التى قد تضحى باللفظ الفخم النبيل ، أو الأسلوب العالى المستوى ألى لفظ ساقط أو أسلوب ركيك لتستقيم « الحسبة التاريخية » وتضبط « عملية الحساب » .

لقد عنى الشيخ شهاب بالتاريخ الشعرى عناية فائقة ، واختص به جزءا كبيرا من ديوانه . فهو يؤرخ لكل حادثة فى زمانه أو لكل مناسبة من مناسبات عصره بالبيتين أو الثلاثة إلى الخمسة . ولم يزد تاريخ شعرى من تواريخه على ستة أبيات ، ولم يقل عن بيتين .

فهو يؤرخ لبناء القناطر الخيرية سنة ١٢٦٣ هـ ١٨٤٦ م فى خمسة أبيات ويؤرخ لتولية عارف بك منصب مشيخة الإسلام فى تركيا ببيتين ، ويؤرخ

القنطرة جددها ابراهيم باشا نجل محمد على باشا سنة ١٢٦٤ هـ ، ويؤرخ لستر الكعبة المشرفة سنة ١٢٤٣ هـ ويؤرخ لوفاة الأميرة حواء هانم أخت الخديو عباس باشا الأول سنة ١٢٧٩ هـ ، ويؤرخ لكثير غير ذلك مما عظم أو هان من أحداث الزمان . . . فيؤرخ لانشاء منظرة أو بناء حمام أو وضع غلام . . . !

ويظهر من مطالعة ديوان الشيخ شهاب الدين أنه كان خفيف الظل ، بارعا فى الطلب ، وكثيرا ما عاد من مطالبه مجاب الدعاء ، محقق الرجاء ، فهو يطلب بغلة من الخديو عباس — كما سلف القول — فى شعر لطيف خفيف فتجاب طلبته ، وكان « السمن » نادر الوجود فى زمن من الأزمان فيكتب قصيدة طويلة الى على بك حسيب أمين جمرك بولاق يطلب فيها مقدارا من السمن بالثمن . . . ويقول فيها :

ألية بالسمن أو بزبدة لله در أصلها الحليب
لأعرضن الحال للفتى الذى رجاء من يرجوه لا يخيب

ولقد مدح الشهاب كثيرا من أعلام عصره مثل محمد على باشا وابراهيم وعباس الأول . ومدح أدهم باشا ومختار بك ناظرى المعارف أو مديرى أدارة المدارس كما كان الاسم فى ذلك الحين . ومدح الشريف ابن عون وعارف بك شيخ أسلام تركيا والسيد محمد البكرى نقيب الأشراف والعلماء المشايخ محمد العروسى وحسن العطار وحسن القويسنى وأحمد الصائم شيوخ الجامع الأزهر ، والشيخ محمد العباسى المهدى المفتى ، والشيخ محمد عليش شيخ السادة المالكية وغيرهم .

وكان يخاطب ممدوحيه بالكنى المشهورة لأسمائهم ، فيخاطب عليا

بأبى الحسن ، ويخاطب عمر بأبى حفص ، ويخاطب عبد الرحمن بك مظهر بأبى عوف فى قوله :

فأبشر « أبا عوف » بعفو وحظوة وطب طربا واشرب على رنة المزهر

وعلى الجملة فهو مثال جيد لشعراء مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادى ، وشعره صورة صحيحة لعصره ومرآة صادقة لبيئته التى كانت خاتمة لعصر سبق وتمهيدا لمفتتح عصرنا الحديث .

ولقد جمع الشهاب ألى الشعر الكتابة فاشتهر فى عصره بالبراعة فى الأنشاء مما جعل ولاة الأمور يسندون إليه رياسة تحرير (الوقائع المصرية) بعد أن تخلى عنها الشيخ حسن العطار حينما أسندت إليه مشيخة الأزهر الشريف . وانتقل الشاعر بعد ذلك من تحرير الوقائع ألى رياسة التصحيح بالمطبعة الأميرية .

وكانت فى الشهاب ناحية موسيقية بارزة جعلته أستاذ هذا الفن فى عصره فتتلمذ عليه الكثيرون ، وأخذوا أصول الموسيقى العربية وقواعدها على يديه . وله فى ذلك كتاب « سفينة الملك » . وهو فوق كونه جامعا لفن الموسيقى والأغانى يشتمل على كثير من الشعر العربى الرقيق . وقد طبع فى القاهرة عدة طبعات .

ولا شك أن اتصال الشهاب بالخديو عباس قد أضفى على شعره من الحظ ما جعله فى مقام الصدارة فى عصره . ولكنه على كل حال كان أحق من سواه من الشعراء بمرتبة لم يسم إليها معاصروه .

وأظن أننا نكلف رجال ذلك العصر شططا إذا طلبنا منهم أن يكونوا أجود مما وصلوا إلينا ، فقد كونتهم بيئتهم التى استجابوا لها على أحسن ما يستطيعون . ثم مهدوا السبيل بعد ذلك للبارودى الذى اجتمعت له ولعصره أسباب الإحياء فى الشعر العربى ، فكان بحق محيى الشعر الحديث .

الشيخ محمد عياد الطنطاوى

١٨١٠ — ١٨٦١

فى سنة ١٨١٦ أنشىء فى بتروغراد عاصمة روسيا فرع للغات الشرقية ، وكان الفضل فى ذلك راجعاً إلى « أوفاروف » صاحب مشروع المجمع الآسيوى .

وأخذت العناية باللغات الشرقية تظهر شيئاً فشيئاً فى روسيا حتى سنة ١٨٥٤ بفضل اهتمام م . بوشكين ناظر معارف بتروغراد ، وكانت تدرس فيه بجانب العربية اللغات الفارسية والتركية والمغولية والصينية والأرمنية وغيرها من لغات الشرق .

ورئى بعد ذلك ببضع سنوات — أو على التحديد — فى سنة ١٨٦٣ أن يقوى هذا القسم بإنشاء شعبة لتدريس تاريخ الشرق ، حتى تكون دراسة اللغات الشرقية متمشية جنباً إلى جنب مع دراسة تاريخ أقطارها . وأسندت رياسة هذا القسم إلى الأستاذ « جريجرياف » الذى رأى أن الاستعانة بالأساتذة المشارقة أنفسهم هى أجدى وسيلة لتعليم اللغات الشرقية للراغبين فيها من الطلاب الروس وغيرهم من الأوربيين .

وفى أول العقد الخامس من القرن التاسع عشر عرفنا أزهرياً مصرياً اسمه الشيخ محمد عياد الطنطاوى يعلم اللغة العربية فى مدرسة اللغات الشرقية بمدينة بطرسبرج . وأصبح له بمستشرقى عصره صلات وثيقة حتى تتلمذ عليه نفر منهم .

فمن هو هذا الشيخ الطنطاوى المغامر الذى ترك الأزهر ، وترك التدريس فيه ، وترك مصر ورحل إلى بلاد كان مبلغ العلم عنها قليلا . وعاش فيها حياته الأدبية التعليمية ، إلى أن أدركته منيته هناك ، ودعاه أجله إلى تلك البقعة النائية من الأرض ، فدفن فى مدينة « بطرسبورج » بمقابر المسلمين ؟ .

ذكر الأستاذ توما ديبو المعلوف فى مقـال له بعنوان « تاريخ علم المشرقيات العربية » ، أن اسمه الشيخ محمد عياض ، بالضاد لا بالدال ، وأظن أن الأستاذ توما ترجم اسم الشيخ المصرى عن حروف لاتينية ترسم هكذا Ayyad فجعل حرف D ضاداً بدلا من جعله دالا على حقيقته . والصواب ن سمه عياد لا عياض . وأن اسمه بالكامل هو محمد بن سعد بن سليمان ابن عياد المرحومى — نسبة إلى محلة مرحوم من أعمال مديرية الغربية وليست المحلة بدار مولده ، ولكنها دار أبيه . أما مولده ففى قرية نجريد من أعمال مركز طنطا . ولكن غلبت على اسمه النسبة إلى مدينة طنطا عاصمة مديرية الغربية . فصار مشهوراً منذ أيام الطلب فى الجامع الأزهر بالطنطاوى

وليس هناك معلومات وثيقة عن نشـأة الشيخ عياد وحياته الأولى ، وقد لقى المرحوم أحمد تيمور باشا عناء كبيراً حينما ترجم له فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق . حتى لقد استقى معلومات مقاله من الشيخ عبدالمعطى السقا أحد علماء الأزهر ، مجموعة مما بلغه عنه واستخلصه من مؤلفاته ،

ويعد الشيخ محمد عياد الطنطاوى من أوائل علماء الأزهر الذين اتجهوا فى التدريس وجهة أدبية ، بعد أن لم يكن لذلك مكان فى الأزهر . ولقد

حذا الشيخ عياد فى هذا حذو أستاذه الشيخ حسن العطار الذى كان عنده من النزعات الأدبية ماجعل له مقاما ملحوظا فى الجامع الأزهر وفى غير الأزهر فى ذلك الوقت .

وما من شك فى أن هذه الميول الأدبية فى بيئة الأزهر كانت إلى ذلك الحين تعد مطعناً على العالم الأزهرى ، وتؤخذ مدخلا للذين يريدون أن ينالوه . فقد تعصب على الأستاذ الشيخ حسن العطار جماعة من علماء الأزهر بسبب نزعاته التجديدية وميوله الأدبية ، ولقى من إخوانه فريقاً يؤيده وفريقا يعارضه . وكان من مؤيديه الشاعر الشيخ محمد شهاب الدين شاعر الخديو عباس الأول الذى صور هذه الخصومة بقوله :

كم رهط اجتمعوا ليطفأ نوره والله كان متمم الأنوار
لم يظفروا يوماً بنيل مرامهم ولغيظهم عضوا على الأظفار

وما من شك أيضاً فى أنه كان بدعاً فى ذلك الحين أن ينصرف بعض ال[illegible] ء إلى الشعر والأدب بدلا من إغراقهم فى مباحث الفقه والحديث ، ول[illegible] الطنطاوى لم يبال بما اصطلح عليه شيوخ عصره وعلماء زمانه . ومضى فى طريقه يدرس لطلابه فى الأزهر مقامات الحريرى ويشرح لهم غريب ألفاظها . ولعله كان يبصرهم بمواطن الحسن والقبح فيها ، فقد كان فيه ذوق يدل على حسن تذوقه للأدب .

وليس عجيباً أن يكون الشيخ عياد الطنطاوى ممن يذكرهم تشرلز آدمز وأن يخصه ببضعة سطور فى معرض حديثه عن المحاولات التى بذلت لإصلاح مناهج الدراسة بالأزهر [1] .

---

(١) الأسلام والتجديد فى مصر — تأليف تشارلز أدمز — ص ٢٩

وإذا كان رجال البعثات من الأزهر قد لقوا من معارضيهم فى زمن محمد على باشا كثيراً من الجمود والمقاومة ، فإن الشيخ الطنطاوى لم يلق من المعارضة مثلهم ، لأنه كان معتدلا فى نزعته ، ولأن ثقافته إلى ذلك الحين كانت عربية خالصة ، فما عرف شيئاً من التيارات الجديدة التى سبقه اليها زملاؤه الأزهريون العائدون من البعثات .

ويظهر أن أثر الشيخ حسن العطار — وهو العالم المستنير بشهادة الأستاذ فولرز [١] — لم يكن وحده كل شيء فى تكوين ذلك الشيخ المجدد فقد أتيح للشيخ الطنطاوى من الاتصال بالاوربيين فى مصر مالم يتح لغيره من شيوخ الازهر . وتعرف إلى رئيس « الإرسالية البروتستانتية » لما اشتغل مدرساً بمدرستها فى القاهرة ١٨٣٥ . وفى ذلك الحين تعرف عليه من المستشرقين الوافدين على مصر الدكتور « برون» الفرنسى Perron أستاذ الطبيعة والكيمياء بمدرسة الطب المصرية ، وكان يعرف العربية كتابة وقراءة وحديثاً ، كما تعرف عليه الدكتور فراهن R. FRAEHN الألمانى الذى كان أبوه مدرسا للمشرقيات فى كلية قازان الروسية ، والمستشرق جستاف فيل WeiL الذى كان مدرساً لتاريخ المشرقيات فى كلية هيدلبرج ، وله من الكتب : تاريخ الخلفاء فى ثلاثة مجلدات ، وتاريخ العباسيين فى مصر فى مجلدين . ومن الذين تعرف عليهم الشيخ المستشرق الفرنسى « فلنجانس فرنيل » F. Fresnel . وله أبحاث فى آثار بابل وترجم لامية العرب للشاعر « الشنفرى » إلى اللغة الفرنسية .

وبطول صحبة الشيخ عياد للمستشرقين عرفوه وتردد اسمه فى دوائرهم .

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية. الترجمة العربية — المجلد الثانى ص ٦٥

فلما احتاج معهد اللغات الشرقية فى بطرسبورج إلى مدرس للغة العربية وقع الاختيار على الشيخ ، وكلفت دوائر روسيا الخواجة « بطرس بكتى »[١] مندوبها القنصلى فى القاهرة ليقنع الشيخ بالسفر . ويظهر أنه كان متردداً فى أول الأمر ، كما كان عبد الله باشا فكرى بعده متردداً فى السفر إلى مؤتمر المستشرقين الثامن باستوكهلم . ولكن وساطة الخواجة بكتى نجحت ، وسافر الشيخ ليتبوأ له مقعداً بين أساتذة اللغـــات الشرقية بجامعة بطرسبرج أو بتروغراد .

ولا يعلم بالضبط تاريخ السنة التى غادر فيها الشيخ القاهرة إلى روسيا ، ويغلب على الظن أنها حوالى سنة ١٨٤٠ ، فقد كتب نسخة من كتاب « سقط الزند » لأبى العلاء المعرى وهو فى الحجر الصحى بالعاصمة التركية . وذكر فى ختام النسخة المخطوطة أنه نسخها سنة ١٢٥٦ ﻫ المقابلة لسنة ١٨٤٠ م

ومن المؤكد أنه كان فى الروسيا عام ١٨٤٣ حينما ولد للقيصر اسكندر الثانى ولد اسمه نقولا فى حياة جده القيصر نقولا الأول، فنظم الشيخ قصيدة يهنىء بهذا الميلاد ويؤرخ له بقوله :

أدعو الأله مهنئا ومؤرخا   للروسيا رغد بطلع نقولة

ولقد نشرت هذه التهنئة التاريخية فى كتاب للشيخ اسمه « أحسن النخب فى معرفة لسان العرب » وهو كتاب يدور حول ألفاظ وجمل وأمثال

---

(١) بطرس بكتى كان مندوبا قنصليا Agent cosulaire لدولة الروسيا بمصر ، وكان معروفا بقنصل المسكوف فى مصر . وهو من أسرة سورية قديمة اشتهر أفرادها بحذق اللغات الأجنبية وكان بينه وبين الشاعر شهاب الدين المصرى صلة ود . بدأها بطرس نفسه بزيارة الشاعر من غير معرفة سابقة . فمدحه الشاعر بأبيات نشرت فى ديوانه ص١٦٥ ، وقد نشر بعض الأبيات محرفا فى كتاب « الآداب العربية فى القرن التاسع عشر » للأب شيخو ص ٨٥

وحكايات ورسائل تبودلت بينه وبين أصدقائه فى مصر . وقد أرخت بعض هذه الرسائل بتاريخ ١٢٥٧ هـ — ١٨٤١ م . وهذا يرجح عندى أن يكون سفر الشيخ إلى روسيا قبل هذه السنة .

وإذا كانت سنة سفر الشيخ عياد إلى روسيا غير معلومة على وجه اليقين فإن سنة وفاته هنالك قد حارت فيها الظنون بين الشك واليقين .

فقد ذكر الأب لويس شيخو اليسوعى أنه توفى سنة ١٨٨١ [١] م ، وذكر الأستاذ كليمنت هيوار [٢] C. Huart صاحب « تاريخ الأدب العربى » أنه توفى سنة ١٨٧١ ، وذكر أمين باشا فكرى [٣] رواية عن والده عبدالله باشا فكرى أن والده تقابل مع المستشرق الروسى يوسف كوتوالد [٤] ، وسأله عن الشيخ محمد عياد الطنطاوى ، فأخبره كوتوال هذا « أن الشيخ محمداً كان بالمدرسة الكبرى ، وبديوان الخارجية فى بطرسبورج معظما غاية التعظيم ، محترما إلى النهاية ، مرتباً له معاش عظيم ، وكان له ولد وزوجة ، وأنه مات فى سنة ١٨٦٢ م على مايتذكر » . وذكر المستشرق الروسى المعاصر أغنطيوس كرتشكوفسكى أن الشيخ عياد الطنطاوى توفى فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٦١ م [٥]

هذه أقوال مختلفة فى تاريخ وفاة شيخ مصرى جاهد فى روسيا طويلا

---

(١) الآداب العربية فى القرن التاسع عشر ص ٦٣ طبعة بيروت سنة ١٩٢٦

(٢) كتاب . . . . Litterature arabe Pag e 420 . طبع باريس سنة ١٩٠٢

(٣) كتاب ارشاد الألبا إلى محاسن أوربا ص ٦٠٩ — ٦١٠

(٤) هو الأستاذ j. M. Gottwald المستشرق الروسى، وقد نشر معجما للقرآن الكريم فى قازان سنة ١٨٦٣ وتوفى بها سنة ١٨٩٧

(٥) راجع مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق المجلد ٤ — ص ٥٦٢ — ٥٦٤ عدد ديسمبر سنة ١٩٢٤

ليفشر فيها لغة العرب ، أما ما ذكره الأب لويس شيخو فهو خطأ مطبعى محرف عن سنة ١٨٧١ بدلا من سنة ١٨٨١ كما جاء فى الطبعة الأولى من كتابه . وقد تابع الأب لويس شيخو الأستاذ المستشرق هيوار فى هذه الرواية ، وكلاهما أخذ عن كتاب الأستاذ « بروكلمان » مؤرخ الأدب العربى المشهور .

وهذه الروايات تختلف عن رواية « كوتوال » أو « جوتوالد » التى ذكرها المرحوم عبدالله باشا فكرى ، وقيدها ولده أمين باشا فكرى حين سمعها من والده ، وهى سنة ١٨٦٢ .

وقد تكون هذه الرواية أقرب الروايات إلى الصحة ، لأنها قريبة من سنة ١٨٦١ وهى السنة الصحيحة التى اعتمدها الأستاذ الروسى كرتشكوفسكى

وليس عجيباً أن يدخل الشيخ محمد عياد الطنطاوى فى أعلام النهضة الأدبية فى القرن التاسع عشر ، فهو من الطلائع الذين خرجوا على طريقة الأزهر فى التدريس ، واتجه فى دروس اللغة والأدب والشعر وجهة جديدة . وقد اتسعت هذه الطريقة فيما بعد على يد الشيخ حسين المرصفى صاحب كتاب « الوسيلة الأدبية » الذى تلقى العلم بالأزهر وتولى التـــدريس فيه وتوفى سنة ١٨٨٩ م .

ولم تصبح دراسة علوم اللغة وآدابها وصناعة الإنشاء قولا وكتابة حادثاً رسمياً فى الجامع الأزهر إلا فى عصر الخديوى عباس الثانى ، فقد أصدر أمره فى العشرين من المحرم سنة ١٣١٤ ﻫ بتدريسها وتدريس غيرها من مبادىء الهندسة وتقويم البلدان وتاريخ الإسلام [١] . ولا شك أن ذلك

---

(١) كتاب لمحة فى تاريخ الأزهر للدكتور على عبد الواحد وافى ص ٢٣

كان استجابة لدعوة بدأها الشيخ حسن العطار ثم أعقبه تلميذه الشيخ محمد عياد الطنطاوى من بعده .

وليس للشيخ عياد فى الأدب أثر ظاهر ملموس ، إلا ما كان من دروسه فى الأزهر وقد شرح فى هذه الدروس مقامات الحريرى كما سلف القول ، وديوان الحماسة . ولكنه لم يترك لنا شرحا مخطوطاً لأحد هذين الكتابين على أن منزلته الأدبية ترجع إلى الروح التى مهد بها فى الأزهر لتدريس الادب والشعر (ولم تكن مثل هذه المواضيع تدرس فى الازهر من قبل[١]

وقد اشتهر الشيخ عند المستشرقين بدراساته فى اللغة والنحو حتى وضعه « هيوار الفرنسى » فى عداد النحويين [٢] . وله فى ذلك بعض الحق . فقد ترك الشيخ من مؤلفاته المخطوطة : (١) حاشية على شرح الشيخ خالد على متن الازهرية فى علم النحو (٢) حاشـــية على متن الزنجانى فى الصرف (٣) حاشية على كتاب الكافى فى علمى العروض والقوافى . ومنها نسخة خطية فى مكتبة بتروغراد . وأخرى فى مكتبة بلدية الاسكندرية .

وقد كانت حياة الشيخ فى روسيا جهاداً فى سبيل الدرس [٣] . وبعد بضع سنوات من سفره إلى روسيا — وعلى التحديد فى سنة ١٨٤٧ — دعى للتدريس فى كلية بطرسبورغ وكان هو الأستاذ الأول لمادة اللغة العربية ودعى المستشرق الروسى نفروتسكى ليكون مساعداً له . فرضى بذلك .

---

(١) كتاب الاسلام والتجديد فى مصر — لتشارلز آدمز ص ٢٩

(٢) Litterature Arabe صفحة ٤٢٠

(٣) ذكر الأب شيخو أن الشيخ الطنطاوى دعى الى التدريس فى بطرسبرج ١٨٥٤ ونقلت ذلك عنه مجلة رعمسيس المصرية . والصواب ما ذكره كرتشكوفسكى من أن ذلك كان سنة ١٨٤٧

وقد ذكر الأب لويس شيخو أن الشيخ الطنطاوى كان يسعف الأستاذ نفروتسكى فى تدريس اللغة العامية . فصحح الأستاذ أغنطيوس كرتشكوفسكى ذلك القول بقوله : (وكان — أى الشيخ عياد الطنطاوى — المعلم الأول وكان نفروتسكى معاونا له ، وليس بالعكس) [1]

وكان من الطبيعى أن يتخرج على يد الشيخ عياد الطنطاوى نفر من المستشرقين الذين تعلموا فى مدرسة بطرسبرج الجامعية ، والذين أسهموا بعد ذلك فى الأدب العربى بنصيب كبير . ومن هؤلاء العلماء المستشرق الفنلندى الأصل « فالن Wallin » الذى كان من رواد الجزيرة العربية فى القرن التاسع عشر . والذى جاب البلاد فى مصر وسورية زمناً طويلا متخذاً اسم « عبد الولى » . ولقد دارت بين هذا التلميذ وأستاذه الطنطاوى رسائل جمعها « فالن » نفسه وطبعها مترجمة إلى اللغة السويدية . وهناك مجموعة أخرى من رسائل الشيخ عياد الطنطاوى محفوظة فى مكتبة جامعة هلسنكى HELSINKI التى أصبحت فيما بعد HELSINGFORS هلسنجفور — عاصمة فنلندة .

وللأوربيين وأرضهم وطرق معايشهم ونظام حيـــاتهم أثر فى الشرقى حينما يفد إلى بلادهم . وقد أثرت باريس فى رفاعة الطهطاوى أحد نوابغ مصر فى القرن التاسع عشر فكتب فيها كتابه « تخليص الأبريز إلى تلخيص باريز »

وأثرت لندن وباريس فى الشيخ العلامة أحمد فارس الشدياق فكتب

---

(١) مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق « عدد ديسمبر سنة ١٩٢٤

فيهما كتابه الطريف « كشف المخبا عن فنون أوروبا» وهما من كتب الرحلات الممتعة فى القرن الماضى .

فهل ترك لنا الشيخ عياد الطنطاوى أثراً من آثاره القلمية الأدبية فى « بطرسبورج » وآثارها ومعالمها وطرق الحياة فيها كما صنع رفاعة الطهطاوى وأحمد الشدياق ؟

كنت أظن أن الطنطاوى لم يترك لنا شيئاً فى هذا السبيل . ولكن البروفسور ن . ج . بولوتسكى مدرس اللغة القبطية فى معهد العلوم الشرقية بالجامعة العبرية فى القدس كتب إلى فى سنة ١٩٤٦ يخبرنى أن الشيخ ترك مؤلفاً بعنوان : « تحفة الأذكيا بأخبار بلاد روسيا » وأن هذا المؤلف لا يزال مخطوطاً إلى الآن . وتوجد منه نسخة فى دار الكتب لجامعة استنبول — على حين أن مخطوطة الشيخ الأولى التى كتبها بيده مصونة فى لننجراد .

وقد ترك لنا الشيخ عياد رسالة إلى زميله فى الجامع الأزهر وصديقه رفاعة بك الطهطاوى يذكر له فيها شغفه « بكيفية معيشة الأوربيين ، وانبساطهم وحسن إدارتهم وترتيبهم ، خصوصاً ريفهم وبيوته المحدقة بالبساتين والأنهار » .

ولقد ظفرت مكتبة بترغراد — أو لننجراد اليوم — بمخطوطات كثيرة للشيخ عياد ، بعضها من تأليفه ، وبعضها من نسخ يده . كما ظفر ترابها بجسده الراقد هناك فى قبره ، شاهداً على نفس عربية تميزت بالجد والبأس الشديد ، فى بلاد العجمة والجلاد والجليد .

شاعر مصرى لأشراف الحجاز

محمود صفوت الساعاتى

١٨٢٥ — ١٨٨١

كان المرحوم الأديب الشـــاعر محمود صفوت الساعاتى من أعلام النهضة الأدبية فى عصر إسماعيل . بل كان من طلائع النهضة فى الشعر العربى الحديث ، ولكنه لم ينل حظه فى كتب التاريخ الأدبى ، ولم يظفر بما يستحقه فى كتب التراجم . فتركه جورجى بك زيدان وهو يؤرخ لأعلام القرن المنصرم فى كتابه : — (تراجم مشاهير الشرق) وهو الكتاب الذى ترجم فيه لسبعة وثمانين علماً من أعلام الشرق فى نواحى نهضته المختلفة ؛ وتركه سر زخورة فى كتابه :— (مرآة العصر) الذى ترجم فيه لمائه واثنين وخمسين علماً من أعلام مصر .

على أن محمود صفوت الساعاتى لم يهمل الإهمال كله ، فضلا من الله أن لا ينسى الناس بمصر التى ينسى فيها كل شىء بعد حين . فإنك واجد فى بعض كتب الأدب والتاريخ إشارات قصيرة جدا إلى شعر صفوت الساعاتى وإلى مكانته الأدبية .

ولولا الترجمة الوجيزة التى صدرت بها أول طبعة من ديوان الشاعر فى حياته سنة ١٨٦٠ لما عرف الناس شيئاً . وهذه الترجمة على إيجازها كانت مرجعاً للكاتب المنشىء الشيخ مصطفى لطفى المنفلوطى حين ترجم للشاعر فى

الطبعة الثالثة من ديوانه التى طبعت بمطبعة المعارف سنة ١٩١١ . والواقع أن المنفلوطى لم يزد على الترجمة الأولى شيئاً يذكر . فقد نقلها بما يقرب من نصفها الأول،وأضاف إليها مقدمة موجزة أيضاً فى الشعر العربى ومكانته عند العرب،وانتقال الشعر مع نقلة الأمة العربية من حال البداوة إلى حال الحضارة . وخلص من ذلك إلى دخول الصناعة اللفظية فى الشعر العربى الذى صار على توالى القرون وفى أخرة منها كالآنية الفضية أو الصينية،التى يضعها المترفون فى زوايا مجالسهم وعلى أطراف موائدهم : ظهرا زاهيـــا وبطنا خاويا . وانتهى المنفلوطى من ذلك إلى رسل التجديد الذين نشروا الشعر العربى من قبره ، ونفضوا غباره ، وكان الساعاتى أحـــد أولئك الرسل الكرام .

والحق أن مكانة الساعاتى فى الشعر العربى الحديث لا ينكرها منصف، فقد جاء بعد السيد إسماعيل الخشاب والسيد على الدرويش من شعراء مصر فى عهد محمد على ، وأدرك شطرا من حياتى الشيخ محمد شهاب الدين وإبراهيم بك مرزوق من شعراء مصر فى عصرى عباس الأول وسعيد باشا . وهم شعراء لم يتميزوا كثيرا من شعراء من قبلهم فى العصر العثمانى ، بل جاروهم فى مذاهبهم التقليدية التى أصارت الشعر إلى صناعة لفظية لا حياة فيها ولا روح ، وجاروهم حتى فى عباراتهم التى لم ترتفع إلى المستوى البليغ . فكان ظهور شاعرنا محمود صفوت بروحه الشعرية القوية وديباجته الرصينة إيذاناً بأن الشعر العربى قد بدأ ينزع إلى سبيل تعود به إلى مهيعه الأول ، تلك السبيل التى قطع فيها محمود سامى البارودى بعده أشواطاً بعيدة فى فحولة التعبير وشرف القصد .

وإذا كانت مكانة البارودى فى تجديد الشعر العربى والعودة به إلى نفسه القديم مما لا يختلف عليه اثنان، فإن الإنصاف يقتضينا أن نقول إن النفخة الأولى من ذلك البعث كانت من صُور الشاعر الساعاتى . وإذا كان البارودى — كما يقول الدكتور هيكل باشا — قد قفز قفزة سما بها إلى مكان الفحول من الشعراء الأولين فى الجاهلية والعصور الأولى من الإسلام [١] فإن لصفوت الساعاتى فضل الخطوة الأولى على قصرها . وهى خطوة لا ينكرها هيكل باشا حين يقول: «كان محمود صفوت الساعاتى أسلم معاصريه ديباجة وأقومهم عبارة، لولا ما فيه من المدح ومن الأقوال المعادة . وهذه المكانة للساعاتى الشاعر قد سجلها له المنصفون . فقد ذكر عنه الأب لويس شيخو أنه : (لزم الآداب واشتهر بنظمه ونثره حتى عد فيهما من المقدمين)[٢] . ووصفه الشيخ محمد حسن نائل المرصفى بأنه : (كان شاعراً من كبار زمانه، ذا ملكة رقيقة ولفظ أنيق)[٣] ونقل يوسف سركيس عن الأب شيخو كلامه فى كتاب : (معجم المطبوعات) . وذكر المنفلوطى فى معرض المقابلة بين شعره وشعر الأمة العربية فى عصره : (أن للرجل من الفضل ما لا يقل عن فضل كل مصلح جديد ومخترع مجيد)[٤] .

على أن للساعاتى مزية أخرى وهى بدء ظهور الروح القومية فى شعره، وهى روح أحياها محمد على وإسماعيل باشا، فكان لابد أن تجد لها صدى

---

(١) ديوان البارودى — طبع وزارة المعارف ص ١٣
(٢) الآداب العربية للأب شيخو ج ٢ ص ١٨
(٣) أدب اللغة العربية للمرصفى ج ٢ ص ٣٢٥
(٤) ديوان الساعاتى طبع المعارف ص ﻫ

فى نفوس بعض الشعراء من أمثال رفاعة رافع الطهطاوى بك الذى كانت قوة مصر فى عهد « محمد على » مصدر إلهام لشعره وأناشيده الوطنية الحماسية . اسمع الساعاتى وهو يقول فى مدح الخديو توفيق :

هل مصر إلا روضة بل جنة   والنيل نهر والحقيقة كوثر
وبها المواكب كالكواكب حوله   ومن الأسنة أنجم لا تحصر

ويقول عن « محمد على » من قصيدة فى مدح الخديو إسماعيل :

البالغ الغـــايات بالهمم التى   بعثت مآثر بعضها الاسكندرا
جعل الكتائب للملوك كتابة   والأرض رقا والعساكر أسطرا
أحيت مراسمه الرسوم وشيدت   عزماته فى الكون ملكا أكبرا ..

أليس ذلك الملك الأكبر مـــا يتطلع المصريون اليوم إلى إعادة مجده العظيم ؟

نشأته وثقافته :

ليست الأعوام العشرون الاولى من حياة الساعاتى مما يهون معه البحث فى ترجمته ونشأته . وكل ما تذكره المصادر الوجيزة أنه ولد بالقاهرة سنة ١٢٤١ هـ ١٨٢٥ م وأنه نشأ بها إلى الثانية عشرة من عمره ، حيث ارتحل مع أبيه إلى الاسكندرية ، فأقام بهـا ثمانية أعوام إلى أن بلغ العشرين من عمره . ولكن ماذا كان يصنع إلى أن بلغ تلك السن ؟ وفى أى المدارس تعلم ؟ وعن أى الشيوخ فى ذلك العصر لقن ثقافته اللغوية ؟ ذلك ماسكتت عنه المصادر . ولكن صاحب كتاب « الأعلام » يقول إنه لم يتعلم النحو ولا ما يؤهله للشعر ، ولكنه استظهر ديوان المتنبى وبعض شعر غيره فنظم ما نظم .

والساعاتى فى هذا يختلف عن شعراء عصره وأدبائه ، فقد تفقه الشعراء محمد شهاب الدين وعلى الليثى وعلى أبو النصر على شيوخ الأزهر فى وقتهم ، ودرس الشاعر الناثر عبد الله فكرى باشا فى الأزهر على الشيخ إبراهيم السقا الذى كان يزدحم الطلاب على حلقته ، كما تردد على حلقتى الشيخين على القوصى والسيد على خليل الأسيوطى[1] .

على أن لقبه بالساعاتى قد يلق بعض الضوء على حياته الأولى ، فيقول جامع ديوانه الأول عبد الحميد بك نافع أنه تعلق بعمل الساعات فاشتهر بالساعاتى ثم تركها ، ويقول المرصفى إنه نشأ فى صغره محباً لإصلاح الساعات[2] ، ولكن أكان ذلك العمل موردا لكسبه ومرادا لعيشه أم اتخذه هوى له ؟ يقول صاحب « الأعلام » إنه : (اشتهر بالساعاتى لبراعته وولعه بعملها ولم يحترفها) . وعنه نقل الرافعى بك فى كتابه عصر « إسماعيل » ج ١ ص ٢٧٩ .

وهبه احترف صناعة الساعات أفيحط ذلك من قدره ؟ وهبه لم يتلق اللغة عن أستاذ ولا الأدب عن معلم ، أفيمنع ذلك أنه طبع شعره بما دانى به الفحول فى قوة الديباجة وسلامتها ؟ وإذا كان قد احترف صناعة الساعات فليس ذلك عيباً ، فالسرى الرفاء الشاعر الموصلى كان فى صباه يرقع الثياب ويطرز فى دكان بالموصل ، وبلغ به الأمر أنه اتصل بسيف الدولة ابن حمدان وبأمراء بغداد ووزرائها ، والزجاج النحوى تلميذ المبرد صاحب كتاب « الكامل » كان يخرط الزجاج قبل أن يتعلم اللغة والنحو ويصبح فيهما إماما .

---

(١) عبد الله فكرى : عصره وحياته وأدبه . لمحمد عبد الغنى حسن ص ٧

(٢) أدب اللغة العربية للمرصفى ج ٢ ص ٣٢٥

ويشترك مع محمود صفوت الساعاتى فى هذا اللقب الشاعر ابن الساعاتى من شعراء القرن السادس الهجرى ؛ وكان أبوه محترفاً لهذه الصنعة ؛ فهو الذى عمل الساعات التى كانت عند باب الجامع بدمشق ؛ صنعها أيام نور الدين محمود بن زنكى فكان له منه الإنعام الكثير[1] .

شاعر الأشراف فى الحجاز :

لما أتم الشاعر من حياته عشرين ربيعاً بدا له أن يقوم بفريضة الحج ؛ فسافر إلى الحجاز سنة ١٨٤٥ م . وهناك تبدأ مرحلة جديدة فى حياته . فقد لفت إليه أنظار الشريف محمد بن عون أمير مكة فى ذلك الحين . وكان الأمراء — كعادتهم — يحبون الشعراء ويقربونهم إليهم ؛ ولعل الحجاز قد فرح بأن يجتذب إليه شاعراً مصرياً ناشئاً تنبىء بواكير شعره بأشهى الثمرات ؛ فأكرم الشريف مثواه وأدناه منه وأصحبه معه فى وقائعه المعروفة فى نجد واليمن ، وقد كان للشريف محمد حروب مع أمراء نجد . وقد أثاره عليهم جماعة من رؤساء أهل القصيم وكان فيهم عداوة قديمة للسعوديين وأتباعهم ، فزينوا للشريف أنه إن سار إلى نجد لم يثبت أميرها فيصل ، فطمع الشريف فى ذلك وخرج من مكة ومعه خالد بن سعود — ابن عم فيصل ؛ وكان خارجاً على ابن عمه[2] . وكذلك كان للشريف محمد وقائع فى اليمن وعسير انضم فيها إلى عساكر الترك . وفى هذه الوقائع اشترك الساعاتى بشعره فى كثير من قصائده التى تذكرنا بشعر المعارك عند المتنبى فى القديم وعند البارودى فى الحديث . والحق أن شعر الساعاتى فى هذه الناحية كان عالى الطبقة ؛ اسمعه يقول فى غزوة بنى سليم :

---

(١) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ج ٢ ص ١٨٤

(٢) عنوان المجد فى تاريخ نجد . لابن بشر الحنبلى ج ٢ ص ١١٥

كررتم على أهل الجبال بمثلها جبال رجال سيرت بالركائب
وكانت عليهم لا لهم ؛ فرقا بهم لأسيافكم ترنو بعيني مراقب
وما ثبتوا إلا قليلا وزلزلوا وأبطالكم ما بين ضار وضارب
رأوا باترات البيض تغمد فيهمو وتخرج من أصلابهم والترائب
فاوا ومالوا للهزيمة بعـــدها وملتم على أرواحهم ميل ناهب

واسمعه يقول فى مدح الشريف محمد بن عون :

إذا تألق برق السيف فى يده أبصرت غيث دم الأبطال منسفحا
مقوم كل معوج بصارمـــه فكل خصم لهذا صار منطرحا
يحكم السيف فى الأعدا فينصفهم حتى إذا رجعوا عن ظلمهم صفحا
يرمى الكماة بموج من عزائمه يوم الهياج وبحر الحرب قد طفحا

واسمعه يقول فى مدح الشريف عبد الله بن الشريف محمد.

كمى إذا التف الوشيج على العدا رمى كل هام من همام بطائر
متى عقد الرايات روى حسامه وإن حل أرضاً غصها بالعساكر
يزف — كازف العقاب — لواؤه على كل نسر من كماة المناسر
تعم أياديه أعاديه رحمـــة وأحسن ما فى الجود رحمة قادر

ظل الشاعر فى ضيافة الشريف بالحجاز خمسة أعوام ، فلما عزل الشريف عن الأمارة وهاجر إلى مصر جاء معه المترجم ، ثم سافر معه بعد ذلك إلى القسطنطينية وصاحبه فيها إلى سنة ١٨٥١ م حيث تركه هناك وعاد وحده إلى القاهرة ، فالتحق بمعية الخديو عباس الأول ، وظل الشريف فى عاصمة الخلافة بدون شاعره إلى سنة ١٨٥٦ ، حيث صدر مرسوم الخليفة بإعادته إلى أمارة مكة .

قطيعة:

هنا تصمت المصادر مرة أخرى عن سر هذه القطيعة بين الشاعر وبين الشريف . لماذا تركه فى عاصمة الخلافة معزولا وعاد إلى مصر ؟ وممن كانت القطيعة ؟ أمن الشاعر أم من الأمير المعزول ؟ يغلب على الظن أنها كانت من الأمير بشهادة الشاعر نفسه فى قوله :

وحبوتمونى بعدها بقطيعة أكذا يكون تكرم وحباء ؟

وفى قوله أيضاً مخاطباً الأمير

قضى العبد بعض الواجبات بقصده
إليكم وقد جوزى بما هو أعظم
ونال الذى قد كان يرجوه وانقضت
أمانيه منكم والسلام عليكم . . .

السلام عليكم ! هى كلمة الوداع يقولها الشاعر للأمير الذى غنى زمانا أناشيد وقائعه . وهذا فراق بينه وبين أميره الحجازى ، ولكنه يعود إلى مصر فيظل مقيما على حب الشريف وولديه من بعده : عبد الله وحسين . ولا يزال فى مصر — على حال من البعد — يتابع أخبارهم ويستخبر الركبان عنهم ، فتراه يهنىء الشريف عبد الله بإمارة مكة بعد وفاة أبيه الشريف محمد ويعرض بحاسديه فى مصر [1] : —

شددت لكم بعد الإله عزائمى فكنت عليهم بالعذاب شديدا
وأنى أعيذ النفس بعد بعفوكم وإن جل ذنبى أو مكثت بعيدا

(١) فى الديوان ص ٢٤ أن الأبيات فى مدح الشريف محمد . وهو خطأ صوابه أنها فى مدح ابنه الشريف عبد الله

وتراه مرة أخرى يرسل إليه من مصر مدحة يقول فيها :

متى قام بي شوق رمتني عوائق   من القدر الجاري فأصبحت مقعدا
عليك ابن عون كل يوم وليلة   سلام من الله السلام ترددا
فإني لم أبرح على العهد مخلصاً   وإن طال عهد البعد واشتقت معهدا

ويظهر أن مطامع الشاعر في الشريف محمد وأولاده كانت كبيرة ، وأنه رام أن يظفر عندهم بما لم ينله في مصر . ولكن حظه جني عليه — أو كما يقول هو : — جنى عليه ذكاؤه . كما يدل عليه قوله يمدح الشريف حسيناً أمير مكة بعد أخيه عبد الله : —

إلى متى وإلى كم لا أرى زمني   إلا كذا بين تقريب وتبعيد
قالوا ذكاؤك محسوب عليك كما   يروى ، فقلت حديث غير مردود

وكما يدل عليه قوله مستعطفاً الشريف محمداً :

من لي بحظ الأغبياء فعلتي   عز الدواء لها وجل الداء

ولم يخف الشاعر هذه الآمال التي كانت تجيش في صدره . فقال يخاطب الشريف محمداً :

أوليتني الآلاء ثم تركتني   مثل الذي حلت به اللأواء
ما كان ذا أملي الذي أملته   فيكم وأنتم سادة كرماء
أو لستمو أدرى بما كنتم به   تعدونني ومتى يكون أداء ؟

وليس هذا البيت الأخير استعطافاً ولكنه من أشد مراحل العتاب ، وما فتىء الشاعر يذكر « هذه الوعود » ويلح بها ، فقال يخاطب الشريف حسيناً :

عللت نفسي غروراً بالمواعيد   فكان تعليلها عنوان تفنيد

كم التعلل والآمال كاذبة   وهل عسى وردت فى غير ترديد

ويخيل إلى أن الشاعر الساعاتى قد أرخص نفسه كثيراً وعناها فيما لا طائل تحته ولا جدوى منه، وقد كان أكرم به لو سكت حين رأى الصدود، بدلا من التحسر على الآمال ، والوعود » ، ولكنه ظل يشكو ويصرح بالحرمان ، والطمع فى النوال من الشريف عبد الله والشريف حسين من بعده ، حتى كادت تنقطع هاته من الشكوى فى مثل قوله :

وقد شكوت الذى بى للحسين عسى   أنال بالقصد منه بعض مقصودى

. فلما أحس باليأس مما فى يده لجأ إلى الله قائلا :

هــذا على أننى لله ملتجىء   لا يحرم العبد يوما فضل معبود

إلى الوطن

عاد الشاعر من عاصمة الخلافة إلى مصر سنة ١٨٥١ بعد الذى كان بينه وبين الشريف ابن عون ، عاد فى السنة الرابعة من حكم عباس باشا الأول ، وهو من بيت عرف مؤسسه بتقديره للأدباء والعطف عليهم ؛ فعين الشاعر موظفا بديوان المعية زمانا ، ولما تولى الخديو سعيد باشا أبقاه فى معيته .

وفى حكم سعيد أيضا عين الساعاتى موظفا فى مجلس الأحكام المصرية وهو الهيئة القضائية التى شكلت فى عهد محمد على باشا باسم جمعية الحقانية ، ثم سميت سنة ١٨٤٩ مجلس الأحكام ، وهو المجلس الذى كان له شأن كبير فى عهد سعيد وإسماعيل ؛ وكان بمثابة الهيئة الاستئنافية العليا فى البلاد [١]

---

(١) عصر اسماعيل لعبد الرحمن الرافعى بك ج ١ ص ٤٨

ولا شك أن اختيار أدباء من طراز الساعاتى فى مجالس الأحكام المصرية مما أعان كثيرا على تهذيب لغتها الديوانية التى وصلت إلى حد الركاكة والغموض . ولعل أثر الساعاتى فى لغة الدواوين كان أقل من أثر عبد الله فكرى الذى كان له فى الكتابة الديوانية أياد لا تنكر . فقد كان عبد الله فكرى فى هذه الناحية شيخ الكتاب فى عصره الذى هو عصر الساعاتى . وقدأورد الأستاذعزيز خانكى بك فقرة من الأمر الصادر بترتيب مجلس الأحكام نعرف منها الحالة السيئة التى وصلت إليها الكتابة الديوانية فى ذلك العصر ، وهذه هى :

« إن قراءة المصلحة يصير السماع بالأذن القلبية ، ويكونوا مبرين عن الصيانة والحجابة وأيضاً من الغرض والنفسانية . ويعطى لها صورة مرضية ، وإذا كان أحد من أرباب المجلس يريد يستغفل المجلس لداعى غرض ونفسانية ويتهم أحد الذوات الذى يكون مستقيم الأطوار استناداً لسعيه فى خلاص المذنب من باب التصاحب . فإذا تظاهر ذلك فلا يصير إغماض العين بل يصير الإظهار من الغرض ويصير إنصاحه أولا بالمجلس »[1]

وقد تعاقب على رياسة المجلس — مجلس الأحكام — رجال ممن عرفوا بالفطنة والاستقامة والعدل ، فأسند الوالى سعيد باشا رياسته سنة ١٨٥٦ إلى الأمير إسماعيل — الخديو إسماعيل فيما بعد — وهو الذى مدحه شاعرنا بقصيدة فى أثناء رياسته للمجلس ؛ كما تولى رياسته المرحوم على باشا ذو الفقار الذى لجأ إليه الشاعر الموظف فى قضاء حاجة له بعد أن « طال الترقب فى يأس وفى أمل »[2].

---

(١) الكتاب الذهبى للمحاكم الأهلية جـ ١ ص ٨١ (٢) الديوان ص ١٤٢

منافسات ومناظرات

لم تجر حياة الساعاتى على نسق هادىء ، ولكنها امتلأت بمناظرات ومنافسات بينه وبين أدباء عصره ؛ وقد بدأت هذه المنافسات فى الحجاز حينما مدح الشريف محمد بن عون ، فكان شعراء الحجاز وأدباؤه يقفون له بالمرصاد ويتناولون قصائده بالنقد . ولما قال فى الشريف هذا البيت من قصيدة .

وأبصر فى كف ابن عون مهندا   يرويه قرم بالضراب خبـــير

اعترض عليه الشيخ زين العابدين المكى بأن الضراب فى اللغة هو النكاح وليس هو الضرب أخا الطعن فى الحروب . فرد الشاعر بأن الضراب هو الضرب . واستشهد بقول الحارث بن ظالم المرى :

وقومى — إن سألت — بنو لؤى   بمكة علموا النـــاس الضرابا

كما استشهد بقول المتنبى :

كل السيوف إذا طال الضراب بها   يمسها — غير سيف الدولة — السأم

وفات المكى — فوق الاستشهاد بالشعر القديم — أن الضراب مصدر قياسى من الفعل «ضارب» . وأن ورود الضراب فى كتب اللغة بمعنى النكاح لا يمنع قياسية المصدر بمعنى الضرب بالسيوف .

واعترض عليه الشيخ زين العابدين فى القصيدة نفسها يصف أعداء الشريف الممدوح :

كأنهم فوق السوابق خـــرد   لهن متون الصافنات خـــدور

بأن فى تشبيه الأعداء بالنساء حطا لقدر الممدوح ؛ فأى فضل لرجل

يحارب نساء خردا . فرد عليه الشاعر بأن هذا المعنى مألوف وقد سبقه إليه المتنبي فى مدح سيف الدولة بقوله :

فصبحهم وبسطهم حـــرير ومســـاهم وبسطهم تراب
ومن فى كفه منهم قناة كمن فى كفه منهم خضاب

كما سبقه أليه الأمام البوصيرى فى بردته مدحا الرسول العربى عليه السلام : —

راعت قلوب العـدا أنباء بعثته كنبأة أجفلت غفلا من الغنم

والقرآن يقول : (حمر مستنفرة ، فرت من قسورة)

وكانت هذه المناظرة أول قيام المنافسة بين الشاعر وبين الشيخ زين العابدين وهى منافسات تثيرها دواعى الزلفى إلى الأمراء والحظوة لديهم ، وقد ظلت المنافسة بين الاثنين على حالها حتى هاجرا مع الشريف إلى عاصمة الخلافة ، فقامت بينهما المنافسات هناك من جديد ؛ ويغلب على ظنى أن هذه المنافسة كانت سببا من أسباب القطيعة بين الشاعر والشريف . على أن تلك المنافسات كانت تبعث أحيانا عوامل الدعاية والتفكهة . وقد كان أشراف مكة أنفسهم يثيرونها ليقفوا منها موقف المتلذذ . فأنه لما نفقت فرس للشيخ زين العابدين على طريق « جدة » أمر الشريف عبد الله شاعرنا أن يعزى الشيخ فيها بشعر فكاهى على سبيل المعابثة .

إلا أن هذه المنافسات التى منى بها فى الحجاز وفى القسطنطينية لم تمنع الشاعر أن يكون على صلات طيبة مع بعض أدباء عصره كالسيد على أبى النصر والشيخ أحمد فارس الشدياق الذى أثنى عليه فى « الوقائع المصرية »[1] .

---

(١) كنز الرغائب فى منتخبات الجوائب ج ٣ ص ١٣٠

أغراض من الشعر

طلع الساعاتى على ناس عصره بنفس شعرى جديد طال عهدهم به ؛ وطلع عليهم بنفحات قومية لم يسمعوا مثلها إلا فى بعض من أشعار الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى ؛ ولكنه لم يخرج على أغراض الشعر قبله ، فمدح كما مدحوا وتغزل كما تغزلوا ، ورجا واستعطف وعاتب وشكا ورثى وتظرف فى شعره كما فعلوا . ولكنه عرف بالاعتدال فى المدح وعدم الإسراف فيه ، وبالرقة وخاصة حين يشكو ويعتب ، وبالفحولة حين يصف المعارك ؛ إلا أنه كان يصرح فى مدائحه بطلب النوال كقوله :

أفنيت عمرى فى طلاب أولى الندى　　متعللا بعسى يجاب ندائى

وقوله للشريف محمد :

منى المدائح والمنائح منكمو　　لا غبن إن كليهما آلاء

وبهذه العملية الحسابية البسيطة يرى الشاعر أن المنحة ثمن للمدحة فلا غبن فى الحالين بين المتقايضين .

وكقوله فى مدح الخديو توفيق :

أريد ورودا من نداكم لأرتوى　　كما يطلب الصادى على البعد موردا

ولا يتعارض هذا التصريح بالنوال وبطلب العطاء مع الصدق فى المدح ووصف الممدوح بما هو فيه ، فأن طلب النوال لا يصل فى عرف العقل والاعتدال إلى المبالغة فى المدح . وقد أشار الشاعر إلى ذلك فى مدحه للشريف حسين بقوله :

إنى امرؤ أتحرى الصدق فى كلمى　　ولست أحمد إلا كل محمود

أما عتابه فقد بلغ فيه الرقة ومزجه بالصراحة التى قد تصدىء بعض القلوب أو تجلوها كقوله :

كنا وكنتم فأكثرنا زيارتكم ... ونحن مثلان فى فقر وإفلاس

كانت مناسبة الحالين تجمعنا ... ومن يدوم على حال من الناس

وهو كلام يذكرنا بقول شاعرنا محمد حافظ إبراهيم فى عتاب السيد محمد الببلاوى نقيب الأشراف :

قد كان بابك مفتوحا لقاصده ... واليوم أوصد دون القاصد الباب

هلا ذكرت بدار الكتب صحبتنا ... إذ نحن رغم صروف الدهر أحباب

وكقوله على لسان من يعاتب صهرا :

فليتكم تحسنون الظن إذ حسنت ... بنا الظنون وكان الود موصولا

رأيت وصلكم قطعا ، وحبكمو ... بغضا ، ونصركم للصهر تخذيلا

وهو عتاب يذكرنا بقول البها زهير الشاعر المصرى الرقيق :

إذا كان هذا فى الأقارب فعلكم ... فماذا الذى أبقيتمو للأباعد ؟

* * *

وعلى الرغم من ظهور بواكير التجديد فى شعر الساعاتى فأنه لم يتخلص جملة واحدة من استعمال التواريخ الشعرية ومن ذكر مصطلحات العلوم والمحسنات البديعية ، على نحو ما كان يفعل شعراء عصره ؛ ولكنه لم يكثر منها كما أكثروا ، ولعل أكثر تواريخه الشعرية اتصالا بالتاريخ القومى هو ما قاله تاريخا لفتح قناة السويس . وهو لم يفعل فى ذلك أكثر مما فعله الشاعر السيد على أبو النصر فى افتتاح قناطر التقسيم بديروط سنة ١٢٨٨ ه سنة ١٨٧١ م[1] .

---

(١) ديوان السيد على أبى النصر ص ١٨٧

أما مصطلحات العلوم فكان يستعملها مقلا على سبيل التظرف كقوله

إن كنت تجزم بانكسارى إننى بالنصب أرفع قصتى إن أمكنا

فقد جمع بين الجزم والكسر والنصب والرفع فى بيت واحد . وهى من مصطلحات النحاة ، وقد بلغ من ولوعه بالبديع أنه نظم مدحة نبوية ضمنها مائة وخمسين نوعا من البديع على نحو ماصنع ابن حجة الحموى فى بديعيته ، وقد شرحها عبد الله فكرى باشا فى نحو ثلاثين كراسة ، ولكنها لم تطبع ولم أقف لها على أثر عند حفدة ذلك الوزير الجليل .

طبعات الديوان :

طبع ديوان الساعاتى أول طبعة على الحجر فى حياة الشاعر سنة ١٨٦٠ باسم « مختصر ديوان الأديب محمود صفوت الساعاتى » وقد قام بهذه الطبعة عبد الحميد بك نافع فى ٩٠ صفحة . وذكر صاحب « معجم المطبوعات » أنه طبع ثانية سنة ١٣٠١ هـ ١٨٨٣ م فى ٩٥ صفحة ، ولم أطلع عليها ؛ وفى سنة ١٩١١ أعاد مصطفى بك رشيد طبعه فى مطبعة المعارف بالفجالة ، وأضاف أليه مالم ينشر من القصائد قبلا فى ١٧٦ صفحة من القطع المتوسط ، وبهذه الطبعة مقدمة للكاتب الشيخ مصطفى لطفى المنفلوطى وكلمة لمحمد بك المويلحى ، وقد ذكر جورجى بك زيدان أن هذه الطبعة كانت فى سنة ١٩١٢م والصواب ما ذكرناه .

ومات الساعاتى فى سنة ١٢٩٨ هـ التى يدخل فيها عاما ١٨٨٠ ، ١٨٨١ م أى أنه قبض إلى ربه قبيل الثورة العرابية وما أعقبها من نكبة الاحتلال . ولا يدرى أحد إلا الله ماذا كان يفعل هذا الشاعر القومى لو أنه شهد الثورة تندلع فيؤججها السيد عبد الله النديم بخطبه الحماسية ، ويتهم فيها عبد الله باشا فكرى ، الذى اشترك فى وزارة محمود سامى البارودى — وهى وزارة الثورة.

السيد على الدرويش

١٧٩٦ – ١٨٥٤

تمهيد

بلغ الشعر العربى فى أخريات العصر العثمانى – أى فى أواخر القرن الثامن عشر – درجة من الضعف والابتذال ، جعلت الناس يزهدون فى سماعه ويرغبون عن إنشاده ؛ وجعلت الأمراء من المماليك – فى حروبهم وانتقاض بعضهم على بعض – يزهدون فيه ويشغلون عنه .

وكان لما وصلت إليه مصر من سوء الحالة الاجتماعية فى ذلك الحين أثر فى ذلك الركود الشعرى . فلم يجد الشعراء أمامهم متنفساً فى تلك الفوضى التى خيمت على البلاد .

وكان ظهور شاعر واحد مثل السيد إسماعيل الخشاب كفيلا بأن يلفت إليه الأنظار ؛ ويرهف إليه أسماع العلماء المتنورين كالشيخ حسن العطار شيخ الجامع الأزهر ، الذى أعجب بديوان الخشاب ، فقام على جمعه ونشره فى مطالع عصر محمد على الكبير

وجاء عصر محمد على فى سنة ١٨٠٥ بعد صراع عنيف مع الفرنسيين من ناحية ، ومع المماليك من ناحية أخرى . . . واتجه نظر الوالى إلى العلوم العملية والفنون الحربية يتخذ منها أساساً لبناء مصر الحـــديثة . . . . فضاع نغم الشعر فى ضجيج الآلات التى أدخلها محمد على إلى مصر ! ولم يكد يسمع له صوت إلا فى أبيات التهانى التى نظمها الشعراء تخليـــداً

لانتصارات البطل الفاتح إبراهيم باشا ، أو تسجيلا لمآثر محمد على فى منشآته الحديثة .

ولكنها أبيات وقصائد لم تبلغ من القوة ما يسمو إلى حالة مصر القوية باسطولها وبجيشها وبمكانها فى التاريخ الحديث .

ولقد أدرك الشاعر « إسماعيل الخشاب » عشر سنوات من حكم محمد على ، فكان هو الشاعر المصرى الوحيد الذى سجله تاريخ الأدب فى ذلك العصر ، وظلت الأيام تعمل من جديد على تكوين شاعر قومى ، حتى تم ذلك فى أوائل عصر عباس باشا الأول بظهور الشاعرين المعاصرين : « السيد على الدرويش » و « الشيخ محمد شهاب الدين » . فأدناهما الوالى من مجلسه واحتضنهما ، حتى كان كل منهما يلقب بشاعر عباس باشا الأول .

وكان الشاعران يمثلان حالة الشعر فى عصرهما أصدق تمثيل . فلم يخرجا به عن السنن الذى ألفه منذ مئات السنين ، ولم يحدثا فيه جديداً . . . وإنما كان لها فضل تعريفه إلى الأمراء ، وفضل تقدير الناس له وحسن الاستماع إليه والإقبال عليه ، فتهافت الناس على قصائد « الدرويش » و « شهاب الدين » واستمعوا لها فى كثير من النشوة والسرور على الرغم من طريقتهما التقليدية القديمة ، واهتم الوالى بهذا الشعر وبقائليه . . فأصبح للشعر مكانة عوضت عليه ركوده الطويل ، وأعدته للحركة التى ظهرت على يد « إبراهيم بك مرزوق » و « السيد على الليثى » و « الشيخ على أبو النصر » و « محمود صفوت الساعاتى » ، ثم أعدته من بعد ذلك لحركة الإحياء التى ظهرت على يد « البارودى » وهى تلك الحركة المباركة التى نفضت عن الشعر العربى غبار السنين

ترجمة

لم يظفر « على الدرويش » بترجمة مفصلة له فى كتاب من كتب الأدب أو التراجم ، لولا السطور القليلة التى كتبها تلميذه « مصطفى سلامة النجارى » فى آخر ديوان الدرويش المسمى « الإشعار بحميد الأشعار » ؛ ولولا الأسطر القليلة التى كتبها الأستاذ حسن السندوبى فى كتابه « أعيان البيان » والأب لويس شيخو اليسوعى فى كتابه « الآداب العربية فى القرن التاسع عشر » ؛ وجورجى بك زيدان فى كتابه « تاريخ الآداب العربية » . وكلها مأخوذ من تلك الترجمة الموجزة التى كتبها النجارى فى ذيل ديوان المترجم له .

ولقد ولد الشاعر فى القاهرة سنة ١٢١١ هـ — ١٧٩٦ م ؛ ودخل الجامع الأزهر كما كان يدخله الراغبون فى العلم فى ذلك الحين ، واستقامت له من سنوات الأزهر ثقافة دينية لغوية . . إلا أن الأدب غلب عليه ، فأعطاه من عنايته واهتمامه أكثر مما أعطى لبقية المواد . وقد كان المترجم له معجباً بالشاعر « الخشاب » ، ومعجباً باحتضان الشيخ حسن العطار له ، وهو شيخ كان موضع التكريم والإجلال من محمد على باشا ، لما كان فيه من ذكاء وفطنة ، وكان العطار فوق ناحيته الدينية الكبيرة من شيوخ الأدب بمصر فى عهـــده ، واشتهر فى الإنشاء والمراسلات بأسلوبه الذى كان نموذجا للكتابة فى ذلك العصر . ولهذا نجد المترجم له يهنىء « العطار » بمشيخة الأزهر سنة ١٢٤٦ بقصيدة منها هذان البيتان :

أتت السيادة سهلة منقادة لإمام هذا العصر أوحد ذا الزمن
والسعد ساعدها وقوى عزمها والفضل أرخ شيخ أزهره حسن

وكان « الدرويش » على يسار من العيش : حسن المال والعقار ؛ فلم

يتكسب بأدبه وشعره ، وظل بعيداً عن خدمة الديوان فى عهد محمد على ؛ فلما جاء عباس باشا الأول أراد أن يلحقه بخدمته ، فانتهز الواشون هذه الفرصة ، وأشاعوا أنه غير راض عن خدمة عباس باشا الأول خديو مصر ، وأنه ضالع مع سعيد باشا بن محمد على باشا . الذى كان بحكم سنه وليا للعهد بعد عباس. وقد كان سعيد مغضوباً عليه من عباس الذى اضطره أن يلزم الاسكندرية ويقيم فى قصره هناك بالقبارى .

ولكن شاعرنا كذب هذه الوشاية ، وقبل خدمة عباس بسرور عظيم معلناً ذلك فى قصيدة يقول فيها :

عباسنا وولى نعمتنـــا له ... نعم تعالت عن بنى العباس

فبايعوه دائمـــاً فى عزة ... ومخالفوه هم بنو الإتعاس

لما أتى أمر المسرة فى بنى ... شبل على عينى أتيت وراسى

مستبشراً فرحا إلى ملك له ... فى كل فضل سؤدد بأساس

أرجو القبول ومن يفز بقبوله ... نال السعادة خالياً من باس

وقد التحق الشاعر بخدمة الديوان ، وصدر عنه من المكاتبات الرسمية والأساليب الديوانية ما استفاد منه كتاب الديوان بعد ذلك ، وخاصـة عبد الله باشا فكرى الذى يعد بحق الأستاذ الأول للكتابة الديوانية فى العصر الحديث . وقد ظل الشـــاعر على ولائه لعباس باشا ، وذهب مع الذاهبين فى حركة الدعوة لابنه ابراهيم إلهامى بولاية العهد بدلا من سعيد باشا ، وصار الشاعر يدعو « إلهامى باشا » فى شعره « بأفندينا الصغير » « ووارث الملك الثابت » ويدعو لبنى العباس بقوله :

فلا تزال بنو العباس مالكة ... مفاتح الملك فى عز وإعظام

وهو بهذا الدعاء لبنى « العباس » يشترك مع الراغبين فى تنحية سعيد باشا عن ولاية العهد . ولكن الشاعر غير موقفه حينما صرع عباس باشا مصرعه الأليم الغامض فى حادثة بنها ، وانتقل بذلك عرش مصر إلى الخديو سعيد باشا . . . فنراه يسبق إلى تهنئة سعيد باشا بالحكم سنة ١٢٧٠ هـ — سنة ١٨٥٤ م من قصيدة يقول فيها :

يامصر ما هذا السرور العظيم قالت سعيد ، قلت هذا النعيمْ
فانلك نادى يوم تاريخـــه عزيز جاهى ذو مقام كريمْ

ولكن لم تطل بالشاعر الحياة فى عهد سعيد .. فقد مات فى العام نفسه .

صداقته مع رجال عصره :

كان فى الدرويش ظرف جعله محبباً إلى كثير من رجال عصره ، وكان على أحسن الصلات مع أكثر أدباء ذلك العهد وعلمائه ، كالسيد حسن أباظة والشيخ مصطفى العروسى والشيخ عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ المشهور ، والشيخ عبد الرحمن الصفتى المصحح بالمطبعة الأميرية ومنقح الطبعة الأولى من كتاب « كليلة ودمنة » ، والشيخ مصطفى البدرى ، والشيخ على الغلبان ، والشيخ عبد الفتاح الحريرى ، والشيخ أحمد المســـيرى ، وأحمد افندى الأزبكاوى . وكانوا كلهم من أدباء عصر محمد على باشا ، إلا أن آثارهم لم تطبع ولم تنشر . وأغلبها فى المكاتبات الخـاصة التى كانت بدعة الأدب فى ذلك العصر .

وقد ساعد على توثيق العلاقة بين المترجم له وبين هؤلاء أنه لم يكن بينه وبينهم مظنة المنافسة الشعرية ، فقد غلب النثر عليهم أكثر مما غلب الشعر

بل غلب التاريخ على الشيخ الجبرتى ، فأمن شاعرنا جانب المنافسة منهم !! . إلا أن شاعراً واحداً قد أقض مضجعه ... وقد حاول صاحبنا أن يصرفه عن باب الخديو عباس باشا الأول فلم يفلح . . . وهو « الشيخ محمد شهاب الدين » شاعر عباس أيضاً . .

وقد كان هذا الشاعر الأخير أرق نفساً وأعف قلماً من « الدرويش » الذى رماه بأقبح ألفاظ الهجاء . وقد اشتدت الخصومة بين « الدرويش » و « الشهاب » والمترجم له يورى نار العداوة ، والناس من حولهما يتمتعون بلون من الهجاء يحبون أن يسمعوه ، وأن يشبعوا منه نهم طبائعهم . إلى أن أسكته « الشهاب » بأهجية يقول فيها :

عاش دهراً وجهله فى ازدياد ليته بعد لم يكن ليعيشا
نجتنى الكرم يانعاً وهو يأبى بجناياته ويرعى الحشيشا
إن تبدى خياله بغدير خاف منه وخال فيه جيوشا
وهو فيما داخلته خارجى رافضى يدعونه الدرويشا
كان مثل البابوش فى الرجل لكن جعلته أيدى العلا سربوشا
قربه لم يكن لنا منه بد لو صرفنا فى البعد عنه قروشا
فتوخى يا نفس صبراً عليه فى لياليك مايثل العروشا

وشاء الله أن ينقلب المترجم له — بعد هذه الأهجية — مادحاً «للشهاب» ببضع من القصائد . . يقول فى إحداها :

وناسج لفظك الأكبر برداً مرصعه معانيك العذابا
فتجعلها على قوم نعيماً وتخلعها على أخرى عذابا !!

أغراض من الشعر

نظم « الدرويش » فى أكثر الأغراض التقليدية التى عرف بها الشعر العربى . فمدح وهجا ورثى وافتخر ومجن ، إلا أنه اشتهر بالتاريخ الشعرى الذى كان شائعا فى ذلك العصر ، فمد إمامأفيه ؛ ولم يدع حادثة من حوادث مصر إلا أرخ لها شعراً ؛ ويعد شعره من هذه الناحية سجلا تاريخيا تختلط فيه الناحية التاريخية العامة بالنواحى الاجتماعية الخاصة التى توجهامناسبات العلائق بين الأصدقاء .

وله قصائد كثيرة فى المدائح النبوية ؛ ثم يمدح بعد ذلك عظماء زمانه كمحمد على باشا وإبراهيم باشا ، وعباس باشا ، ونقيب الأشراف السيد البكرى ، والمشايخ حسن العطار والقويسنى والعباسى المهدى مفتى الحنفية والسيد حسن أباظة وغيرهم . ولما نزل بمصر السيد السنوسى الكبير — منشيء الطريقة السنوسية — مدحه الشاعر ببعض القصائد .

على أن أغرب ما فى مدائح «الدرويش» هو مدحه لانجلترة مرة ، وللملكة فكتوريا ومملكتها مرة أخرى ، وللمستر تشارلزمرى قنصل انجلترة فى مصر ثالثة . ويزول وجه الغرابة من هذه الظـــاهرة فى شعر السيد على الدرويش إذا عرفنا أنه كان معبراً عن ميول مولاه عباس باشا الأول الذى أقصى خبراء محمد على باشا الفرنسيين فلم يعد لهم نفوذ لديه ؛ وقرب إليه المستر « تشارلزمرى » قنصل بريطانيا العظمى فى ذلك الحين — الذى كان له عليه تأثير كبير وله عنده كلمة مسموعة ، كما يقول المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرفعى بك .

فلم يكن الشاعر الدرويش فى هذه المدائح الإنجليزية العجيبة خارجا على

هوى ملكه ومولاه . وله شيء من العذر حين يميل مع السياسة التي اتخذها الخديو عباس دستوراً لعهده .. ولكن ماعذر شاعرنا حين يغالى ويسرف فى المدح حين يقول :

الإنجليز أمة وجسوه ومنكر العقل لهم سفيهُ
منسوبهم لم يعره كريهُ عند الملوك عبدهم وجيه
يكفيه فخراً أنه انكلترى

نيرانهم جهنم صليا وملكهم جنات عدن الدنيا
هيا بنا إلى النعيم هيا فى ظل « لندن » نستفيد المحيا
فهى الحمى والفوز للمضطر

ولعل هذا التخصيص الأخير بقوله « هيا بنا إلى النعيم فى ظل لندن » يفسر لناميول الخديو عباس الأول نحو الإنجليز ، وقطعه العلائق مع فرنسا . وقد كان عباس باشا يرجو أن يستعين بالحكومة الانجليزية ليمنع تدخل حكومة الآستانة فى شئون مصر ، فقد كانت تسعى سعياً حثيثا فى تطبيق قانونها الأساسى — المعروف بالتنظيمات — على مصر .

أما هجاؤه فيشمل جزءاً كبيراً من صفحات ديوانه ، وهو فى ذلك على النقيض من معاصره الشيخ محمد شهاب الدين الذى خلا ديوانه من الهجاء .. والذى لم يركب هجاء السيد على الدرويش إلا مضطرا .. ومن عجب أن صلة « الدرويش » بالخديو عباس الأول ، وتلقيبه بشاعره ، وخدمته فى ديوانه لم تمنعه أن يطيل ويفحش فى باب يترفع عن ولوجه شعراء الملوك . . . وقد كان الباعث له على الهجاء خوفه على مكانته فى الشعر أن ينزعها منه صغار الشعراء فى عهده . وفى صفحات ١٨٠ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ، ١٩٧ ،

٣٠٩ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ من ديوانه أمثلة من أكثر صور الهجاء إقذاعاً في شعره.
وكثيراً ما كان يهدد الشعراء بالهجاء قبل أن يسلط عليهم لذعات لسانه.

سمعه وهو ينذر أحد هؤلاء المساكين بقوله من رسالة له (وأنى نصحتك نصيحة الشفيق ، لعلك من الغي تفيق ، فإن رجعت نجوت بالهرب وإلا فوحق من أخلاك من الأدب ، وجعل شعرك ضحكة للعجم والعرب أعمل فيك دقيقة من صناعة الآداب ، ما جاء بها أحد على مر الأحقاب ، وما سمعها سامع إلا وحفظها ، ولا نظرها ناظر إلا ولحظها ، فإن حفظت عرضك فيها ، وإلا فأنا لها) . .

ويمثل لنا ، الدرويش ، صورة المالك المصرى الذى لا يعجبه ريف مصر فيهجره إلى المدينة كما يفعل ملاك الأرض اليوم ؛ فقد كان له بعض الأرض فى الشرقية وفى صعيد مصر ، ولكنه كان يكره الريف ويكره النزول فيه ، ويحمل عليه فى شعره حملات — كقوله :

درويش نلت المـــرام لما على شقا الريف نلت صبرك
تركت ريفا غدا عنيفا من كل وجه تراه ضرك
كأنما جئت من جحيم إلى نعيم أراح سرك . . .

وكقوله فى صعيد مصر :

سعيد من نأى عنه الصعيد
صـــعود مالطالعه ســـعود
وردنا منفلوط فلا ســـقاها
وردناها فأظمـأنا الورود

صناعات لفظية

أغرق الدرويش في استعمال المحسنات الكلامية إغراقاً أوحت به ظروف ذلك العصر ، وفوق استعماله لأنواع الجناس والتورية والطباق في شعره كان يميل إلى عمل « البديعيات » ، مقلداً « ابن حجة » في بديعيته المشهورة ؛ كما كان يكثر من استعمال الأبيات المعجمة تارة ، والمهملة تارة أخرى ، واستخراج قصيدة من رسالة نثرية أو من قصيدة أخرى ، وما يقرأ طرداً وعكساً ، وهو ما يسميه بعض البديعيين ما لا يستحيل بالانعكاس ؛ وغير ذلك من أنواع اللعب اللفظي الذي لا يدل على شرف في المعنى ، ولا روعة في الفكرة ؛ ولا عمق في الخيال ، وإنما يدل على مهارة في الصناعة اللفظية . والأمثلة على ذلك مبثوثة في ديوانه .

أما التواريخ الشعرية فقد برع فيها براعة جعلته إمام هذه الصناعة في ذلك العصر . وقد بلغ من براعته فيها أنه كان يُسأل كتابتها في إنشاء المباني والمساجد والقناطر . . . ولم تخل قنطرة أنشأها محمد علي باشا من تاريخ شعري لها من نظم الدرويش .

تعبيرات بلدية

ويمتاز شعر الدرويش باحتوائه على التعابير « البلدية » أو العامية التي كانت تدور على ألسنة « أبناء البلد » في ذلك العهد . فشعره من هذه الناحية سجل لطائفة من الاستعمالات العامية التي لا تزال تجري على لغتنا إلى اليوم . وإذا كان هذا يضيع من رصانة الشعر من ناحية ، ويذهب بروعة القريض فإنه من ناحية أخرى يصور لنا لغة أبناء البلد في ذلك العصر . وكثيراً ما تجد في قصائده أمثال هذه العبارت : « لا يعرف السما من العمى»

« ست الحسن والجمال » ، « يخون فى قشر بيض » ، « على عينى وراسى » ، « وكلوه علقة » ، « كسروا رجله » ، « رجل مكلبظ » ، « عصلج فى الطريق »

تسميات أخرياته

اشتهر الدرويش بوضعه أسماء بعض الأحيـاء الوطنية بتكليف من الوالى ؛ فقد أمر من الخديو عباس بوضع اسم لحى « قيسون » ، فاقترح عدة أسماء منها اسم « حى الحلمية » الذى وقع عليه اختيار الخديو ؛ كما أمر أن يسمى « أورمان بنها » اسما آخر ، فاقترح اسم « مناظم الصديق » ومجموع حروفه يساوى تاريخ إنشائه سنة ١٢٦٦ هـ . كما اشتهر بوضع أسماء للسفن المصرية تمتاز بخفة النطق واحتواء تاريخ إنشائها ؛ فوضع من ذلك بضعة عشر إسما .

منزلته فى الكتابة

يعـد الدرويش أول من « عرب » الـكتابة الديوانية فى مصر الحديثة بعد أن كانت العجمة والعامية غالبة عليها ؛ وله فى خدمة ديوان عباس الأول مجموعة من الرسائل والمكاتبات الديوانية مهدت السبيل لـكتاب الدواوين بعد ذلك . وقد كانت طريقته فى الـكتابة تجرى على السجع والمحسنات البديعية ؛ إلا أن رسائله تمتاز بوضوح القصد وعدم طغيان اللفظ على المعنى . ويكفيه فخرا فى الـكتابة أنه أنجب من التلاميذ الشيخ مصطفى سلامة النجارى ، الذى كان المحرر الأول « للوقائع المصرية » فى عهد الخديو سعيد باشا .

أول رائد فى تدريس الأدب العربى

الشيخ حسين المرصفى

؟ .... — ١٨٨٩

الشيخ المرصفى فى كتب التراجم

إن مكان الشيخ حسين المرصفى من أعلام النهضة الأدبية فى عصر إسماعيل مكان متفق عليه بين المؤرخين ومؤرخى الأدب ، وهو ذلك المكان الذى انتزعه بحق شيخ ضرير من شيوخ الأزهر فأضحى يلقب — جديراً — بلقب شيخ الأدباء فى عصر إسماعيل .

وإذا كان عصر إسماعيل قد زخر بطائفة من الرجال امتاز كل واحد منهم فى فنه كعبدالله فكرى باشا فى صناعة الترسل ، وأحمد فارس الشدياق فى اللغة ، وعبد الله النديم فى الخطابة الوطنية ، والشيخ حسن الطويل فى المنطق ، ومحمود صفوت الساعاتى فى الشعر ، ومحمد عثمان جلال بك فى القصة ، وعبد الله أبو السعود فى الصحافة ، فإن الشيخ حسين المرصفى قد امتاز فى الأدب وتاريخه بصورة لم ينازعه فيها منازع من رجالات عصره ؛ على رسوخ أقدامهم وعلو مكاناتهم .

وعلى ما أسداه الشيخ حسين المرصفى إلى دراسة تاريخ الأدب الحديث فإن نصيبه من كتب التاريخ الأدبى والتراجم هو نصيب المجاهدين المتواضعين . . . فلم يظفر بترجمة واحدة مطولة مفصلة كما ظفر كثيرون من

أقرانه في الفضل وأنداده في العلم ، ولم نجد له إلا بضعة أسطر في كتاب « الخطط التوفيقية » لعلي باشا مبارك وهو يتحدث عن قرية « مرصفى » في الجزء الخامس عشر من هذا الكنز التاريخي الثمين .

ويظهر أن الترجمة للشيخ حسين المرصفي كانت شاقة لمن جاءوا بعد علي باشا مبارك ، فأغفله المرحوم جورجي زيدان وهو يترجم لقرابة تسعين علما من أعلام النهضة في كتابه المشهور « تراجم مشاهير الشرق » ، كما تركه الأستاذ حسن السندوبي في كتابه : « أعيان البيان » الذي ترجم فيه لطائفة من أعلام الأدب والشعر منذ عصر محمد علي ، وأعجب من ذلك كله أن يتركه المغفور له أحمد تيمور باشا وهو يترجم لأربعة وعشرين عينا من أعيان العلم والأدب في كتابه : « تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر » الذي طبع بعد وفاته .

وما زال حظ الشيخ المرصفي يضؤل من الأسطر التسعة التي تفرد بها علي باشا مبارك في « خططه » حتى بلغ نصيبه ثلاثة أسطر من الترجمة في كتاب « الآداب العربية في القرن التاسع عشر » للأب لويس شيخو اليسوعي . وهو نصيب لا يقوم كفاء ما أسداه الشيخ إلى دراسة تاريخ الأدب من خدمات ... على أن مؤرخنا المنصف عبد الرحمن بك الرافعي لم يفته وهو يترجم لأعلام الأدب في عصر إسماعيل أن يردد بضعة الأسطر التي جاءت في كتاب علي باشا مبارك . . . وهي المصدر الوحيد في ترجمة الشيخ الجليل

والحق أن الشيخ المرصفي لم يترك لنا ترجمة تفي بحاجات المؤرخ أو تلقي ضوءاً قوياً على حياته . وأكثر من هذا أنه لم يمد المؤرخ بما يكفي لدراسته دراسة لا تشق على الذين يأتون من بعده . فقد كان معاصراً

لعلى باشا مبارك وكان صديقاً له . وقد كان فى مقدوره أن يمده بطرف من أخباره ليذكر فى كتابه «الخطط» كما كانت عادة على باشا مبارك مع رجالات عصره ، فقد كان يرجو أن يمدوه بآثارهم ليدونها فى كتابه .

مصنع العلماء

هناك بلاد اختصها الله بإنتاج صنف من الناس يمتازون بمزية مشتركة ، اختص الله بعض البقاع والقطع المتجاورات من الارض بألوان متشابهة أو غير متشابهة من النبات والغلات . . . فهذه أرض تجود فيها الكروم ، وتلك أخرى تصح فيها النخيل . . . وهكذا الناس من البلاد ... فهذه بلدة تخرج العلماء ، وتلك أخرى تعجب الشعراء . وقد أخرجت قرية « سبك » من أعمال المنوفية أجيالا من العلماء والفقهاء على رأسهم « السبكى » صاحب « الطبقات » ، كما أخرجت قرية « مرصفى » أو « مرصفا » أجيالا من العلماء والأدباء ، وانتسب إليها عشرات من أعلام الفقه والحديث والأدب والتصوف منذ بضعة من القرون .

و «مرصفا» قرية من قرى مديرية القليوبية بمركز بنها ، وقد اشتهرت — فوق إنتاجها العلماء — بأنها منطقة أثرية ، وتدل الحفريات غير العلمية التى كانت بها فى أوائل القرن التاسع عشر على أنها من المدن القديمة التى كانت عامرة بالسكان قبل الإسلام بزمان .

وقد ذكر صاحب الخطط التوفيقية أنه وجد بها فى القرن الماضى خندق يشقها من المشرق إلى المغرب ؛ ولا يدرى إلى أين ينتهى ، ووجد بها مصانع

ممتلئة فخاراً وخزفاً ، ولم يزل يظهر بها آثار ذلك إلى الآن — أى إلى الوقت الذى كتب فيه على باشا مبارك خططه الجديدة .

وقد ظلت « مرصفا » إلى أخريات القرن التاسع عشر يتنافس أهلها فى تعليم أولادهم ؛ ويتم ذلك فى المكتب أولا حتى يحفظوا القرآن ، ثم يخرجون من القرية إلى الجامع الأزهر ؛ فيكملون فيه تعليمهم ويجازون بالتدريس فيه على طريقة العلماء فى ذلك القرن .

ولقد كانت العقيدة السائدة بين أهل « مرصفا » أن فيها كنوزاً خفية تحت الأرض ، وقد أوحى بهذه العقيدة بعض القطع الأثرية التى كان يعثر عليها هناك من حين إلى حين ؛ وطالما أتعب كثير من أهل القرية أنفسهم فى التنقيب عن الكنز الدفين فى غير جدوى ... ولكن العقلاء منهم اتجهوا إلى كنوز العلم يلتمسونها فى الأزهر على قدر ما كان مألوفاً من العلم فى ذلك. ومن هؤلاء العقلاء الشيخ حسين المرصفى .

مراصفة كثيرون

والمرصفيون أو المراصفة فى التأليف العربى ليسوا أبناء أسرة واحدة كما قد يخطر على البال لأول وهلة ، ولكنهم أبناء قرية واحدة ، وقد لا يكون بينهم من القرابة أكثر مما يكون بين أهل القرية الواحدة . ولكن هذه النسبة تضمهم جميعاً فى الفضل إلى سلك واحد . وهم يرجعون بذلك إلى مئات من السنوات منذ قام للأزهر جدار للتعليم الدينى فى مصر . فمنهم الشيخ نور الدين خليل المرصفى المدفون بقرب ضريح السيدة عائشة رضى الله عنها ، وهو والد الإمام الصوفى الشيخ على خليل نور الدين الذى

اختصر رسالة الإمام الزاهد المتصوف عبد الكريم القشيرى المشهورة بالرسالة القشيرية ، وكان هذا الزاهد شيخ خراسان وعالمها فى القرن الخامس الهجرى .

وقد لمع منذ عهد محمد على الكبير نجم جماعة من المرصفيين منهم الشيخ محمد ابن أحمد المرصفى الذى توفى فى عهد الخديو سعيد باشا سنة ١٨٥٥ بعد أن اشتغل بالتدريس وبالعمل فى مجلس الشورى والحقانية ، ونصبه المرحوم إبراهيم باشا بالقصر العالى للفصل فى القضايا الشرعية المتعلقة بدائرته ، أما ابنه الشيخ أحمد شلبى المرصفى فقد أجيز من الأزهر للتدريس على مذهب الشافعى كأبيه وأهل بلدته ؛ وعين مدرساً للغة العربية بالمدارس الأميرية وألف فى ذلك كتاباً عنوانه : «تقريب فن العربية لأبناء المدارس الابتدائية » طبع فى مطبعة المدارس سنة ١٨٦٩ م .

ولا ننسى ونحن نعد المراصفة الشيخ أحمد شرف الدين المرصفى الذى كان زميلا للمترجم له فى التدريس بدار العلوم ، فقد حظيت دار العلوم فى أول إنشائها سنة ١٨٧٢ بالمرصفيين الاثنين . . . هذا يدرس التفسير والحديث ، وصاحبنا يدرس تاريخ الأدب العربى على نهج جديد . وللمرصفى المفسر هذا كتابان هما : — «المطلع السعيد لارشاد المريد» فى علم التوحيد ، و « نخبة المقاصد ومعدن الفوائد » فى فقه الإمام الشافعى .

وهناك الشيخ زين المرصفى الذى كان معلماً للأمير حسين كامل نجل الخديو إسماعيل ، وهو الذى صار سلطانا على مصر فيما بعد . وقد ترجم له أحمد تيمور باشا ترجمة وجيزة فى كتابه «تراجم أعيان القرن الثالث عشر» وكان يجيد اللغة الفرنسية التى تعلمها حين ذهب مع الأمير إلى فرنسة ليكون

معلماً له وعضواً بالبعثة التعليمية . ولم يذكر تيمور باشا كتبه الثلاثة التى ألفها وهى : — « آداب البحث » و « التحفة الحسينية فى القواعد النحوية » وقد نسبها إلى الأمير حسين . و « حاشية على بيتى المقولات للشيخ أحمد السجاعى » .

ولا يذكر المراصفة من غير أن يعرج على الشيخ «سيد بن على المرصفى» شارح الحماسة لأبى تمام . والشيخ محمد حسن نائل المرصفى الذى كان مدرساً للغة العربية بمدرسة الفرير بالقاهرة ؛ وهو صاحب كتاب « أدب اللغة العربية » المطبوع سنة ١٩٠٨ ، وصاحب مجلة « الجديد » التى كانت تحفة من تحف الصحافة الأدبية المعاصرة إلى سنة ١٩٣٢ .

والد ووالدة

كان الشيخ حسين المترجم له ابنا لعالم من علماء الأزهر اسمه الشيخ أحمد حسين المرصفى ويكنى بأبى الحلاوة ، وهى كنية لم نقف على تعليـل لها . وكانت حياة الوالد من أعجب العجب كما روى ابنه . فأنه لم يدخل المكتب إلا بعد سن الثامنة عشرة ، فابتدأ به طلب العلم فى سن ينقطع فيهـا الطلب عند كثيرين . ولم يكن صبره على طلب العلم فى سن كهذه أعجب من حفظه للقرآن الكريم فى ستة أشهر ... وعلى الرغم من تأخر الزمان به فى طلب العلم فقد تقدم به الجد فيـه حتى صار إماما فى زمن قريب . وليست صفة الإمامة هنا مبالغة منا ؛ ولكنها مما سجله مؤرخ معاصر لم يعرف بالإسراف فى خلع الألقاب أو مجاملة الصحاب . وكان الأزهر فى ذلك الحين تزدهر حلقاته بالشيوخ الأجلاء : عبد الله الشرقاوى والقويسنى والفضالى والدمهوجى والقلعاوى . وما منهم إلا له فى العلم مقام معلوم . فالشرقاوى كان شيخا

للأزهر بعـــد وفاة الشيخ العروسي ؛ وحديثه مع الجملة الفرنسية معروف مشهور ؛ والقويسني تقلد مشيخة الأزهر بعد الشيخ العطار ، وكان كفيف البصر كثير التحقيق مهيبا عند الأمراء والعظماء ، والدمهوجي كان شيخا للأزهر كذلك بعد الشيخ محمد العروسي ، والقلعاوى والفضالى كانا من أكبر العلماء وأوثق الشيوخ في ذلك العصر . وقد أخذ الوالد عن كل واحد من هؤلاء الأساتذة أطيب ما فيه ، فأخذ عن القويسني شرف النفس وعلو الهمة والمهابة التي تبدو على سمته وتشيع في مجلسه ، وأخذ عن الدمهوجي الزهد والقناعة . وقد بلغ من قناعته أنه لم ير في وليمة إلا نادراً . وكثيراً ما كان يدعوه الأمراء إلى منازلهم فلا يجيبهم [الخطط ج ١٥ ص ٤٠] وبلغ من مهابته أنه كان بحيث لا يستطيع الطالب أن يرفع صوته في درسه ولو بالسعال ، فإذا اعترى أحداً منهم السعال تحول وأخفى ذلك ما أمكن - [المصدر السابق] .

وكان في والد المترجم له عزلة عن الناس وقلة مخالطة لهم ، وورث ابنه عنه ذلك فكان قليل الإلمام بالناس إلا في درسه ، وكان قليل الإكثار من الأصدقاء إلا ما كان بينه وبين عبد الله باشا فكرى ؛ وهى صداقة وكدتها الألفة فارتفعت بينهما الكلفة كما سنرى في مداعبات كتابية بينه وبين عبد الله فكرى الوزير الأديب .

وقد أشبه الولد أباه فاظلم ؛ واختصته الأقدار بحافظة قوية كحافظة أبيه . فقد كان أبوه حافظاً . وكذلك كان الابن ، وقلّ أن يسمع شيئاً إلا ويحفظه . فحفظ المتون جميعها ، وزاد عليها المتون التي لم يبال الناس بحفظها ؛ كمتن « جمع الجوامع » للإمام السيوطي في علم النحو ، وكمتن « تلخيص المفتاح » للخطيب القزويني في علوم البلاغة .

ظل الشيخ حسين المرصفي مدرسا بالأزهر الذى تعلم فيـــه وتلقى العلم عن رجاله إلى شهر ربيع الآخر سنة ١٢٨٨ — يوليوسنة ١٨٧١ . ففى ذلك التاريخ وفى عهد نظارة على باشا مبارك الثانية للمعـارف المصرية، رتبت دروس عمومية «بالأنتفياتر» الذى كان يسمى دار العلوم بسراى درب الجماميز[1] . وكان يحضر هذه الدروس طلبة المدارس العـالية وفريق من طلبة الأزهر؛ كما كان يحضرها على باشا مبارك نفسه، ومعه طائفة من كبار موظفى الحكومة وديوان المعـارف . واختير لإلقاء المحاضرات جماعة ممن انعقدت لهم شهرة فى نواح من العلم سواء أكانوا من المصريين أم من الأجانب . وعين المترجم له ليلقى محاضرتين فى علوم الأدب فى يومى الأحد والأربعاء من كل أسبوع . وكان زمن المحاضرة الواحدة ساعة ونصف ساعة لهذه المادة . وكان من زملاء الشيخ فى هذه المحاضرات العامة المسيو ڤيـدال «باشا» لفن السكك الحديدية، والمسيو جيجون بك لفن الآلات، والمسيو هنرى بروكش «باشا» للتاريخ العـام، والمسيو بكتيت لعلوم الطبيعة، والمسيو فرانس «باشا» لفن الأبنية، والشيخ أحمد المرصفى مواطن صاحب الترجمة للتفسير والحديث، والشيخ عبد الرحمن البحراوى مفتى الحقانية لفقه أبى حنيفة النعمان، وإسماعيل باشا الفلكى ناظر المهندسخانة لعلم الفلك، وأحمد ندى «بك» لعلم النباتات .

وكانت هذه المحاضرات هى النواة لإنشاء مدرسة «دار العـلوم» بناء على التماس من على باشا مبارك بتاريخ ٣٠ يوليو سنة ١٨٧٢ . ومن هذا

(١) التعليم فى مصر لأمين باشا سامى ص ٢٣ .

التاريخ ترك الشيخ حسين المرصفي التدريس بالأزهر الشريف ، ليكون أول أستاذ للأدب العربي وتاريخه بدار العلوم .

دروس الأدب في دار العلوم

منذ أن اختير المترجم له ليكون الرائد الأدبي الأول في دار العلوم ، أخذ يعد العدة ليجعل من تدريس الأدب العربي والبلاغة العربية منهجا جديداً لم يُجر على غراره قبل ذلك . فأخذ يلقي دروسه مبتدئاً ببيان فضيلة العلم ومعرّفا بعلوم اللغة والاشتقاق والنحو والمعاني والبيان والبديع والعروض والقوافي والإنشاء والكتابة والتاريخ ؛ ثم مضى بقية الأعوام شارحا لكل علم من هذه العلوم لأنها الأدوات التي يصل بها الأديب إلى مكانة في الأدب ، ولذلك أطال المرصفي في عرض هذه الآلات الأدبية ، فخرجت في كتاب ضخم تزيد صفحاته على ٩٠٠ صفحة في جزءين أسماهما « الوسيلة الأدبية » .

وللشيخ المرصفي طريقة فريدة في تدريس الأدب وتاريخه ، فهو لم يجر على الطريقة الزمنية « Chronologique » التي تسود معاهدنا اليوم ، ولكنه جرى على الطريقة التحليلية ، فهو يشرح النص الذي يورده في موارد الاستشهاد ، ثم يذكر طرفا عن قائله ثم يستطرد إلى شيء آخر ؛ ثم يعود إلى موضوعه . ولكنه على كل حال لا يخرج عن المقصد الذي يتكلم فيه من فصل أو وصل ، أو ذكر أو حذف ، أو إيجاز أو إطناب .

وكان للرجل ذوق رفيع في اختيار النصوص الأدبية وعرضها ، مما جعل « الوسيلة الأدبية » مجموعة من المختارات الأدبية العالية شعراً ونثرا ، فوق ما لها من القيمة العلمية في جمع أدوات النحو والصرف والعروض والمعاني

والبيان والبديع فى كتاب واحد . وإذا كان اختيار الرجل قطعة من عقله فإن مختارات المرصفى فى « وسيلته » تدل على رقة فى الطبع ، وإلى هذه الرقة أشار على باشا مبارك فى وصفه بقوله : — (مع رقة المزاج وحدة الذهن وشدة الحذق) .

وقد جرى المرصفى على الطريقة الحديثة فى دراسة المعـاصرين وتحليل آثارهم ، ولم يمنعه من ذلك تحرج العصر ولا اعتبار الزمان . ومضى فى محاضراته يتحدث عن « محمود سامى البارودى باشا » وهو معاصره ، وكان ذلك قبل الثورة العرابية بعشر سنين ، وقبـل أن يكون البارودى وزيراً أو رئيساً للوزارة ، فكان من تلك المحاضرات أكثر من ثلاثين صفحة فى كتاب « الوسيلة الأدبية » أفاض فيهـا الشيخ الحديث عن طائفة من معارضات البارودى لمشهورى الشعراء[1] .

وكان المرصفى معجباً أشد الإعجاب بالبارودى فى الشعر ، وبصديقه عبد الله فكرى باشا فى النثر ، وهو إعجاب انعقد عليه الإجماع فى عصرهما . فقد كان لكل واحد منهما الإمارة فى بابه . وفى الوسيلة نصوص من نثر عبد الله فكرى أوردها المؤلف مع كثير مما أورد من نصوص النثر العربى على مختلف العصور .

هل المرصفى شاعر ؟ ؟

لم يعرف عن الشيخ حسين المرصفى أنه دخل ميدان الشعر أو حام حوله . وكان بالطبع قادراً على النظم ؛ لأن عدته من علمى العروض والقوافى كانت مستوفاة ، إلا أنه رأى أن الملكة إذا لم توات امرأ فلا خير من

(١) الوسيلة الأدبية للمرصفى ج ٢ ص ٤٧٤ — ٥٠٥ .

معالجة القريض حتى لا يكون غثاً بارداً . وكثيراً ما حمل فى محاضراته على الشعر الغث البارد . وقد اعترف هو على نفسه بنفسه حينما اضطر إلى أن يمدح صديقه محمود سامى البارودى باشا شعراً ، حتى تكون الملاءمة أتم فى مدح شاعر بالشعر لا بالنثر . فقال فى عبارة صريحة : — « وعلى أن ليس من طبعى أن أقول الشعر إما لفوت أوان تحصيل وسائله ، ولم تكن إذ ذاك دواع ترشد إليه ، وإما لأن الاستعداد الذى سلف التنبيه على أن لا بد منه لم يكن فى خليقتى — أنطقنى حبه ، أى حب البارودى ، بأبيات أجملت فيها صفته وهى هذه[1] : —

زكا أميرى طبعاً واعتلى شرفا — فدار حيث تدور الشمس والقمر
ونال ما نال عن كد الرجال فلا — من عليه لشخص حين يفتخر
بفضله كل أهل الأرض معترف — كما تصادق فيـــه الخبر والخبر
لا يجهل الرتبة العلياء يعمرها — ولا يتيه بها ما أعظم الخطر
صحبتـــه وهو سر فى مخايله — حتى تخير من إعلانه الكبر
فما أخذت عليـــه شبه بادرة — ولا تخيلت أمراً منه يعتـذر
أدامه الله نقى من فضـــائله — ومن فواضله ما أنبت الشجر

وأظن أن هذه الأبيات هى كل ما قاله المرصفى نظما ، وهى كما ترى نظم اعتذر الشيخ منه — كما سلف قوله — بفوت أوان التحصيل أو عدم الاستعداد . ولم أجد فى كتب أدب ذلك العصر بيتاً آخر للمرصفى يدل على أنه حاول ما ليس إلى محاولته سبيل . . ولقد أنصف الرجل حين عرف طبعه فى النثر فلم يجاوزه إلى ما ليس من طبعه . . . !

---

(١) المصدر السابق ص ٥٠٢ .

في عضوية المجلس العالي للتعليم

في عهد الخديوي محمد توفيق باشا وفي ٢٧ مايو سنة ١٨٨٠ وافق سموه على تأليف « قومسيون » للتعليم برياسة علي إبراهيم باشا وزير المعارف حينذاك ؛ وعضوية عبد الله فكري باشا وكيل المعارف ، ولارمي باشا، وسالم باشا مدير مصلحة الصحة، ودور بك مفتش المدارس، وروجرس بك وكيل أملاك الميري ، وفيدال بك « باشا » ناظر مدرسة الألسن . والغرض من هذا القومسيون اقتراح الوسائل لتحسين طرق التعليم بالمدارس المصرية . وفي سنة ١٨٨١ اقترح هذا القومسيون تأليف مجلس عال للمعارف وفي ٢٨ مارس من السنة نفسها صدر الأمر العالي بتأليف المجلس العالي للتعليم برياسة علي باشا مبارك — وكان في ذلك الحين ناظراً للأشغال . وقد ضم هـذا المجلس جماعة من الأجانب كالجنرال ستون باشا رئيس عموم أركان الحرب ، ولارمي باشا ناظر المدرسة الحربية ، والعالم ماسبرو مدير الآثار المصرية ، والمسيو موجيل ناظر مدرسة المعلمين ، ومسيو جاليردو بك ناظر المدرسة الطبية ، وفيدال بك ناظر الحقوق ، وجيجون بك ناظر مدرسة الفنون والصنائع ، وسبيتا بك ناظر مدرسة الكتبخانة الخديوية . كما ضم جماعة من أنبه المصريين ذكراً في نهضتها ؛ وهم حسين فخري « باشا » ؛ وعبد الله فكري باشا ، وسالم باشا سالم ، واسماعيـــل الفلكي بك « باشا » ، وعثمان غالب باشا ، وصادق شنن بك . وكان عنصر الشيوخ ممثلا في هـذا المجلس الخطير أحسن تمثيل ، فاجتمع في عضويته المترجم له الشيخ حسين المرصفي المدرس [٤] بدار العلوم ، والشيخ زين المرصفي من علماء الأزهر ، والشيخ

---

(٤) التعليم في مصر ، لأمين سامي باشا ص ٤٥ .

حسونة النواوى مدرس الشريعة فى مدرســــة الحقوق يومذاك ، والشيخ محمد عبده الذى كان حينذاك رئيس تحرير « الجرنال الرسمى » المعروف بالوقائع المصرية .

وكان من مطالع الخير لهذا المجلس أن افتتحت فى دورته الأولى مدارس المنصورة وقليوب والجيزة وطوخ الابتدائية . كما أنشىء قلم الترجمة فى نظارة المعارف فى ١١ أكتوبر سنة ١٨٨١ وعين أديب إسحق ناظراً له [١] .

الأديب الضرير فى مدرسة العميان

كان الشيخ المرصفى من الأدباء الذين فقدوا بصرهم ، وليس لدينا مصدر عن الشيخ هل ولد أكمه أم أصيب بفقد البصر بعد مولده . إلا أن ذلك لم يمنعه كزملائه الخالدين من أن يحتل مكانه فى بناة النهضة الأدبية لمصر الحديثة . وقد قلنا إنه حفظ كثيراً من المتون حتى التى لم تكن موضعاً للحفظ . وكان رحمه الله يقرأ الخط العربى على طريقة تعليم غير المبصرين عن طريقة الجس باليد . وهى الطريقة التى تعلمها فى مدرسة العميان والخرس التى أنشأها الخديو إسماعيل العظيم فى ٢١ فبراير سنة ١٨٧٠ تحت نظارة المرحوم محمد أنسى بك . وكان الطلبة يتعلمون فيها القراءة والكتابة على طريقة بريل BRAILLE لأول مرة فى تاريخ التعليم في مصر . وقد رأى الشيخ الفرصة مناسبة ليتعلم الفرنسية على الطريقة نفسها ، فأتقن الفرنسية كتابة وقراءة وكلاماً . ولعل عاملا نفسياً من الغيرة هو الذى

---

(١) مجلة الكتاب جزء فبراير سنة ١٩٤٨ راجع ترجمة اديب اسحاق فى أعلام النهضة ص ٢٧٣ ، والمصدر السابق ٤٦

دفعه إلى تعلم اللغة الفرنسية ؛ فإنه رأى مواطنه الشيخ زين المرصفى وزميله فى عضوية المجلس العالى للتعليم ورصيفه فى الأزهر يلم ببعض اللغات ويجيد الفرنسية [١] فآثر أن يتعلم ذلك اللسان الذى كان يغرب به الشيخ زين المرصفى على شيوخ الأزهر [٢]. وقد اشتغل المرحوم مدرساً للغة العربية فى مدرسة العميان والخرس بجانب تدريسه للأدب العربى فى دار العلوم .

صداقاته مع رجال عصره

قلنا إن المترجم له ورث عن أبيه الشيخ أحمد صفات العزلة والحياء والبعد عن مخالطة الناس ، فلم يكن يعرف ندوات القاهرة ومجالسها كما كان يعرفها مثلا الشاعران على الليثى وعلى أبو النصر ، وكما كان يعرفها على الأقل زميله وبلديه الشيخ زين المرصفى ، ولم يكن له غير محاضراته فى دار العلوم ومذكراته فى منزله ؛ ولـكنه مع ذلك لم يعش عن الناس بمعزل تام ؛ فصادق سامى البارودى الشاعر ، وصافى عبد الله باشا فكرى ، واتصل بعلى باشا مبارك اتصال المعترف بالفضل . وكان بينه وبين عبد الله فكرى باشا مداعبات فى المكاتبات ، ترجع إلى تسمح فكرى باشا وسماحته فى الود أكثر مما ترجع إلى روح المرصفى نفسه ؛ فإنه كان يبدو متزمتا متهيبا ؛ وكم كان عبد الله فكرى يثير الدعابة فيه وهو يكتب له من الآستانة سنة ١٢٨٨ — ١٨٧١ مشتاقا : — (. . . . . والحق أنى ابتدأت فى تحرير هذه السطور ، وقد قرب إرسال البوستة إلى الوابور . فقصدت إلى اختصار الكلام ، وبدأت باختصار السلام ، ثم أردت أن ألعب ، وذو الشيب يلعب ، فانجر الكلام وانفسح المقام . . . ثم إنى بعد أن حررت ما حررت ، رجعت فتذكرت ،

---

(١) تراجم أعيان القرن الثالث عشر المرحوم أحمد تيمور باشا ص ٨٧

(٢) المصدر السابق ص ٨٦

أن الشيخ ربما يقول : لم لم تكتب فى سعة الزمان ، وحالة وجود الإمكان!
فقعدت أتفكر لهـذا فى عذر ألفقه فما تيسر ، وجواب أنمقه عن هذا
السؤال فتعذر ! فالمرجو من الشيخ أدام الله حفظه ، أن يتفكر لنا فى
هذا الأمر قدر لحظة ، ويسلفنا جملة أعذار لهذا الشان ، نعتذر بها فى بعض
الأحيان ، لمن يلوم علينا من الإخوان)[1] .

مؤلفاته

ترك الشيخ حسين المرصفى كتابه الخالد : — « الوسـيلة الأدبية
إلى العلوم العربية » ، فى مجلدين كبيرين ، وهو مجموع المحاضرات التى
ألقاها على طلبة دار العلوم فى أول إنشائها ، وقد طبع الكتاب أول
طبعاته فى مطبعة المدارس الملكية سنة ١٢٨٩ — سنة ١٨٧٢ وتم طبعه
فى سنة ١٢٩٢ هـ . ولم يطبع بعد الطبعة الأولى طبعة ثانية . وقد
أشرف عمر هذه الطبعة على ثمانين عاما . وله كتاب بعنوان « الكلم الثمان »
طبع فى مطبعة شرف سنة ١٢٩٨ هـ ، وهو يدخل فى باب الاجتماع ،
وقد شرح فيه الشيخ معانى الألفاظ الدائرة على ألسن شبان العصر
فى وقته وهى : — الوطن والحرية والأمة والعدالة والظلم والسياسة
والتربية والحكومة . ويعد هذا الكتاب من أول الكتب العربية فى التربية
الوطنية والسياسة . أما ثالث ما تركه من الكتب فهو كتاب «زهرة الرسائل»
الذى طبع فى مصر على الحجر فى تاريخ غير معلوم ..

---

(١) الآثار الفكرية لأمين باشا فكرى ص ٧٨

وكان فى الرجل نزعة دينية قوية فأنشأ فى العاصمة التركية مجلة «الإنسان» سنة ١٨٨٤ ، وكانت تصدر فى كل شهر مرتين فى أربع وعشرين صفحة لخدمة الإسلام أولا : ولخدمة العلوم والفنون والزراعة والصناعة ثانياً ، ولكن الحوادث دعتها إلى الاحتجاب بعد أن ظهر منها ١٩عدداً ، ولكنها عادت بعد سنة تقريباً إلى الظهور فى شكل جريدة أسبوعية ، وظلت إلى سنة ١٨٩٠ ، حينما عطلها صاحبها بنفسه مختاراً ليعود إلى مصر مستأنفاً جهاده فى سبيل الصحافة العربية .

ومن الصحف التى حررها المترجم له فى القسطنطينية جريدة «الاعتدال» وخاصة أول إنشائها ، وجريدة «السلام» . والأولى كان يملكها أحمد قدرى المترجم العربى للسلطان عبد الحميد ؛ والثانية كانت للحاج صالح الصائغى ، وهما عربيتان . أما الجرائد التركية التى اشترك فى تحريرها فأهمها « ارتقا » و « زمان » .

وكان للمترجم له نشاط عجيب فى إصدار الصحف وتحريرها كما كان نشاطه فى التأليف أعجب ، وماظنك برجل صحافى يشتغل بالسياسة والتحرير ومشكلات عصره ، ويطالع قراءه كل يوم أو كل أسبوع أو أسبوعين بمقال فى الصحيفة التى يعمل فيها أو يملكها ؛ ثم يجد من الوقت ما يتسع لتأليف ستين كتاباً فى اللغة العربية وعشرة كتب فى اللغة التركية ؟ وبعض هذه الستين مطبوع وبعضها مخطوط ، وبعضها فى مجلد واحد وبعضها فى ستة مجلدات ، مثل كتابه « صولة القلم فى دولة الحكم » .

ومناحى الرجل فى التأليف تغلب عليها الروح الإسلاميه القوية ، فقد كان مستقيم العقيدة متين الدين ، وكان فيه حكمة مضيئة ونظرة إصلاحية

صحيحة . أليس من كتبه (النصيح العام ، فى لوازم عالم الإسلام) ؛ ثم ألا يذكرنا هذا الكتاب بكتاب الأمير شكيب أرسلان (لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟) . وله فوق ذلك كتاب (الصدع والالتئام ، أسباب انحطاط وارتقاء الإسلام) وكتاب (الأخاء العام ، بين شعوب أهل الإسلام) . ولكن هذه الأخوة التى سعى إليها صاحبنا كانت فى ظل الحكم التركى حتى على قساوته وظلامه . فقد كان داعية له فى كل ما يكتب مدافعاً عنه فى كل مناسبة .

فلما قام الشيخ إبراهيم اليازجى اللغوى المشهور فى الثورة العرابية المصرية داعياً إلى تنقص الترك والإشادة بذكر العرب فى قصيدته السينية المشهورة قام حسن حسنى الطويرانى يرد عليه بقصيدة من البحر والقافية يقول فيها :

دع عنك خائنة الوساوس ... فالذل عاقبة الدسائس
واخش الكلام فكم جنت ... حرب البسوس وسبق داحس
ماذا تريد بشنها ... دهياء توحش كل آنس ؟ ؟

ولكن قصيدة اليازجى كانت قاسية على الترك شديدة اللهجة ففيها يقول :

قوم لقد حكموا بكم ... حكم الجوارح فى الفرائس
كم تأملون صلاحهم ... ولهم فساد الطبع سائس
ويغركم برق المنى ... جهلا وليل اليأس دامس
أو ما ترون الحكم فى ... أيدى المُصادر والماكس
وعلى الرشى والزور قد ... شادوا المحاكم والمجالس

وكان اليازجى فى أثناء الثورة العرابية واقفاً للترك بالمرصاد يحط من

أقدارهم ويصف من أفعالهم ما يبغضهم إلى العرب . ولعل أعنف قصائد اليازجي — والشيء بالشيء يذكر — قصيدته البائية التي يقول فيها :

أقداركم في عيون الترك نازلة وحقكم بين أيدي الترك مغتصب
فليس يدري لكم شأن ولا شرف ولا وجود ولا إسم ولا لقب
فيالقومي ، وماقومي سوى عرب ولن يضيّع فيهم ذلك النسب

والقصيدتان في ديوان العقد لإبراهيم اليازجي ص ٥٦ ، ٥٩ .

وكان في أخلاق الطوبراني شدة وحدة في المزاج ، ولعله رحمه الله كان قليل البقاء على حال واحدة ، فكنت تراه اليوم في جريدة وتراه غداً في غيرها ، لاتقلباً منه في مبدئه ، ولكن تعصباً منه في رأيه أو ترفعاً منه عن الزلفى لحاكم أو الخضوع لذي جاه ، وذلك هوالسر في تعطيل بعض الصحف التي أصدرها .

ولا يزال سجل الصحافة المصرية — إن كان لها سجل ! يذكر لصاحبنا جريدة «النيل» ومجلات «الشمس» و «الزراعة» و «المعارف» ، والأولى أنشئت في القـــاهرة في أواخر سنة ١٨٩١ أي بعد عودته إلى مصر من القسطنطينية بعام واحد ، أما الشمس والزراعة فقد أنشأهما سنة ١٨٩٤ ، والثانية أسبق من الأولى ببضعة أشهر في الظهور .

كان لصاحبنا علاقات طيبة مع أفاضل الرجال في زمانه ، كما كان له صلات ود مع أعظم الأدباء في عصره ، ولم يكن في قلبه تلك الصرامة والسلاطة التي امتاز بها رجل كأحمد فارس الشدياق صاحب مجلة الجوائب . إلا أن العلاقة بين الرجلين الكبيرين كانت أمتن ما تكون صلة ، وأحكم ماتكون ارتباطاً ، فقد رثى الطوبراني أحمد فارس الشدياق حين وفاته سنة ١٨٨٧ م

بقصيدة بائية من البحر البسيط، وأرخ فى الشطر الأخير منها وفاته سنة ١٣٠٥ من التاريخ الهجرى . كما نعاه فى مجلة (الإنســان) التى كان يصدرها فى القسطنطينية يومئذ فى عبارات من السجع الذى كان طابع الكتابة العربية فى ذلك الحين . إلا أنه فى بعض مواضع من النعى عاد إلى الكلام المرسل (غير المسجوع) كقوله فيه « حكيم السكوت وقور الكلام متواضع الجانب عميق الفكر قوى الحجة كبير الهمة . . . إذا رأيته رأيت علما متجسما ، ومكارم أخلاق قد حلت فاستحالت إنساناً كاملا »

ولما مات حسن حسنى الطويرانى باشا رثاه الشعراء ، ولم يرثه أمير البيان شكيب أرسلان مع أنه رثى فارس الشدياق قبله . ورثاه الشاعر الرقيق ولى الدين بك يكن بقصيدة تبلغ سبعة عشر بيتاً قال فيها :

ياقبر عنـــدى طية عرضت	لمن استضفت فزحزح السترا
قد كنت قبل اليوم أقصـده	اهدى إليه النظم والنـــثرا
لاتطرحن وإن ثوى « حسن »	بعد المــــدائح فوقه الصخرا
أبـكيك ماذكر الورى أثرا	ووعى الخلود لفاضـل ذكرا
أبـكيك ما جرت اليراعة فى	ميدانها واستطردت سطرا

والقصيدة فى ديوان ولى الدين يكن ص ٦٩ ؛ وفى البيت السابع منها نقص وصحته :

قال النعاة طوى الردى حسنا	قلت اندبوه فقد طوى الدهرا

وبعد هذا البيت بيت ثامن لم يرد فى الديوان ؛ والتصويب عن الكونت فيليب طرازى وهو :

وطوى الطبيعـة بعده وطوى	مابعدها حتى طوى النشرا

٭ ٭ ٭

وديوان الطويرانى ضخم الحجم مملوء بكثير من القصائد الطوال والمقطعات والموشحات والأدوار والزجل ، وقد طبع بمطبعة إدارة الوطن سنة ١٣٠٠ هـ ، ثم سافر الشاعر إلى الآستانة فى العام نفسه ، ووكل أمر الإشراف على طبع الديوان إلى نائب له ، فلم يعتن بتصحيح الجزء الثانى ، فحصلت غرائب فى التحريف والتصحيف والسهو ، وفقدت أصول الديوان حين وصل الطبع إلى صفحة ٢١٦ ؛ وهنا علم الشاعر بما حصل فبعث بنسخة أخرى من الأصول لتتميم الأبيات . وبقى فى الآستانة ثمانى سنوات والديوان لم يكمل طبعه . فعاد إلى الإسكندرية فى ٢٠ ذى الحجة سنة ١٣٠٨ ، ووصل إلى القاهرة فى الثانى والعشرين من الشهر نفسه ، ولما استراح من السفر أخذ يصحح الديوان استنجازا لإخراجه (ولكنه وجد أن تصحيح الأخطاء يستلزم صرف الأوقات المديدة وتحمل المشاق العديدة وأن الاهتمام بتصحيح ما وقع فيه من الخطأ والخلل ، شىء زائد على الأمل والعمل) ، فختمه بمعذرة إلى القراء ، وأنجزه وأخرجه فى ٢٠ محرم سنة ١٣٠٩هـ .

ويظهر من شعر الديوان والإمعان فى مطالعته أن الشاعر متأثر بالمذهب التقليدى إلى حد كبير ، فهو يحذو حذو شعراء عصره الذين كانوا أصداء بالية للشعر العربى القديم ، فأغراضهم أغراض السابقين ، وأبوابهم ومذاهبهم هى أبواب الأولين ومذاهبهم ؛ مع اختلاف الأحوال وتباين المقتضيات .

ولم لايكون شعراء عصر الطويرانى كذلك ، وأمامهم محمود سامى البارودى باشا كان مقلداً إلى حد بعيد حتى فى مطالعه ومواقفه وتشبيهاته

بل فى عباراته ؟ ولكن البارودى كان يمتاز عليهم جميعا بالطبع العربى الأصيل فى قرض الشعر ؛ فهو بارع فى المحاكاة ، حتى ليخيل إليك وأنت تقرؤه أنك تقرأ شعراً قديما لم تفسده لوثة الأعاجم وفساد الملكات .

ويظهر المذهب التقليدى فى شعر الطوبرانى واضحا ، حتى فى طريقة تبويبه للديوان ؛ فقد قسمه إلى أربعة وعشرين باباً . الأول منها فى الإلهيات وقدمه لشرف موضوعه ، وهو الحمد والثناء على الله تعالى مفيض هذا الوجود . ولم يعد فى هذا الباب أن يكون « نظاماً » لا شاعراً ؛ فلم يصل إلى أعماق الوجود ؛ ولم تتجل عليه فيوض الحكمة وإشراقاتها ، ولم تزد إلاهياته على أن تكون خطـــرات عابرة نظمها فى قالب من قوالب عصره . وقد حاولت أن أعرض أحسن ما فى هذا الباب ، فلم أجد غير هذه الأبيات :

يا مالك الروح يشقيها ويسعدها ... وحافظ الجسم إفناء وإبقاء
أوجدت من عدم روحى وكنت لها ... أوقات لم أدر فيها الطين والماء
متعتنى فى صفاء النفس منفرداً ... مطهراً لم أخف رجساً وبأساء

أما الباب الثانى فنى المدائح النبوية ؛ وسماها « النبويات » كما سميت قصائد الكميت « بالهاشميات » ، وهى قصائد ليس لها فى الشعر من شرف إلا أنها صنعت للرسول عليه السلام ! فلا تجد فيها قوة حب الكميت ولا متانة البوصيرى وحكمته فى ثنايا المديح .

والباب الثالث فى الحماسة والفخر ، وقدم هذا الباب (لعله وفاء حقوق النفس التى لا تعرف حق غيرها إلا بعد معرفة ناموسها ؛ فإن النفس إذا جهلت حقها جهلت حقوق غيرها بالطبع فلم تقم بها) ، وهذا تعليل لطيف لشعر الفخر ، ولكن يشترط ألا يغالى فيه ، وإلا صار إسرافاً وكذباً .

ولقد أسرف الطويرانى فى هذا الباب إسرافاً كثيراً ووضع فيه ما ليس منه، كالأبيات التالية التى هى أشبه بشعر الحكم منها بشعر الحماسة :

الناس فى الدهر أنباء وأخبار والكون كونان أعيان وآثار
لاخير فى العيش إن لم يصطحب شرفاً ولا اقتحام الردى دون العلا عار
اعمل مع الصبر مايرضى الكمال به واكتم مصابك إن الدهر دوار
لا يرغم الدهر إلا من يطيش له فاعتز بالنفس إن خانتك أنصار

وقد يكون فى هذا الكلام فخر خفى . فهو يأمر الناس بما كمل هو به نفسه من اصطحاب الشرف واقتحام الردى والصبر وكتمان المصاب والاعتزاز بالنفس حين يخون النصير.

وأكثر ما يفتخر الطويرانى فى هذا الباب بآبائه الترك ، فهو يتعصب لهم على العرب الذين حفظ لغتهم وآمن بنبيهم ؛ وقد يصل به التعصب إلى إنكار كل فضيلة للعرب وتجريدهم من كل مكرمة . ولا شك أن الأحوال السياسية فى عصره . والخلاف بين العرب والترك ، ومحاولة الأولين التخلص من حكم الآخرين ، وقيام الشعراء من العرب بمهاجاة الترك ؛ لاشك أن ذلك كله كان حافزاً للطويرانى على الاجتراء على العرب وتنقصهم . ووجد فى صحفه ومجلاته التى أنشأها أو اشترك فى تحريرها مجال الكلام واسعاً ؛ فأحفظ ذلك عليه كثيراً من الشعراء العرب كالشيخ إبراهيم اليازجى .

ولقد نقل الطويرانى الخلاف بين العرب والترك إلى خلاف بين الأصل السامى والأصل اليافثى . فهو يقول :

أرى الفخر للأتراك من عهد يافث ومن عهد «أفراسياب» ليس مرسخاً
فلا شهم فى الدنيا «كجنكيز» قاهر ولا ثائر أغلى من «طغاجار» إذ طغى

ويقول من قصيدة أخرى :

فإنا بنو عثمان لاالضيم عندنا يحان ولا يوماً على جارنا يقضى

وهو هنا يرد على ما رماهم به العرب من الظلم ونقض الجوار ، ولما استفزه اليازجى بالشعر المر الموجع فى تعداد مظالم الترك رد بقصيدة ميمية طويلة خانته فيها لباقته . فرمى العرب بما لا يليق أن ترمى به أمة كريمة عزيزة من دولة كان يرتفع فوقها علم الخلافة الإسلامية ، حيث يقول :

ملكناكم حيناً سوائم جهــلا تهيمون فى دو الهوان نعائما
فلما اكتسى العارى وأشبع جائع وأصبح مخدوماً فتى كان خادماً
جهلتم حقوق الترك وهى جلية ولم تحفظوها ، شيمة الحر ، أنعما
وشوهتم الحسنى بما قد بدا لكم ، وقلتم كذا كنا وكنتم وبئس ما . .

وقد طالت هذه القصيدة وجمح القلم من يد صاحبها ، ولكنه عاد فى النهاية فلطف الكلام بقوله : —

وقد أنزل الله المؤاخاة بيننا فلا تجعلوها أخوة تسفك الدما
وأنا بكم حقاً كما أنتم بنا كلانا أخ فى الدين يبغى التلازما
ولا فضل إلا بالتقى وهو بيننا سواء وفضل الله خص وعمما
وكل أبوه فى الحقيقــة آدم فمن شاء تذليلا لأصل فآدما
وأما نبى الله فالكل قومــه وأكرمه من لم يسئه وأكرما
نصحت بنى مصر وحذرت كلهم وقلت المقال الحق لكن تجرما

ولو سلك الطويرانى هذا المسلك الرقيق من أول الأمر ما تأججت

نار المهاجاة بين شعبين أخوين مسلمين ، يرجى من تآلفهما للإسلام خير كثير .

أما قصيدته السينية التى رد بها على سينية الشيخ إبراهيم اليازجى ، ففيها من الفخر كثير ، ولكن فيها على العرب تجنياً صارخاً . ومنها هذه الأبيات:

والترك نيران اللظى . فاقدم ورم إن كنت قابس
والترك قد تركوا أبا ك ومثله بالخزى ناكس

* * *

لولا بنو عثمان ما نبست لشرقى نوابس
سهروا ونمتم واتقوا وحشاً وأمسيتم أوانس
برزوا لساعرة الوغى وهمامكم كالظبى كانس

ولكن هذه الأيام قد ولت وانتهى زمان الملاحاة ، ونرجو أن يكون المسلمون ، على اختلاف أجناسهم ، قوة يعمل حسابها ويخشى بأسها . ولعلهم فاعلون ذلك إن شاء الله .

أما فخر الطورانى بنفسه ، لا بجنسه ، فكثير فى شعره ؛ وقد أعانه على ذلك نفس أبية وهمة قوية، فقد تنقل فى البلاد وطوف فى الآفاق ، ولقى الخير والشر ، وشرب الحلو والمر ، ولكنه ظل عزيز النفس . اسمعه يقول :

على أننى إن لان قومى ظالم وإن طالبونى بالتذلل ظـالم
وأنى لأستلق الكريهة باسماً وأجهل عقباها وأنى لعـالم

إلا أنه قد يغرق فى الفخر ويغالى فيه على عادة شعراء عصره . فترى الإسراف فيه واضحاً ، والكذب فيه ظاهراً كقوله :

خلقت للسيف والقرطاس والقلم فالدهر عبدى وأهل الدهر من خدمى

والشطر الثانى سخيف مرذول ، وما أشبهه فى السخف بقول ابن سناء الملك :

وأنك عبدى يازمان وأننى على الرغم منى أن أرى لك سيداً

وسبحان من غير نظر شعراء اليوم إلى الفخر ، فلو أن واحداً منهم قال مثل هذا القول لقال الناس : هذا ناظم كذاب !

أما باب المديح فيشمل جزءاً كبيراً من الديوان ، فقد مدح السلطان عبد العزيز والسلطان عبدالحميد والخديو إسماعيل باشا ، والخديو توفيق باشا ، كما كانت له مدائح وصلات أدبية ومكاتبات ومساجلات مع إسماعيل بك عاصم والأديب الشيخ أحمد أبو الفرج الدمنهورى والشاعر الأديب عبدالله فريج.

أما غزله فيظهر فيه التصنع والتقليد للقدماء حتى فى الوقوف على الأطلال والبكاء عليها ، وذكر المرابع والعيس والأماكن العربية كمنعرج اللوى . فيقول :

تعرفت أطلال الحمى بعد مجهل فأوقفت عيسى بعد طول الترحل

ويقول :

سقى الله صوب القطر منعرج اللوى وحسبى به دار الشبيبة والهوى

ويقول :

أمن دار سلمى دارسات المعاهد بكيت طلولا بَعْدَ بُعْدِ المعاهد

ويقول :

بانت سعاد فرغد العيش منكود وودعت فجليـــد القلب مكمود

وشتان بين المحاكاة والطبع ، وبين الصوت والرجع !

* * *

وشعر الطويرانى لم يسلم من الزحافات والعلل والضرورات الشعرية التى

لجأ إليها لجوءاً كثيراً . فهو يمد المقصور ويقصر الممدود ويجزم المرفوع ، ويسكن أواخر الكلمات فلا يحربها ، ويقطع همزة الوصـــل ، ويصل همزة القطع ، ويأتى بعيوب السناد ويمنع المصروف من الصرف ، كقوله فى صفحة ٢٤٢ .

والورق تسجع فى الغصون كأنما   هاتيك غيـــد وتلكم الأوتار

فمنع من الصرف كلمة غيد وحقها التنوين .

وقوله فى ص ٩

لأن التلازمْ بين ذات وعارض   من الكون لا يخفى لمن يتبصر

بإسكان الميم من كلمة «التلازم»

وقوله فى ص ١٧

يابنى الهـدى عليك سلام   لا ابتـــداء له ولا إنتهـاء

بقطع همزة الوصل من كلمة «إنتهاء»

وقوله ص ٨

يا إله الخلق إرحم عاجزاً   مد للألطاف نحو البـاب يد

بقطع همزة الوصل من الفعل «إرحم»

وقوله

ولا والله لا فى العلم خير   ولا فى الجهل شر ولا مخاوف

فمنع كلمة شر من التنوين وذلك قبيح ، ولو قال « ولا فى الجهل شر أو مخاوف » لسلم من الضرورة القبيحة .

والطويرانى نسبة إلى طويران وهى : بلد وكان يكاتب ابن عمه على بك عطا الله وهو فيها .

شوقي وحافظ

بين الكتب

لما ظهر المتنبي ملأ الدنيا وشغل الناس ، كما يقول ابن رشيق القيرواني ، واختلف الناس فيه بين متعصب له ومتحامل عليه ، فتعصب له أبو الفتح عثمان بن جني ، وتنقصه ابن عباد ، ووقف القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني موقفاً قواما بين المادحين والقادحين في كتابه « الوساطة بين المتنبي وخصومه » .

وقد شغل شوقي وحافظ الناس بالحديث عنهما حيين وميتين . . ولن يقف مدى الكلام عنهما ، ولن يكون القول فيهما معاداً مكروراً مع قصر العهد بهما، وقرب الزمان منهما .

وإذا أنت قلبت المكتبة التاريخية لرجل مثل « نابليون » فإنك واجد فيها مئات من الكتب تتناول هذا الرجل من جميع نواحيه . ففي كل يوم يظهر عنه بحث جديد ، ويقول القراء هل من مزيد ، وآخر هذه الأبحاث ذلك الكتاب القيم الذي أخرجه المؤرخ الفرنسي لويس مادلين . في أخريات سنة ١٩٤٨ : — Louis Madelin ، بعنوان « الأمة الفرنسية تحت حكم الأمبراطور » "La Nation Sous L' Empereur"

فليس إذن بالكثير على المتنبي أن تظهر فيه عشرات من الكتب ، وليس كثيراً على شوقي الشاعر أن تظهر فيه بضعة من الكتب ، وليس

كثيراً عليه أن ظهر فيه عدد خاص من مجلة « السياسة الأسبوعية » سنة ١٩٢٧ . وهو العام الذى احتفل فيه بتكريمه ومبايعته أميراً للشعر العربى . وليس كثيراً أن ظهر فيه وفى زميله الشاعر محمد حافظ إبراهيم عدد خاص من مجلة « أبولو » سنة ١٩٣٢ . وليس كثيراً أن خصصت لهما مجلة « الكتاب » عدد أكتوبر سنة ١٩٤٧ بأجمعه ، إحياء لذكراهما وتخليداً لآثارهما

إن هذا التنبه الأدبى هو قرين للتنبه القومى ونتيجة له ، ونرجو أن يحور هذا التنبه الناشيء إلى وعى عريق الأصول عميق الأسس .

وللناس تصيب من الشهرة فى حياتهم وموتهم كنصيبهم من الغنى المقدور والتراث الموفور . فهذا شوقى قد ظفر من المكتبة العربية بأحد عشر كتاباً تناولت شعره ومسرحياته وحياته . على حين لم يظفر زميله وصديقه حافظ إلا بكتاب واحد ظهر فى عام ١٩٤٧ ، وتعرض له من ناحية واحدة هى الشعر السياسى .

وسنضع هنا أمام القارىء الكريم طائفة من الكتب أخرجها الشاعران ، ولم يتعرض لها النقد الحديث بما هى جديرة به وأهل له . ولعل طول الزمان عليها وقدم العهد بها قد صرفا الناس عنها — أو عن كثير منها — حتى بات الحصول على تلك الكتب أمراً أداً ومطلباً صعباً ، كما سنضع عما قليل فى الباب نفسه طائفة من الكتب تحدثت عن الشاعرين أو أحدهما حديثاً خاصاً ، فى بحث قائم مستقل ، أو فى خلال بحوث تتصل بالنقد والشعر .

نعرف من كتب شوقى المطبوعة : مسرحياته الست ، وشوقياته فى أجزائها الأربعة ، وأرجوزته فى دول العرب وعظماء الإسلام ، وفصوله

النثرية فى « أسـواق الذهب » التى جارى فيها الزمخشرى فى « أطواقه » والأصفهانى فى « أطباقه » . ونعرف أن مسرحياته من الشعر ، إلا مسرحية « أميرة الأندلس » التى أخرجها فى سنة ١٩٣٢ قبل وفاته بقليل . وأحسن الظن بالجيل الناشىء الجديد أنه قرأ هذه المسرحيات ، أو شهد ما مثل منها على المسرح العربى ، أو سمع بعض أبياتها تتغنى بها بلابل لم يُتح أمثالها للخلفاء . . . أو قرأ على الأقل نقد مسرحية « قمبيز » حينما وضعها الأستاذ العقاد فى كفة الميزان .

ولكن شوقى له فوق ذلك روايات ثلاث ، أسدل الستار عليها من زمن بعيد ، ولم يعرف إلا الأقلون أسماءها وجهل الأكثرون موضوعاتها ، ولم يتعرض لها مؤرخ الأدب الحديث بحديث . . . حتى أغفلها الأستاذان « أدوار حنين » و « محمود حامد شوكت » فى كتابيهما : « شوقى على المسرح » بيروت سنة ١٩٣٦ ، « والمسرحية فى شعر شوقى » القاهرة سنة ١٩٤٧ . فقد كان بحثهما عن المسرحية لا عن الرواية ؛ وكان بحث الثانى عن المسرحية فى شعر شوقى ، فلم يكن من الملائم لعنوان الكتاب أن يتحدث عن رواية نثرية .

ولا بأس هنا — وفاء لذكرى شوقى — أن نعرض تلك الروايات الثلاث ، حتى لا يفوتها نصيبها من النقد الحديث .

وأولى هذه الروايات « عذراء الهند » وقد ظهرت فى سنة ١٨٩٧ ؛ واستمد شوقى عناصرها من التاريخ المصرى القديم . وترجع حوادثها إلى زمن رمسيس الثانى المعروف باسم سيزوستريس . فهى إذن أول محاولة من شوقى الشاعر فى معالجة الفن الروائى ، وهى محاولة لم يقدر لها نجاح الاستهلال

فى الأعمال ؛ ولم تحم الشاعر مكانته من القصر واشتهاره بالشعر فى ذلك الوقت، أن يتعرض للنقد العنيف من الشيخ إبراهيم اليازجى اللغوى الشهير.

أما الرواية الثانية فهى « لادياس أو آخر الفراعنة » وقد نشرتها مجلة الموسوعات مستقلة سنة ١٨٩٩ — أى بعد الأولى بعام واحد — واحتفظت بحقوق نقلها إلى « التشخيص » ؛ فكأن شوقى كان يعدها للتمثيل حينذاك . وبطل هذه الرواية « حماس المصرى » وبطلتها الأميرة « لادياس اليونانية » بنت الملك بوليقراط صاحب « ساموس » إحدى ممالك اليونان . ولم يكن للأميرة «لادياس» كفء من أبناء جنسها للزواج بها ، حتى ابن عمها الأمير « بيروس » الذى شغفته حباً ، حتى استحال غرامه بها وسخطها عليه إلى انتقام منها . وقد اشترط أبوها الملك أن يكون صهره ملكا . سواء نال الملك بكده أم توارثه عن أبيه وجده ؛ فتوافد الأمراء من مصر وفارس والهند، لخطبة الأميرة التى ستترث عرش ساموس . . . وجرت بعد ذلك أحداث تخطف فيها الأميرة وتأمر ها عصبة من الأشقياء بأيعاز من ابن عمها « بيروس » الذى لم ترض به الأميرة عاقدا عليها ، ولا قريبا لها . .

وهنا يظهر « حماس » بطلا فى البحر كما كان فى مصر بطلا فى البر، وهو فتى له همم لا منتهى لكبارها ... تعينها حظوظ مقبلة ودولة مواتية . فينقذ الأميرة من أسرها البعيد ، بعد أهوال جسام ، ويهم أن يردها إلى أبيها ، ثم يغادرها لحظات يتفقد فيها لوحا من الخشب كان رفيقه فى البحر إذا ركب، وفى الهول إذا اضطرب . . . فيعود فلا يرى « لادياس » فى مكانها حيث تركها . . وإذا بها تقع فى يد الأمير بهرام الفارسى الذى كان أحد خطابها . فيوهمها أنه هو الذى أنقذها ؛ وكان بينه وبين « حماس » المصرى

مشابه وملامح ، فلا تصدق عيناها ولا يطمئن قلبها ، ويصر الأمير الفارسى بهرام أمام أبيها الملك وأمام بطانته أنه هو منقذها ومخلصها من الأسر ، وأنها أصبحت له زوجا بحق الشرط الذى اشترطه أبوها . . . فتأبى الأميرة ولا تزال الحوادث تتوالى حتى يظهر « حماس » من جديد . . . فينكشف الستار عن خدعة الأمير الفارسى ، ويثبت للملك أنه هو الذى أنقذها وأنه أحق الناس بها . . ويعود « حماس » إلى وطنه مصر بعد أن سبقته إليها أنباء شجاعته الخارقة وبطولته النادرة ؛ ويعد العدة لانتزاع الملك من يد الملك « أبرياس » المصرى الذى كان : (ساقط الشأن فى الداخل ميت الذكر فى الخارج) ص ٦٨ . فانتصر حماس بحيلته على الملك أبرياس المصرى وبعث فى طلب الأميرة اليونانية لتكون ملكة على مصر وشريكة له فى عرشه الجديد . . .

والحق أن شوقى قصد من هذه الرواية أن يصور حالة مصر بعد عهد بسماتيك الثانى فى القرن السادس قبل الميلاد ، وما « أبرياس » الملك المصرى فى رواية شوقى إلا « أبريس » أو « Apris » الذى يقـــال له بالمصرية « حعبرع »[1] ؛ وما « حماس » بطل رواية شوقى إلا الملك « أحمس » الذى سماه هيرودوت المؤرخ : (أمازيس — Amasis)[2] . وقد كان أمازيس مواليأ لليونانيين الذين كانوا يتمتعون فى مصر بامتيازات عظيمة ، وكان يعدهم أصدقاء لمصر حتى كلفته تلك الصداقة — فى خيال شاعرنا شوقى — أن يضرب فى عرض البحر المتوسط مغامرا ليظفر بالأميرة لادياس اليونانية ليتخذها زوجة له .

---

(١) انظر كتاب « تاريخ مصر » للأستاذ جايمس هنرى برستد ص ٣٩٥

(٢) المصدر السابق

ولكن شوقى الروائى قسا على الملك « أبريس » المصرى فاتهمه بسقوط الشأن وموت الذكر ، وهو لم يكن كذلك ، فقد كان بعيد الآمال فى استرداد مستعمرات مصر [1] ولكن الحظوظ لم تواته . وذنب « أبريس » عند شوقى أنه كان عدوا للروح المصرية الموالية للأجانب وخاصة اليونانيين ، وهو ذنب يشرف هذا الملك فى نظر المصرى الوطنى الصميم . وفضل « أمازيس » أو « حماس » عند شوقى أنه استعدى اليونانيين ليغتصب الملك من « أبريس » . على أن هذا الملك المصرى « أبريس » لم يكفه ظلم أتباعه المصريين من النبلاء والقواد حين أثاروا عليه جيشه حتى جاء شوقى بعد أكثر من ألفى عام ليظلم هذا الملك ظلما جديدا . . . ولكن المنصفين من المؤرخين قد انتصفوا لذلك الملك المصرى المظلوم ؛ وأولهم المؤرخ « برستد — Breasted » فى كتابه « تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسى » إلا أن انتصافنا « لأبريس » لا يمنعنا من أن ننصف الملك « أحمس » على الرغم من ميوله اليونانية . . . فأنه لم يهمل مصالح مصر التى ازدهرت فى عهده ، حتى قال هيرودوت المؤرخ إن القطر وقتئذ كان يحوى عشرين ألف مدينة .

وهذه النظرة الغريبة من شوقى فى رواية « لادياس » لم تفت العقاد وهو ينقد مسرحية « قمبيز » للشاعر شوقى فى كتابه « رواية قمبيز فى الميزان » . ويظهر أن شوقى تأثر فى الحوادث التاريخية لمصر القديمة بما رواه اليونان ؛ « فلم يدرك موضع الهوى والغرض من نفوس هؤلاء » كما يقول العقاد .

بقى أن نقول كلمة فى أسلوب رواية « لادياس » ، فقد كانت كلها نثرا إلا بعض أبيات يرسلها الشاعر هنا وهناك ، على أنه شعر دون ما وصل

---

(١) المصدر السابق ص ٣٩٥

إليه نضج الشاعر بكثير . وأين من شعر شوقى هذه الأبيات التى ينشدها (بيروس) ابن عم « لادياس » ؟

يا ابنــة العم رويدا كدت المفتون كيدا
أنت للعين ســواد أنت للقلب سويدا
كان لى فى الدهر تاج صار ذاك التاج قيدا
كنت مولى صرت عبدا كنت عمروا صرت زيدا

وقدغلب على الرواية السجع من أولها إلى آخرها ؛ وكان هذا مذهب الكتابة فى ذلك العصر — أعنى قبل مطلع القرن العشرين . اسمعه يقول فى وصف الأميرة لادياس بطلة الرواية : (وكانت لادياس ، فتنة النـاس ، بالبدر الطالع فى الغصن المياس ، لا من طينة البشر ، ولا من أديم الشمس والقمر ولكن صورة آية فى الصور ، فوق مبلغ الخواطر ومنال الفكر ، وكانت لابسة حلة بيضاء ، هى فيها حرير تحت حرير وضياء فى ضياء . وعليها من عاطر الورق وبديع الزهر ، فى الرأس وفوق النحر ، ومكان المنطقة من الخصر ، ما يتجمع منه باقة زاهرة ، لادياس فيها الزهرة النادرة) .

على أن استجابة شوقى للسجع لم تكن ألا مطاوعة لزمانه وجريا على ذوق عصره . فلما ذهب أوان السجع فى العصر الأخير رأينا شوقى يخرج نثرا مسرحية « أميرة الأندلس » ولا تكاد تقع فيها سجعة واحدة .

أما الرواية الثالثة لشوقى فهى « ورقة الآس » ، وقد طبعت فى مطبعة الشعب وأصدرتها دار « مسامرات الشعب » للمرحوم خليل صادق وليس عليها تاريخ طبعها ؛ وأغلب الظن أنها ظهرت بعد رواية « لادياس » وأنها كانت من إنتاج القرن العشرين ، فقد قل فيها السجع عن سابقتها . وتدور حول قصة « النضيرة بنت الضيزن » ملك الحضر حينما دخلت تلك البقعة

من الأرض فى ملك سابور الفارسى ؛ فقد أحبت هذه الأميرة الملك سابور ، على أثر نظرة نظرتها إليه من مكان عال ، وهو مغتصب أرضها ومحاصر دارها . وكانت النضيرة امرأة ككل النساء لا يدوم لهن عهد ، ولا يبقى لهن ود . فلما نال سابور منها جد به الهوى وتحكم فيه حتى صار له شغلا شاغلا ؛ فتزوجت منه وله الملك والسلطان . إلا أن قلبها انتدب للغرام مرة ثانية . فأحبت أردشير أخا الملك سابور . ولكن عفته ونزاهة نفسه أبتا له أن يقع على حب أخيه . . .

وقد تابع شوقى القصة التاريخية فى إظهار النضيرة بمظهر المرأة الخائنة المتقلبة التى تحوك الدسائس إشباعاً لشهوتها وإرضاء لعاطفتها ؟! . ولكنه أظهر بجانبها الفتاة « هندا » — وهى إحدى وصيفاتها — فى مظهر الطهر والعفاف . فقد وفت هذه لابن قومها « ابن بكر » حتى على المحنة حينما رماه الدهر بالأرزاء دفاعا عن أرضه وذيادا عن حماه ، وآثرته على أردشير أخى الملك سابور الذى جن بها غراما وفتن بها هياما . ولعل شوقى قد خلق هذه الشخصية الطهور — شخصية هند — ليظهر فرق ما بين المرأتين وبُعد ما بين الأنثيين .

هذه هى روايات شوقى النثرية التى استهل بها حياته القصصية ، والتى لم يتعرض لها النقد الحديث بشىء ، ولعل حديثنـــا اليوم عنها فى هذا الإيجاز يلقى بعضا من الضوء عليها . وهناك رواية « أميرة الأندلس » وهى مسرحية نثرية مما أخرجه الشاعر قبل وفاته بقليل ؛ فكأن بينها وبين رواية « عذراء الهند » خمسة وثلاثين عاما ، وهى حقبة من الزمان تم فيها نضج الشاعر المسرحى ؛ وهذه الرواية هى الوحيدة التى أوحى بها إلى الشاعر نفيه إلى الأندلس أرض الفردوس الإسلامى المفقود .

وإذا كانت مصر قد أوحت إلى شوقى بأربع روايات هى « عذراء الهند » « ولادياس » « ومصرع كليوباترة » و « قمبيز » فإن الأندلس أوحت إليه بمسرحية « أميرة الأندلس » كما أسلفنا .

وليست هذه الكتب هى كل ما لشوقى من نثر ؛ فله كتاب « أسواق الذهب » الذى طبع على عينه فى سنة ١٩٣٢ ، وهى فصول من النثر فى أغراض من الكلام كالحرية والوطن والأمة والمال والشباب والموت والحياة ؛ وفى آخرها خواطر هى أشبه بالكلمات المأثورة والأقوال الموجزة التى لا تعدو القولة منها سطراً أو بعض سطر ، وقد حاول شوقى أن يجمع فيها تجاريب حياته وعظات أيامه ، وفيها يقول : « يكتنف ذلك أو يمتزج به حكم عن الأيام تلقيتها ، ومن التجاريب استمليتها » .

ولا نستطيع أن نرد هذه الخواطر الشوقية إلى زمن معين ، فقد نبعت من قلب شوقى على فترات من الحياة بين الكدر والصفو ، وبين الغمام والصحو .

وقد بلغ شوقى القمة فى فصوله عن الوطن والجندى المجهول وقناة السويس والموت والأهرام ، لأنه جمع فيها بين عمق الخيال وصدق الواقع ؛ وما أصدقه وهو يقول عن الأخيرة « ما أنت يا أهرام؟ أشواهق أجرام ، أم شواهد إجرام وأوضاح معالم ، أم أشباح مظالم ، وجلائل أبنية وآثار ، أم دلائل أنانية واستئثار » .

ولو خلا الشعر عند العرب من ميزان وخرج على الأوزان لكانت « أسواق الذهب » شعراً من النسق العالى ، ففيها الخيال والتصوير الناطق وفيها ذلك الأثر الذى يتركه فى النفس كل شعر جميل .

وما يمنعنا أن نسميها « شعرا منثورا » وهي تكاد — في سجعاتها وفقارها القصار والطوال — تكون شيئا من الأوزان ، وموسيقى في الآذان . حتى استقامت بعض فقراتها شعرا موزونا ، مثل قوله في الجندي المجهول :

« ذلك الخفل في الرمم ، صار ناراً على علم » . فهذا بيت من مجزوء الخفيف . ومثل قوله : « جهاد طويل وصبر جميل » . فهذا شطر من بحر المتقارب . ومثل قوله في قناة السويس : « ماذا على هذه الرمال » فهو شطر من مخلع البسيط . ومثل قوله « فيالك من دار ، لعبت على عرصاتها الأقدار » فالفقرة الثانية شطر من البحر الكامل . ومثل قوله في الوطن ، « ومراد الرزق ومطلبه ، وطريق المجد ومركبه » فهو بيت من بحر المتدارك .

ويغلب السجع على فصول « أسواق الذهب » كما غلب على رواياته الثلاث الأولى فكأن شوقي رحمه الله بدأ حياته الأدبية ساجعاً وختمها ساجعاً . ولم يتخلص من السجع إلا حين كان يدون خاطراته على شكل حكم ، على أنه في تلك الحكم لم يخلص من السجع جملة فقد أثر له قوله : « المتحير لا يميز . ربما تقضيك الشجاعة ، أن تجبن ساعة . ولد البخيل مرحوم ، وولد المبذر محروم . من استقام استدام » وهي سجعات تذكرنا بحكم العرب في الجاهلية من أمثال « من صبر ظفر ؛ من جاد ساد ؛ من حلم سلم »

ومما خلص من السجع من حكمه وخاطراته قوله : « في الغمر تستوى الأعماق ؛ آس ثم انصح ؛ العاقل من ذكر الموت ولم ينس الحياة » .

ولم يسلم كثير من فصول شوقي النثرية وأمثاله من المحسنات البديعية والصناعة اللفظية ، وخاصة الجناس الناقص الذي أغرم به شوقي كثيرا ؛ كقوله في الحقيقة الواحدة ، « ما للأعمى والمرآة ، وللمقعد والمرقاة ؛ وقوله

« ولاتخلهم من العواطف وإن كن عواصف » ، وقوله : « فيها هنا وضع للنبوة المهد ، وابتدأ بها العهد » .

كما كان يستعمل الطباق بين المعانى المتضادة كقوله : « الوطن شركة بين الأول والآخر ، وبين الحاضر والغابر » وقوله : « إلى العتب الوضيعة ، والسقوف الرفيعة » وقوله فى الحياة . « أحق أنها هى الحركة حتى يقطعها السكون » .

* * *

هذه كتب لشوقى آثرنا عرضها فى كفة الميزان لأنها تمثله ناثراً لا شاعراً ؛ وقد تركنا آثاره الشعرية لمن كان من نصيبهم أن يتحدثوا عن شوقى الشاعر . ولا بأس هنا قبل أن نفرغ من الحديث عن شوقى الناثر أن نعرض الكتب التى تناولت شوقى دراسة ونقدا .

ولم يكن ميراث شوقى وقدره الأدبى مما نستكثر عليه أحد عشر كتابا ظهرت فيه ؛ وقد كان لشوقى أصدقاء وخصوم ؛ على أن هذه الخصومة كانت كسباً للأدب العربى على كل حال ، وقد خاصم العقاد والمازنى الشاعر شوقى فى كتابهما « الديوان » منذ أكثر من ربع قرن ؛ وقد أعجبت صراحة العقاد فى نقده الأديب اللبنانى الأستاذ ميخائيل نعيمة ، فكتب فى ذلك فصلا نشره فى كتابه « الغربال » الذى طبع أولا سنة ١٩٢٣ وكتب مقدمته العقاد ؛ وطبع أخيرا سنة ١٩٤٦ فى دار المعارف .

ولم يستطع شوقى — على كثرة المعجبين به — أن يرضى أنصار المذهب الحديث للشعر العربى ، وعلى رأسهم العقاد والمازنى وطه حسين وميخائيل نعيمة . وقد أعلن طه حسين سخطه فى كتابه « حافظ وشوقى » الذى طبع فى سنة ١٩٣٣ — أى بعد وفاة الشاعرين . ولم يكن الدكتور

طه حسين ساخطا كل السخط ، ولكنه مزج السخط بالرضى . اقرأ نقده للشوقية الجديدة :

قفي يا أخت يوشـــع خبرينا أحاديث القرون الغابرينا

تجده منصفاً للشاعر ومنصفا منه حين يحسن وحين يجانب الإحسان . واقرأ نقده لميمية حافظ إبراهيم التي يمدح بها المغفور له الملك فؤاد الأول حين زيارته لمدرسة فؤاد الأول بقصر الزعفران، تجده منصفاً من شاعر النيل الذي اختصه من المودة والحب بما لم يختص به أمير الشعراء ، فقد أثبت في نقده أن القصيدة ثقيلة الروح قلقة القوافي . . . . ولم يمنعه حبه لحافظ أن يقول كلمة الحق فيه .

ولم تكن حياة شوقي الخاصة سرا من الأسرار بعد الكتاب أو الكتيب الذي ألفه كاتم سره الأديب أحمد عبد الوهاب أبو العز بعنوان : « اثني عشر عاما في صحبة أمير الشعراء » . ولكن المرحوم الأمير شكيب أرسلان أخرج كتابا بعنوان « شوقي أو صداقة أربعين سنة » بعد ترجمة أدبية رائعة من أمير البيان لأمير الشعر في العصر الحديث .

وإذا كان الكتاب الأول ترجمة لحياة شوقي الخاصة فإن الثاني ترجمة للحياة العامة التي عاشها شوقي وشارك في غمارها المضطرب .

أما كتاب « شوقي » لأنطون باشا الجميل فقد كشف فيه مؤلفه عن شاعرية شوقي ومميزاتها كشفا يسعفه المثال ويزينه أدب المقال .

وقد ظفرت مرثية شوقي لابن الدكتور هيكل باشا بتحليل عميق شائق للدكتور محمد صبري بك نشر في كتابه « أدب وتاريخ » مع تعليق رقيق للأمير شكيب أرسلان .

بقى مما كتب عن شوقى كتاب « العربية وشاعرها الأكبر أحمد شوقى » للأستاذ إسعاف النشاشيبى ؛ و « البطل الخالد صلاح الدين والشاعر الخالد أحمد شوقى » له أيضاً ، و « أمير الشعراء شوقى بين العاطفة والتاريخ » للأستاذ محمد خورشيد ؛ وهو يتضمن خير ماقيل فى شوقى شعرا ونثرا .

أما ما كتب عن شوقى المؤلف المسرحى فثلاثة كتب . « رواية قمبيز فى الميزان » للأستاذ عباس محمود العقاد ، وهو على عنفه صحيح النقد سليم الذوق و « شوقى على المسرح » ، و « المسرحية فى شعر شوقى » « للأستاذين إدوار حنين ومحمود حامد شوكت ؛ والكتابان من أكثر الدراسات النقدية عمقاً وأوفرها توفيقاً .

ولقد شاء الأستاذ حسين شوقى نجل الشاعر أن يخرج فى ختام خمس عشرة سنة كتاباً عن والده بعنوان « أبى شوقى » وهو عنوان يذكرنا بقول مهيار الديلمى فى إحدى فخرياته : « أين فى الناس أب مثل أبى » . وإذا كان الوفاء طبعاً فى شوقى كما يقول ولده ؛ فإن وفاء من الابن أن لا يفوته فى هذه المناسبة أن يصور والده بريشة الولد . وأن يصحبه فى حجره وهو يميل على جوانبه ويصحبه فى الغربة القاسية فى الأندلس ، وإن كان أطال فى وصفها طولا كاد يخرج الكتاب عن موضوعه .

والحق أن هذا الكتاب صورة سلبية سمحة جلاها حسين شوقى لوالده أحمد شوقى ، وأغلب الظن أنها صورة صادقة أيضاً . وهل أصدق من أن يقول الابن عن أبيه ص ١٠ : « على أن أهم عيوب أبى أنانيته الشديدة » ثم يمضى فيضرب على ذلك الأمثال .

* * *

هذه كتب شوقى وما كتب عنها فى كفة الميزان . أما حافظ فقد كان

ضئيل الحظ فيما كتب عنه ، فلم تظهر إلا دراسة أخيرة لشعره السياسى للأستاذ روفائيل مسيحة . وقد كان لحافظ نواح أخرى فى الاجتماع والشكوى والمدح والرثاء والفكاهة ، وهى أبواب لاتزال تنتظر من يعالج كلا منها مستقلا فى كتاب . وهذه الدراسة لحافظ الشاعر السياسى جيدة فى بابها ؛ فهى تخضع كما يقول مقدمها الأستاذ أحمد الشايب لمنهج علمى سليم . لولا أننا لاحظنا فيها كثرة كثيرة من الخطأ المطبعى ، وخاصة فى نقل النصوص من شعر حافظ . كأن الأقدار التى جعلت « حافظ إبراهيم » شاعر البؤس فى فترة من حياته حرمته العناية بشعره حين يستشهد به الناس . . . وكأن المؤلف حين أراد أن يضبط الشعر بالشكل انساق إلى إفساده من حيث يريغ صلاحه ، كما ورد فى صفحة ٣٥

كاشف الكهرباء ليتك تعنى ... باختراع يروِّض منا الطباعا

ولا أدرى لماذا ضبطها المؤلف يروض وصحتها « يرُوض » حتى يستقيم الشعر . وقد أجاز المؤلف أن يقدم فى كلام حافظ ويؤخر فاضطرب وزنه كالبيت الآتى ص ٩

كم بغت على دولة وجارت ... ثم زالت وتلك عقبى التحدى

وصحة البيت : كم بغت دولة على وجارت

وأمثال هذا وذلك كثير فى صفحات ٢٦ ، ٣٢ ، ٥٣ ، ٩٥ ، ١٠٩ وغيرها

هذا هو الكتاب الفرد الذى كتب عن حافظ . أما كتب حافظ نفسه — عير ديوانه الذى طبع ثلاث مرات — فهى « الموجز فى علم الاقتصاد » مشتركا فى تعريبه مع الشاعر خليل بك مطران ؛ و « البؤساء » لفيكتور هيجو ، و « كتيب فى التربية الأولية » مترجماً عن الفرنسية لتلاميذ المدارس و « ليالى سطيح » . و « الموجز » و « التربية الأولية » هما كتابا الرخاء

وإنتاج التوسعة ، أخرجهما حافظ بعد سنوات العسرة التى قضاها ساعياً حتى كاد ينتعل الدم . . . وهما من الكتب المدرسية التى رئى ترجمتها إلى العربية بوحى من وزير المعارف أحمد حشمت باشا .

وقد يقال : ما لحافظ إبراهيم وعلم الاقتصاد ، وما لخليل مطران وعلم التدبير والأعداد ، وهما شاعران أديبان انعقدت لها شهرة فى ذلك الزمان ؟

فأولها شاعر النيل وثانيهما شاعر القطرين . ومن عجائب المقدور أن يكتب فى الاقتصاد شاعران لا تعرف أيديهما إمساك النقود ولا ضبط المعدود . . . فحافظ كان سخيا بالمال حين أيسر ، لأنه ذاق البؤس حين أعسر . وقد يصادفه العانى فيعطيه كل ما فى يده ، حتى لو ملك الدنيا كلها لفرقها فى يوم واحد ، ؛ وكذلك خليل مطران يحمل هم غيره قبل أن يتحمل هموم نفسه ، ويستدين لدفع غرم مدين ، حتى قال العقاد فى مهرجان تكريمه الأخير :

وجمعت نحوى الاقتصا   د كما تنزل فى كتاب
قلم يعلم علمه   ويد تجود بلا حساب
فى العرف والعرفان سا   لك المؤمل مستجاب

يلوح لى أن حشمت باشا كان بصيراً بالرجال وازنا لأقدارهم ، فندب الخليل وحافظاً لهذه المهمة لما يعلم من تمكن الأول من الفرنسية ومحفوظ الثانى من العربية ، فاجتمع بالاثنين ما قد لا يجتمع لواحد . وبدآ يعملان ، ولكن صعوبة المركب كادت تقعدهما عن الشخوص ، وحدثتهما النفس بالنكوص . ولكنهما مضيا فى الشوط إلى غايته ، وفى الطريق إلى نهايته ، حتى حال العناء إلى لذة ، وانقلب الإحجام إلى إقدام .

وقد كان علم الاقتصاد فى ذلك الوقت شيئا جديداً على اللغة العربية ، وفيه مصطلحات لابدلها من اللفظ العربى الصحيح السائغ . وتلك غاية تحتاج

إلى أديب قبل أن تحتاج إلى اقتصادى ، فأجزأ الشاعران فى المهمة ونهضا بها ، وسلكا فى ترجمة المصطلحات مسلكين : فأقرا اصطلاح غيرهما ، أو وضعا مصطلحات جديدة عن طريق الاشتقاق اللغوى تمشيا مع طبيعة العربية وحفظا لكيانها ، وإلى هذا يشير فى قوله على لسان اللغة العربية :

وسعت كتاب الله لفظا وغاية   وما ضقت عن آى به وعظات

فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة   وتنسيق أسماء لمخترعات

وقد سارت بعض مصطلحاتهما وأخذت طريقها فى الاستعمال ، ووقف بعضها وحل غيره محله ، بما كان أخف دورانا على الألسن . فمما وقف لها من المصطلحات كلمة « الفراغ » ترجمة لكلمة « Chomage » والفراغ عربية صحيحة جاءت فى قول الراجز :

إن الشباب والفراغ والجدة   مفسدة للمرء أى مفسدة

ولكن الاستعمال جرى على كلمة البطالة أو التعطل .

ومما وقف استعماله كلمة « السلعى » أو بائع الأشتات ، ترجمة للتعبير الفرنسى "Marchand de detail" . وقد حل محلها « تاجر التجزئة » .

ومما وقف استعماله كلمة « المقطورة » ترجمة لكلمة "Wagon" وهو ماتجره القاطرة ، ومن الخير أن ماتت هذه « المقطورة » لجافاتها الذوق . .

ومما وقف استعماله كلمة « المزولى » أى تاجر الساعات وصانعها ترجمة لكلمة " Horloger " الفرنسية . وقد حل محلها كلمة « الساعاتى » . ولا بأس بها بالنسبة إلى الجمع فهى جائزة وهناك « ابن الساعاتى » . الشاعر الدمشقى فى القرن السادس .

ولها غير ذلك كثير مما وقف استعماله من المصطلحات الاقتصادية

لأغرابهما فى الترجمـــة ووقوعهما على الغريب المعجمى من الألفاظ . كاستعالها « الوهين » لـ "Patron" . والمصفق لـ Bourse أى بورصة . والأجازات لـ "Tickets" بدلا من تذاكر السفر التى شاعت وقرت استعالا . وكاستعالها « الآصرة الألبية » ترجمة لتعبير "Esprit de corps" أى الروح الحزبى . وهذا أخف كثيراً من تلك الآصرة الألبية التى أماتها الله إلى غير رجعة . . .

ويظهر أن هذا الإغراب فى الترجمة كان بوحى من حافظ إبراهيم الذى عرفت له سابقة الإغراب حينما ترجم « البؤساء » سنة ١٩٠٣ ، أى قبل ترجمة « الموجز » مشتركا مع خليل مطران بعشر سنين . فإن هـذه الروح المغربة ظهرت فى « البؤساء » فى أمثال هـذه الأوصاف لحصان : « كان عظيم السليل ، سحيرا ،أدك أهنع ، وهووإن لم يكن أصيلا كان عصلبا » ! !

وعجيب أن يكون حافظ الرصين المغرب المتقعر أحياناً مبتذل اللفظ فى بعض شعره كقوله :

فيا مصر اسجدى لله شكراً وتيهى واقعدى طرباً وقومى
فقد تم البناء وعن قريب تزف لك البشائر من نسيم

ولـكنه لم يسلم من الدكتور طه حسين ، وقوله فى هذا الكلام « أليس من كلام الأسواق ؟ أليس غريباً أن يكون هذا الكلام من آثار حافظ الذى استعمل « مسلاخ الشرة » وما يشبه مسلاخ الشرة من غريب الألفاظ »

ولـكن حافظا فى ترجمته لـكتاب التربية الأولية بجزءيه كان سهلا سمحا استجابة لحاجات تلاميذ المدارس الذين ترجم الـكتاب لهم بإشارة أخرى من أحمد حشمت باشا . وخير وصف لهذا الـكتاب ما قاله حافظ نفسه فى

مقدمته : « ولم أنزل بها إلى منزلة الساقط المرذول ، ولم أرتق إلى ذروة البلاغة ولكن جعلت لى سبيلا قصداً بين الغايتين » .

بقى من كتب حافظ إبراهيم « ليالى سطيح » ؛ وهو أشبه بمقامة نقدية اجتماعية يظهر فيها سطيح الكاهن مع مؤلف الكتاب وصاحب له ؛ وتدور بينهم أحاديث يعبر فيها حافظ عن آرائه الخاصة فى المرأة بين السفور والحجاب والأجانب فى مصر ؛ وحب المصريين للألقاب ونفورهم من اللبـاب . . . وينتقد فيها بعض العادات القبيحة كالزار ، ويهاجم الأوصياء ونظار الأوقاف ؛ ويحمل على الصحافة الرخيصة التى تشيع الهزل والمجون فتروج سلعتها وتنفق بضاعتها — وما أشبه الليلة بالبارحة !

ولا ينسى حافظ « فى ليالى سطيحه » أن يهاجم الأنجليز وسياستهم التى « هى أشبه شىء بالكهرباء ، تدرك العين فعلهـا ولا يدرك العقل كنهها » ولا ينسى أن يستثقل منّ الانجليز على المصريين بأنهم صنعوا لهم كيت وكيت ، وأنهم كانوا فى ذلة فأعزوهم ، وكانوا فى فقر فأغنوهم . ولكن ماقيمة الغنى فى الأرض إذا أجدبت أرواح أهلها ؟ . وحافظ هنا فى نثره السياسى الصريح يذكرنا بشعره السياسى الصريح الذى يخاطب به اللورد كرومر :

تمن علينا اليوم أن أخصب الثرى ... وأن أصبح المصرى حراً منعما
أعد عهد إسماعيل جلدا وسخرة ... فإنى رأيت المن أنكى وآلما
عملتم على عز الجمـــاد وذلنا ... فأغليتمو طينا وأرخصتمو دما
إذا أخصبت أرض وأجدب أهلها ... فلا أطلعت نبتا ولا جادها السما

ولن يجدب أهل مصر إن شاء الله ما دام فيهم وفاء لماضيهم ، وثقة فى حاضرهم ، وتطلع إلى مستقبلهم .

أول قاضى القضاة السودانيه

الشيخ محمد شاكر

١٨٦٦ — ١٩٢٩

لا أعرف عالما من علماء المسلمين فى عصرنا الحديث اشتغل بالسياسة وبرع فيها كما كان الشيخ محمد شاكر . وكأنه — رحمه الله — خلق ليكون سياسيا قبل أن يخلق ليكون عالما . ولا يطعن ذلك فى علمه ، ولا فيما بذله للدين من جهد . فأنه كان سياسيا ناجحا وعالما ناجحا . وماكان فى سياسة الدنيا مضيعا نصيبه ، ولا كان عرض السياسة الدنيوية عن الدين شاغله .

وفرق مابين الأستاذ الأمام محمدعبده وصديقه وتلميذه الشيخ محمدشاكر ، أن الأول بدأ سياسيا ، فاشترك فى الثورة العرابية ، وكان كما قال اللورد كرومر « روحا مدبرة للحركة » وكان موقفه منها — كما قال عبد الرحمن الرافعى بك « موقف الوطنى الذى يثور لكرامة البلاد واستقلالها » . ثم انتهى به الأمر بعد النفى أن ولى القضاء والأفتاء ، فاستحال هذا الشيخ الثائر إلى حكيم مصلح هادىء ، وأعرض عن ذكر السياسة جانبا ، وانصرف إلى الأصلاح الاجتماعى والدينى ، الذى ظهر فى تأسيس الجمعية الخيرية الإسلامية وإلى محاولاته فى إصلاح الأزهر . أما التلميذ والصديق الشيخ محمد شاكر فقد بدأ حياته أميناً للفتوى ، فنائبا لمحكمة مديرية القليوبية ، فقاضيا لقضاة السودان ، فشيخا لعلماء الأسكندرية ، فوكيلا للجامع الأزهر ؛ ثم انصرف بعد ذلك إلى السياسة منـــذ الساعة التى عين فيها عضوا بالجمعية التشريعية سنة ١٩١٣ ، فتأبى على قيد الوظائف ، وأعانته بعد ذلك ثورة سنة ١٩١٩ نخب فيها ووضع ، واشترك فيها بقلم كأن أبا تمام الشاعر كان يعنيه بقوله :

لك القلم الأعلى الذى بشباته   تصاب من الأمر الكلى والمفاصل
وطريق الرجلين — محمد عبده ومحمد شاكر — فى الحيا واحدة ؛ إلا أن أحدهما بدأ الطريق من ألفه، وثانيهما بدأه من يائه . . . فالتقيا فى وسط الطريق، ولكنهما لم يلتقيا على غايته، وما لأحدهما فى ذلك باع ولا يد . . . ولكنه باع المناسبات التى تملى إرادتها وتحكم بمشيئتها . فقد كان الشيخ محمد عبده فى الثورة العرابية بلغ الثانية والثلاثين ، على حين كان الشيخ محمد شاكر فى ذلك العهد شابا فى السادسة عشرة . وهى سن لا تسمح لصاحبها باشتراك فى ثورة أو خوض فى سياسة .

فكأن الشيخ محمد شاكر قد عوض فى ثورة سنة ١٩١٩ ما فاته فى الثورة العرابية سنة ١٨٨٢ ، وهو فوت لم يكن للشيخ فيه خيار، ولكنه حكم السنين والأعمار .

وحياة الشيخ شاكر موزعة على مراحل، كما توزع حياة القمر فى منازل ؛ إلا أن القمر إذا رأيته هلالا ناميا أيقنت أن سيصير بدرا كاملا . أما الشيخ شاكر فقد كانت أول مراتبه كمالا ، وهى دورة من الزمن الدوار، والفلك المدار، استوى طرفاها فى القدر، ولم يستويا فى حساب الزمان .
فالشيخ محمد شاكر فى القضاء الشرعى بمصر، هو الشيخ محمد شاكر فى قضاء السودان ، وفى مشيخة الإسكندرية، وفى وكالة الأزهر، وهو فى ذلك جميعا الشيخ محمد شاكر فى الجمعية التشريعية وفى المعاش . تختلف عليه أوجه الحياة وتتقلب عليه المناصب ، فلا تختلف له فضيلة اتق الدنيا بها أو لقى الله عليها، حتى كان أوله كآخره، وباطنه كظاهره .

لقد كان فى الشيخ صلابة فى الحق، كأنما كان يضرب بعود الله الذى

لا ينكسر، وينطق باسم الله الذى لا ينخذل . ولقد أخرجته تلك الصلابة من مآزق كان الوقوع فيها منتظراً وحدثاً مقدراً . .

وتظهر صلابة الشيخ فى عهد اشتغاله قاضياً لقضاة السودان ، وقد كان أول من تولى ذلك المنصب فى ١١ مارس سنة ١٩٠٠ عقب انتهاء الثورة المهدية ، وهى وظيفة كانت لذلك العهد عبئاً على حاملها ، وهما لشاغلها نظراً للمركز الدقيق الذى استحدثته السياسة بين القطر الشقيق وجاره الشقيق .

وكان اختيار مصرى لهذا المنصب عبئا أضيف إلى من بيدهم الاختيار، ووجدت حكومة السودان فى الشيخ محمد عبده خير من ينهض بعبء الاختيار لما فيه من بعد النظر وصدق الفراسة وتقدير الرجال [١] . وانتظمت نظرة الأستاذ الإمام الشيوخ واحداً واحدا ، فرأى أن يمكن للشيخ شاكر فى بعض البلدان حتى ينفذ آراءه فى الإصلاح التى ضمنها تقريره [٢] الذى رفعه إلى الأستاذ الإمام ، ولذلك زكاه لمنصب قاضى القضاة فى السودان [٣].

وهـذه الصلابة قد جعلت للشيخ شخصية متفردة متميزة ، كان يحسب لها حسابها ، ويخشى لها بأسها . وهى صلابة تستند إلى الحق المدعم والدليل المؤيد ، لا إلى اللجاجة فى الجدال والرغبة فى النقاش ، وسر ذلك أن الشيخ كان فاهما وظيفته فى السودان كل الفهم . فأراد أن يكون فيها كما يريد الحق أن يكون ، لا كما تريد أهواء السياسة أن تكون . فهو فى السودان رئيس ديني يستمد سلطته الدينية من الرئيس الأعلى للبلاد . ولهذا اضطر حينما

---

(١) انظر تاريخ الأستاذ الإمام للسيد رشيد رضا جـ ١ ص ٨٧٦ .

(٢) هذا التقرير مصور ضوئياً ومحفوظ بدار الكتب المصرية .

(٣) مجلة المقتطف عدد أغسطس سنة ١٩٣٩ .

تسلم منصبه فى السودان إلى إعادة تعيين كل قاضى شرعى تسلم مركز وظيفته قبل حضوره من مصر إلى السودان. وبعث لكل منهم أذناً بمباشرة الأحكام الشرعية ، يتضمن إجازة ما أصدره من الأحكام قبل ذلك [١] .

والمفهوم فى لغة العقل ومنطق الشرع أن شيخ القضاة فى السودان هو الذى يأذن للموظفين الشرعيين بمباشرة أعمالهم الشرعية فى المحاكم المعينين فيها ، وهو الذى يتولى فصلهم من المحاكم التى كانوا فيها أولا . وهى سلطة يستمدها فى الشرع شيخ القضاة من الولى الشرعى للبلاد . ولكن هذه اللغة لا ترضى لغة السياسة ، ومن هنا حدث بين الشيخ شاكر وبين السكرتير القضائى للسودان ما كان كفيلا بتعكير الجو . لو لم يكن الشيخ فطناً فى مناقشته ، لبقاً فى معارضته ، قوياً فى منطقه وحجته ، ومن هنا أكبره الانجليز فى السودان على صلابته ، لأن الحق واستقلال الشخصية كان يكبره دائماً فى نظرهم ، وهم يحبون فى الرجال تلك الخلة من الخلال .

فى سنة ١٩٠٢ قام القاضى الشرعى لمحلة «الرباطاب» بالاجازة ، من غير أن يعلم الشيخ محمد شاكر بها أو يصرح له بمبارحة مركز وظيفته . فلما علم الشيخ شاكر بهذا كتب إلى السكرتير القضائى لحكومة السودان — وهو إنجليزى — ينبه بخطأ ذلك التصرف . ثم أرسل برقية إلى قاضى « الدامر » يأذن له فيها بمباشرة الأحكام الشرعية فى محكمة «الرباطاب» مدة غياب قاضيها ولم يسكت السكرتير القضائى على كتاب الشيخ ، ووجدها فرصة سانحة لخدمة الأغراض السياسية من جديد ، فكتب إلى الشيخ محمد شاكر يلفته إلى أنه لاحظ أن «محكمة العموم» تزداد ميلا إلى التدخل «إداريا» فى شئون المحاكم

---

(١) من مذكرات خطية للشيخ رحمه الله .

التابعة لها] . ومحكمة العموم هذه هى التى يرأسها الشيخ شاكر بوصفه قاضى قضاة السودان .

ولكن الشيخ الصلب العنيد فى الحق لم يسكت على ملاحظة السكرتير القضائى ، فانتضى القلم الذى امتطى أنامله الخمس اللطاف الصلاب ، ورد رداً طويلا ختمه بهذه الأسطر : «وإلى هذا الحد أرجو أن تعيدوا النظر فى هذه الملاحظات وتقدروا موضوعها حق قدره . فإن بقاءها على ما هى عليه يذهب بكثير من الثقة التى هى عماد الاشتراك فى المصالح . والتى إن فقد الموظف شيئاً منها لخير له أن يفقد مركزه ليحتفظ بها ، وأنا أول رجل يسخو بمركزه فى سبيل الثقة بنفسه»[1] .

وما كان الشيخ مازحا حين عرض السخاء بمنصبه فى سبيل كرامته الشخصية وثقته النفسية ، وما كان آسفاً على المنصب لو ضاع ، أو على الدنيا كلها لو ولت . ما دام فى ذلك أخذ بالتقية لدينه ولربه ، وأخذ بالكرامة لنفسه ولقلبه . وقد كان فى استطاعته أن يدع الأمور تسير ، وأن يترك «المخالفات» تمر ، وأن يريح نفسه ورأسه من هذا الأخذ والرد ، والجزر والمد ، ولكنه كان «غير آمن على نفسه من مخالطة حكومات هذا الزمان»[2] . ومن هنا هانت عليه المناصب ، وصغرت فى عينيه المراكز والمراتب .

وقد ظن السكرتير القضائى أن تمسك الشيخ بحقه تدخل منه فى شئون المحاكم الإدارية ، فطلب إليه الانتباه — بقدر الإمكان — إلى هذا «كما أنتبه

---

(١) من مذكرات خطية للمترجم له .

(٢) من رسالة خاصة الى أحد أصدقائه وهى محفوظة عند نجله فضيلة الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر .

أنا — يعنى السكرتير نفسه — إلى عدم المداخلة فى استقلال محكمة العموم فى الأمور القضائية » (١) .

ولكن السكرتير لم يلزم نفسه بالعهد الذى قطع ، فتدخل فى الأمور القضائية مرة ومرة . . . تدخل فى قضية ادعت فيها امرأة أمام قاضى قرية « الكوة » غيبة زوجها فطلقها وزوجت بآخر ؛ ثم حضر الزوج الأول واستأنف هذا الحكم ، فألغى عقد الزواج الثانى ، فطلب الزوج الثانى إلزام القاضى بالمهر وما أنفقه ، لأنه المتسبب ، ومال السكرتير القضائى إلى أن يرد للزوج الثانى المهر الذى دفعه للمرأة ، ولكن الشيخ شاكر رد عليه رداً يقطع على المكابرين سبيلهم . فرد السكرتير يقول : « وإن أكن فاهماً بأنه لا بد من وجود قواعد شرعية إذا فسرت حرفياً حرمت إعادة أى قسم من الصداق فى هذه القضية ، إلا أنه لا يسعنى إلا الاعتقاد بأن الحكم بإعادة هذا القسم من الصـــداق إلى دافعه يكون أقرب معنى وأكثر مطابقة لروح الشرع الإسلامى العادل » . وهنـا ثار الشيخ شاكر كعادته حينما يحس أن شيئاً قد مسَّ دينه ، أو تعرض لعدالة روحه وحكمة نصوصه . فرد على السكرتير رداً طويلا ، مبينا له الحكمة التى لأجلها قضت الشريعة الإسلامية بعدم رد المهر الذى يطالب به الزوج الثانى بعد الحكم بفسخ العقد .

لم يكن عمل الشيخ إذن فى السودان القيام على تطبيق الأحكام الشرعية ولكن الله ابتلاه بمن يُغفل حكمة الشريعة فى أحكامها ، فوقف له بالمرصاد يرد عليه مغامزه فى صحوة المتيقظ ووثبة المتحفز .

ولم تكن هذه المكاتبات لتشغل الشيخ أو تقلق باله أو تصرفه عما كان

---

(١) من رسالة السكرتير القضائى إلى الشيخ بتاريخ ٦ يوليو سنة ١٩٠٢ رقم ٨ سرى .

بسبيله من إصلاح القضاء الشرعي في السودان . فقد مضى إلى غايته ، ومر كما يمر السحاب الثقال . . لا يشغله صياح . . وأجد في المحاكم السودانية مبادىء من المذاهب الإسلامية دعت اليها الحاجة في بلد بكر في تشريعه وقوانينه . وهي مبادىء تستند إلى فكر صحيح ورأى رجيح . كالحكم بالتطليق للغيبة والإعسار والحبس والضرار ونحوها مما جرى به العمل بعد ذلك في مصر سنة ١٩٢٠ . فسبق السودان مصر في بعض نواحي الاصلاح الشرعي بعشرين من السنين .

وظل الشيخ شاكر في السودان أربعة من السنين ، لم يقتصر فيها على القضاء ، ولكنه كانت فيه طبيعة المعلم ، وفطرة الواعظ ، ومزية الخطيب ، فما ضنّ على أهل السودان بدرس علمي ، ولا بخل عليهم بموعظة ، ولا امتنع فيهم عن خطبة . وتوج ذلك كله بقراءة صحيح البخاري كله .

إنما يظهر فضل الرجال في الأعمال حين يعهد اليهم بعمل جديد ، فهنا يظهر فضل الإنشاء والابتكار والتجديد . وقد ظهر فضل الشيخ شاكر حينما كان أول قاضٍ لقضاة السودان ، فكل عمل له هناك كان سابقة ، وكل خطوة جديدة له كانت أثراً ، وكل خطة له هناك كانت تقليداً يتبع لمن يأتي بعده . ولقد جاء بعده في ذلك المنصب الشيخ محمد هارون والشيخ محمد مصطفى المراغي ، وجاء بعدهما عدد من خيرة القضاة فكان للشيخ محمد شاكر فضل الرواد .

وعاد الشيخ إلى القاهرة في أوائل صيف سنة ١٩٠٤ في عطلة سنوية ، وكأنما كانت تعده الأقدار لمنصب جديد ، يظهر فيه فضل الإنشاء والتجديد ، فقد رئي قبل ذلك بعام أن تلحق الأسكندرية بالجامع الأزهر في التدريس

والامتحان ، وكان الجامع « الأنور » الإسكندرى موقوفا للتدريس من قبل الشيخ إبراهيم الباشا ، الجد الأعلى للشيخين أحمد الباشا ومحمود الباشا ؛ ورفض أولاد الواقف أخيراً أن يتبعوا مجلس إدارة الأزهر فى إدارته ونظامه ، وقرر مجلس الأزهر تعيين شيخ لعلماء الأسكندرية غير الشيخ محمود الباشا . فمن يكون ذلك الشيخ الجديد ؟

فكر الأستاذ الإمام فى الشيخ محمد شاكر ، وجس نبضه فوجد منه ارتياحا للقبول ، ووافقت حكومة السودان على نقله ، ورضى الخديو بتعيينه وصدر الأمر العالى بذلك فى ٢٦ أبريل سنة ١٩٠٤ .

كان الشيخ شاكر فى الأسكندرية رائداً كما كان فى السودان . ولئن ظهرت فى القضاء الشرعى بالسودان مزيته الفقهية لقد ظهرت فى معهد الأسكندرية فضيلته التعليمية . ويظهر أن خاصية الابتكار كانت فيه فى كل عمل تولاه ، فما عرف التقليد والاتباع إلا فى التأسى بالرسول وصحابته ؛ وأما ما عدا ذلك من أمور تجب فيها الأصالة ويحمد فيها الابتداع فقد كان فيها على غير ما كان غيره . وهو هنا يمتاز بعقلية منظمة وذهنية مرتبة ، كانت تظهر فى ترتيب منطقه إذا كتب وفى ترتيب عمله إذا عمل ، وتلخص سيرة الشيخ فى الأسكندرية فى هذه الأسطر الغزيرة المعنى الممتدلة الحكم التى كتبها الشيخ محمود أحمد الغمراوى شيخ معهدى دسوق والزقازيق سابقا وفيها يقول : (ثم أنشأ المغفور له الخديو عباس الثانى معهد الأسكندرية ، واختار شيخا له القاضى العادل والمربى الكبير المغفور له الشيخ محمد شاكر فنهض بالمعهد نهوضا فائقا ، وجعل تعلم هذه العلوم — يعنى علوم الثقافة

الحديثة — إجباريا ، فازدهر معهد الأسكندرية بهذه العلوم إلى جانب علوم الدين واللغة أيما ازدهار [١] .

لقد كان الشيخ شاكر أذن من شيوخ التجديد فى العالم الإسلامى ، وهى حقيقة ما كانت لتغيب عن منصف ، ولا أدرى كيف غابت عن الدكتور المستشرق تشارلز آدمز وهو يؤرخ الإسلام المجدد فى كتابه « الإسلام والتجديد فى مصر » ؟

استن الشيخ شاكر فى معهد الأسكندرية الدينى سنة التقرير السنوى عن أعمال المشيخة كل عام ، يرفعه إلى ولى الأمر أولا ، وإلى من يهمهم أمر التعليم الدينى ثانيا . وقد كان يعد هذه التقارير بنفسه ويكتبها بقلمه ، ففيها روحه وأسلوبه وفيها دقته وترتيبه . ففيها المقدمة وجداول الاحصاء المنظمة ، تارة بحسب المذاهب وتارة بحسب أقاليم الطلاب ، وفيها جداول الامتحان وعدد المتقدمين له والناجحين فيه . وفيها فوق ذلك خطبه التى اعتاد كل عام أن يلقيها فى حفل توزيع المكافآت على الناجحين ، وفيها خطة للدراسة تدل على فهم سليم لسياسة التعليم .

وما كانت تفوت الشيخ وهو فى مشيخة الأسكندرية فطنته وتنبهه إلى كل ما يمس دينه ، ولم ير فى الوظيفة ثمنا للسكوت عما يقال أو سببا للاغضاء عما يذاع . ولم ير فى المنصب خيرا إذا كان لجاما للحق ، وعقالا لكلمة الصدق ، فقد تعرض اللورد كرومر مرة للإسلام ، فرأى الشيخ رحمه الله أن يختار الرد عليه يوم الاحتفال بنهاية العام ، وهو يوم كان له فى الأسكندرية خطره وقدره ، حيث يجتمع نائب الخديو والوزراء والعظماء والعلماء والطلاب ،

---

(١) مجلة الرسالة العدد ٦٧٢ ص ٥٤٤ .

ووقف الشيخ فى ٣١ أغسطس سنة ١٩٠٧ يلقى خطبة الاحتفال ، فلما فرغ مما يقال فى مثل هذا المقام اتجه إلى العلماء قائلا : (إن هذا الدين القويم الذى استضاء بنوره أبناء الإنسان منذ أربعة عشر قرنا ، لا تزال مزاياه الفاضلة محجوبة عن أعين كثير من الناس ، حتى من الذين اقتضت الإرادة الإلاهية أن يمتزجوا بأهله . وإن احتجاب هذه الفضائل الإسلامية عن العيون ، وأعراض كثير من المسلمين عن التمسك بها ، وتقاعد العلماء عن التنويه بشأنها والحث عليها ، سوغ لرجال نظروا إلى أحوال الأمم الإسلامية الحاضرة ولم يكلفوا أنفسهم مشقة البحث عن حقيقة فضائل الإسلام وآدابه أن ينسبوا إلى الإسلام عيوب هذا العصر ، وأن يعلنوا فى مشارق الأرض ومغاربها « أن التعاليم الإسلامية هى التى وقفت تقدم البلدان التى دان أهلها بدين الإسلام ») [1] .

واستمر الشيخ يعرض أقوال المهاجمين ويرد عليها قولا قولا حتى شفى أنفس المسلمين مما تجد من ذلك التعرض المهين .

واستن الشيخ فى الأسكندرية سنة لتوزيع الجوائز العلمية على الطلاب الناجحين جميعا ، وكان يوزعها عليهم نائب الخديو أو رئيس مجلس النظار تشجيعا لهم ، وكانت الجوائز كتبا ، حتى تكون بطالب العلم أليق وله أجدى وأنفع . وروعى فى انتقائها وجه المنفعـــة لهم فى دينهم ولغتهم وتاريخهم وأدبهم . مثل كتب « ديوان الحماسة » و « مقدمة ابن خلدون » و « نهج البلاغة » و « تاريخ أبى الفداء » و « المثل السائر لابن الأثير » و « فقه اللغة للثعالبى » و « ديوان المتنبى » وهى كما ترى من أمهات الكتب العربية .

(١) التقرير الرابع عن أعمال مشيخة علماء الاسكندرية . مطبعة الملاجىء العباسية ص ٢٠ .

وكانت صلات الشيخ مع كرام الرجال المفكرين تعطفهم على الطلاب بهدايا الكتب ، فقد أهدى محمد طلعت حرب بك « باشا فيما بعد » مائة نسخة من كتابه « تاريخ دول العرب والإسلام » كما أهدى محمود بك أبو النصر المحامى تسعين نسخة من كتاب « إرشاد القاصد لابن ساعد الأنصارى » .

ولقد كان لطبيعة النظام والتنظيم فى عقلية الشيخ شا كرأثرها فى النهوض بمعهد الأسكندرية فى وقت قصير . فألف طلاب المعهد النظام وتعودوه ، وتعود شيوخ المعهد ضبط المواعيد والمواظبة على إلقاء الدروس [١] وتنظيم ساعات العمل والتقيد بمنهج مرسوم وبرنامج محتوم ، واختار الشيخ أربعة من علماء الجامع الأزهر ليكونوا عونا له فى الأسكندرية وهم : الشيخ عبد الله دراز ، والشيخ عبدالمجيد الشاذلى ، والشيخ عبدالهادى مخلوف والشيخ إبراهيم الجبالى الذى كان شيخاً لكلية اللغة العربية إلى عهد غير بعيد .

وظل الشيخ فى المشيخة ، كما كان فى القضاء ، محتفظا بكرامته معتدا بشخصيته واثقا بنفسه فى غير تنطع ولا كبرياء . وكان يشيع تلك الخلال فى طلابه وفى العلماء . حتى لقد كان طالب العلم فى الأسكندرية يعتز بانتمائه إلى المعهد الأسكندرى وإلى طائفة العلماء .

ومما يروى عنه فى هذا الباب أن أحد مدرسى المعهد دعى من أحد أقسام المدينة ليؤدى شهادة ، ولم يصل « الاستدعاء » إلى المدرس عن طريق المشيخة . ولكن وصل عن طريق مأمور القسم ، فغضب الشيخ وصمم أن لايذهب المدرس حتى يصحح الوضع ، وجرت بعد ذلك الأمور على ماأراده الشيخ الكبير .

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام تأليف السيد رشيد رضا جـ ١ ص ٤٧١ .

وأراد أحد وجهاء الإسكندرية وأبو وجوهها اليوم أن يدفع زكاة ماله لفقراء طلبة المعهد الأسكندرى ، فثار الشيخ على الوجيه ثورة علمته كيف تكون الكرامة والأباء فى نفوس العلماء

انتقل الشيخ بعد ذلك وكيلا للجامع الأزهر فى ٢٩ أبريل سنة ١٩٠٩ وفى عهد وكالته صدر قانون النظام فى الأزهر سنة ١٩١١ ، وبمقتضاه قسمت الدراسة إلى مراحل ، لكل منها نظام ومواد خاصة . وعهد للشيخ شاكر بتطبيق القانون الجديد فأنشىء القسم الأول ، وعين شيخا له مع بقائه وكيلا للجامع الأزهر ، وظل فى الوكالة كما كان فى مشيخة الاسكندرية شعلة لاتخمد وحركة لاتسكن . وقام برحلة إلى الصعيد يزور فيها مدنه وكثيراً من قراه ، ليقف على أحوال الدراسات الدينية فى مساجده تمهيداً لإنشاء معاهد علمية فيه .

وفى وكالة الأزهر تنتهى حياة الشيخ شاكر الحكومية ، ليصبح عضواً معينا فى الجمعية التشريعية التى أنشئت سنة ١٩١٣ ، وهى عضوية لا يجمع بينها وبين العمل الحكومى ، ومن هنا يبـدأ نضال الشيخ فى الدفاع عن الإسلام . وكان يهدف فى نضاله إلى أن يكون المسلمون أمة واحدة وعصبة متحدة ، نأيا بهم عن مذهب القوميات الذى رآه رحمه الله بدعة لتفريق الكلمة وتقطيع الأوصال . وهى امتداد لفكرة الجامعة الاسلامية التى نادى بها السيد جمال الدين الأفغانى فى القرن التاسع عشر .

وقد أعدته هذه العضوية ليكون سياسيا من الطراز الأول ، فلما جاءت ثورة سنة ١٩١٩ وكان ما كان من حوادث الإضراب والاعتقال والنفى والمفاوضات والمحادثات والانشقاق والأحزاب ، رأينا الشيخ يجول فى ميدان السياسة ويصول ، حتى فسحت له جريدة المقطم صدرها ، وخصصت مقالاته

بالمقام الأول من عنايتها ، فإذا مالت دواعي الهوى ، واختلط القائم بالقاعد والصحيح بالفاسد ، رأيت الشيخ واقفا للأحداث بمرصد ، وللرجال بمشهد . ينتقد آراءهم وينصف مصيبهم ويرد مخطئهم ، ولا يجامل فى ذلك أحداً ، ولا يحابى عظيما ، ولا يخشى سلطانا . ولكن الرجال عنده أمام الحق سواء .

وتمتاز مقالات الشيخ السياسية بالصدق فيها والإخلاص فى بواعثها ، كما تمتاز بقوة جدلية لم تتح لكثير من السياسيين فى عهده . ومن عجب أن شيخا أزهريا لم يدرس القانون ، ولم يتعلم علم الدساتير ولم يعرف لغة أجنبية كان يجيد المناقشات الدستورية والمجادلات القانونية ، كأعلم العلماء بالقوانين . ولقد أعانه على ذلك نظرة فقهية وذكاء فى الرأى ، وحسن فى العرض وقوة فى البيان .

ولو أن مؤرخا أديبا هم أن يؤرخ للأساليب العربية فى القرن العشرين ما أغفل من حسابه أسلوب الشيخ محمد شاكر من الكاتبين ، فقد كان عنده من وسائل البسط والشرح للقضية التى يعرضها ما يجعلها سريعة إلى الفهم لاصقة بالقلب ، حتى لقد كان المسلمون فى كل قطر عربى يتلقفون مقالاته بشوق عظيم ، ومما قاله فى ذلك حاج حسين الحاج علاوى ببغداد : (فحينما يصل المقطم فى البريد نفتح أعداده بلهفة شديدة ونتصفح مقالاته ، لعلنا نجد مقالة لحضرة الشيخ مذيلة بإمضائه ، فإذا وجدنا ذلك عددنا ذلك اليوم من أسعد أيامنا) !

ولقد كسبت السياسة الشيخ محمد شاكر ، وما كان هو منها كاسبا ولا فيها طامعا ، ولو شاء أن يجعلها تجارة تغل ، لا واجبا وطنيا يؤدى ، لخرج منها بالربح العظيم . ولكنه كان زاهداً فى الغنى مع اجتماع أسبابه له ، ولقد بلغ من زهده فيما يطمع فيه الرؤساء أنه كان يضع بنفسه ميزانية مشيخة الأزهر

وكان يضع أمام اسم كل عالم من العلماء والموظفين ما يستحقه صاحبه من العلاوات وغيرها ، إلا اسمه هو ، فكان يكتب أمامه : «لا يستحق شيئا» .

وليست هذه تقية الخائف من قلم المراجعة أو « ديوان المحاسبة » لو كان فى ذلك الزمان مثل هذا الديوان . . . ولكنها تقية المؤمن فى الأمانة يحملها ، فقد كان مكلفاً أن يضع لصرف الميزانية قاعدة منظمة حسبما يراه مفيداً للعلم والتعليم .

لقد شغلت السياسة والمقالة الشيخ محمد شاكر عن التأليف ، ولو قد تفرغ له وعكف عليه لكان له فى ذلك الميدان شان أى شأن .

وعجيب جداً أن هذه الشخصية الأزهرية الكبيرة تتمخض عن ثلاثة كتب صغيرة : — هى الايضاح [1] فى المنطق ، والدروس الأولية [2] فى العقائد الدينية ، والقول الفصل [3] فى ترجمة القرآن الكريم .

ولكن الشيخ نفسه — طيب الله ثراه — كان كتابا حاريا لفنون من الإبداع ، وحديثاً حسناً لكل واع .

---

(١) مطبعة النهضة ، القاهرة سنة ١٩٢٦ .

(٢) المطبعة المصرية بإسكندرية سنة ١٩٠٨ .

(٣) مطبعة النهضة القاهرة سنة ١٩٢٥ .

الدكتور إسماعيل أدهم

وأسلوبه فى كتبه ومباحثه

كان المرحوم إسماعيل أدهم شخصية فى الأدب النقدى الحديث ، تستحق الدراسة من نواح متعددة . وإذا كان عرف عنه دائماً زيغ فى العقيدة ، أو تعصب للترك على العرب والإسلام فقد عرف عنه بجانب ذلك كثير من دقة البحث واستقصاء الدرس واستكمال عدة النقد اللازمة للناقد الحديث . وامتازت كتاباته ومباحثه الواسعة المنتشرة هنا وهناك بطريقة جرى عليها علماء المشرقيات فى مباحثهم ، وهى طريقة غير هينة ولا معبدة لأنها تستلزم صبراً كثيرا وربطا محكما لكل ما يقرأ وإدراكا واسعاً يستطيع به صاحبه الحكم فى صحة ، غير جانح إلى خطأ ، أو مائل إلى انحراف عن الجادة .

ولقد أثار موت أدهم — بالطريقة التى اختارها — أموراً كثيرة ، تعرض فيها كثير من الناس لأمور ما كان يليق التعرض لها ، لأنها تمس شخصه هو ، وتلمس جزءاً خصوصيا من حياته ، وكان الأولى بهم لو وقفوا أمام أدبه وتراثه الفكرى فاستعرضوه وبحثوه وأشبعوه درسا وتناولوه تناول الناقد — فى رفق أو فى غير رفق — لأنه تراث لم يعد من مَلك إسماعيل أدهم ، بل عاد من ملك الزمن ومن حق التاريخ .

ولا نعرض هنا لما قيل فى أدهم وما قيل عنه ، فليس ذلك وارداً على بحثنا اليوم ولا داخلا فيه . ولا شك أن المغامز التى أثيرت حوله ستمضى

وسيبقى الكلام فى عقيدته مسألة حسابها بينه وبين ربه .

* * *

والكلام عن أدهم فى أى ناحية من نواحيه قد يكون شائكا ، وقد يكون دقيقاً ، وقد يكون فيه غير قليل من الحرج ، فليس من أسهل المواقف — فى بيئة شرقية محافظة — أن يطيب الكلام عن أدهم المعروف بنزعاته الحرة غير المبالية بتقليد أو سنة [١]

وليس من أهون المواقف أن يكتب عربى عن شاب تركى الأب ألمانى الأم أو صقليها ؛ كان يرى ويؤمن باحتقار الترك للعرب [٢]

وليس من أحب المواقف إلى النفس أن يكتب كاتب يريد الإنصاف عن أديب تعددت فيه مذاهب الرأى ، وأحيط علمه وعرفانه الألمانية والروسية وقيم شهاداته العلمية بكثير من الشك [٣]

نعم ، ليس الكلام عن أدهم سهلا ولا ليناً ، ولاسيما يرتاح إليه بعض الناس ممن يرون رأياً خاصاً ويذهبون فى الحكم عليه مذهباً معيناً

على أن الناقد لايتقيد بما يتقيد به سائر الناس ، ولا يخضع نفسه لعاطفة ثائرة قد يكون لها أثر يسىء فى الحكم على المنقود . فلقد كان فى أبى العلاء المعرى شك وسخرية وجرأة على الأديان ، إلا أن ذلك لايمنع من وضعه فى المنزل الخليق به فى أدب العرب . أما المتزمتون الذين يتحرجون حتى من حفظ شعر لأبى العلاء لرميه بالزندقة ، فأولئك قوم لا نكتب لهم ، ولا نود أن يقع حديثنا فى أيديهم . . . . .

---

(١) انظر (لماذا أنا ملحد) لإسماعيل أدهم

(٢) انظر (الزهاوى الشاعر) له ص ١٧ .

(٣) راجع أعداد الرسالة من يوم وفاة أدهم ١٩٤٢ إلى اليوم .

على أن أدهم — كما قلنا — قدمات وراح فى الطريق الذى نروح ونغدو له فى الحياة . . . وراح معه شكه وإلحاده ليلق بهما وجه الله الذى سيرى عنده اليقين ؛ فمن السخف أن نغضب ونسخط على أدهم ، لأن الله لم يهده كما هدى غيره . ومن الرحمة أن نرثى لأدهم بسبب هذه الحيرة السوداء التى سودت عليه آفاق الطريق وقد يكون من المفيد أن يتفضل أحد الباحثين بمعالجة هذا الموضوع — موضوع إلحاد أدهم — والكشف عن بواعثه والظروف التى هيأت له ، مستعيناً فى ذلك بما كتبه هو عن نفسه فى كتابه « لماذا أنا ملحد ؟ »

° ° °

يجد المتتبع لأسلوب أدهم أنه لم يسلم من وقوع الأخطاء النحوية فيه . وكان أصحاب الصحف والمجلات التى ينشر فيها يعانون كثيراً فى سبيل إصلاح هذه الأخطاء وردها إلى وجه الصحة . على أن أدهم فى مباحثه الأخيرة قلت عنده هذه الأخطاء ولكنها لم تنعدم انعداماً تاماً

وكان خصوم أدهم يجدون فى هذه المآخذ وفى غيرها فرصة للتعريف بقيمة مايكتبه . على أن ذلك عند المنصف لايحط من القيمة العلمية لمباحثه

وضعف إسماعيل أدهم فى قواعد العربية من السهل رده إلى نشأته فى بيت غريب عن العربية . وكان للسنوات التى قضاها فى تركيا كما نعرف — وفى روسيا كما يقال — أثر فى زيادة هذا الضعف . إلا أنه بدأ منذ النصف الأول من عام سنة ١٩٤٠ يفطن إلى أخطائه . ولعله اكتسب ذلك من نشر مقالاته مصححة من قلم التحرير فلم يقع خطأ فى مقالاته المقبلة

وكان بجانب ذلك لايحرص على استعمال الألفاظ العربية ، بل كان

يعدل عنها إلى الألفاظ الدخيلة أو غير الصحيحة ، أو الألفاظ الأفرنجية نفسها مكتوبة بحروف عربية

وقد لاحظت عليه كثرة استعماله للفظة «رومانتيكية» بدلا من «ابتداعية» ويقول عن ترجمة البستانى للألياذة إنها « ملحمة شعرية زحمة بميثولوجيتها » بدلا من أساطيرها ، وأكثر ما تلاحظ عليه هذه الطريقة فى الكتابات الأولى التى كتبها بين سنتى ١٩٣٥ ، ١٩٣٨ . وكتابه الموسوم « الزهاوى الشاعر » مشحون بأمثال هذه الألفاظ الأفرنجية المنبثة فى خلال كتاباته العربية

إلا أنه فى السنتين الأخيرتين قبل وفاته عدل عن هذه الطريقة إلى الطريقة الأخرى المعقولة ، وهى ذكر الكلمة العربية الأصلية مع ذكر ما يقابلها فى الإنجليزية والفرنسية بين قوسين بحروف لاتينية . وهذه الطريقة تظهر بشكل واضح فى أبحاثه العميقة عن شاعر الأقطار العربية خليل مطران ، التى نشرت تباعاً فى مجلة (المقتطف) فى عام ١٩٣٩ وبعض شهور من عام ١٩٤٠ . وعلى سبيل التمثيل نذكر ما يأتى : يقول فى أحد هذه المباحث [١] : « إن الخيال الشعرى عند مطران إضافى « Relative » . ويقول أيضاً فى الصفحة نفسها : « وهذه أشياء يمكنك أن تخلص بها كقاعدة Regle من إمعانك فى مطالعة شعر ديوان الخليل » . ويقول فى موضع آخر [٢] : وهى عناصر العاطفة Emotion والخيال والفكرة » . ويقول فى موضع آخر عن صناعة مطران الفنية [٣] : « فإن الكمال Perfection فى الشعر يقوم على أساس الاتزان بين الروح الشعرية والتعبير الشعرى من جهة من جهاته » .

---

(١) ص ١٣٢ من الكتاب .
(٢) ص ١٣٨ من الكتاب نفسه .
(٣) ص ١٦٨ من الكتاب نفسه .

وهكذا تجد الأمثلة كثيرة على ميله أخيراً إلى استعمال اللفظ العربي والعدول به عن اللفظ الأفرنجي الذي كان يشيع في أوليات مقالاته .
وقد لا أكون مخطئا في الظن أن السر في هذا العدول هو كثرة ماتعرض له من النقد من ناحية — فقد كانت طريقة حشد الألفاظ الإفرنجية على اللغة العربية لا ترضى كثيراً من القراء — ومن ناحيـة أخرى أراد أن يظهر لبعض الغامزين عليه تمكنه من اللغتين الفرنسية والإنجليزية .

وبالرغم من ذلك كله فإن أسلوب إسماعيل أدهم يتميز من غيره من الباحثين المعاصرين بطابع خاص انفرد به وحده ، وهذا الطابع تظهر فيه شخصية أدهم ظهوراً مستقلا .

وقد بلغ من استقلال هذه الشخصية الأسلوبية وتفردها أنها كانت تنم عن صاحبها حتى ولو لم يعرف القارىء اسم كاتب المقال . وهو في ذلك يمتاز من كثير من الباحثين أو الكاتبين المعاصرين الذين يكادون يذوبون في غيرهم كما يذوب الثلج في الوهج . . وهذه الميزة الفريدة لأدهم هي التي أعطته مكاناً طيباً في عالم النقد ، فقد كان ينظر إليه نظرة اعتبار من صاحب « الحديث » في حلب ، وأصحاب « المقتطف » في مصر ، وصاحب « الرسالة » الذي فسح له صدرها غير عابىء بما كان ينسج حول أدهم وما يحاك له .

على أن هذه الشخصية الأسلوبية لأدهم لا تعني أنها استقلت بمقومات أو حسنات فقط ، فقد كان فيها بعض العيب — وسبحان الكامل — نعم كان فيها شيء من لكنة الأعاجم . إلا أنه لحسن الحظ أن هـذه اللكنة الموروثة فيه لم تفسد معاني كتابته ، وإن كانت تضيع من عربيتها .

ويظهر أنه كان فقير المادة اللغوية العربية . وهو معذور في ذلك كل

العذر لحجمته اولا ولصغر سنه ثانياً . فلم يتح له عمره القصير أن يحيط بثروة لغوية واسعة ، وإن كنا نلاحظ عليه ازدياد محصوله اللغوى من عام إلى عام .

ويؤيد ما نقول أنه كان له كثير من الألفاظ والتعبيرات والتراكيب الخاصة به يديرها فى كل مبحث من مباحثه ، ويكررها فى كل كتاب من كتبه وقد ينسى فيكررها فى الصفحة أو الصفحتين المتقاربتين ثلاث مرات أو أكثر ، ولسنا نلقى الكلام هنا من غير دليل ، فهو يقول فى أحد كتبه[1] « تقطعت نتيجة له أوصال عقليته التقليدية » ويقول فى الصفحة المقابلة من الكتاب نفسه « تقطعت أوصال عقليته التقليدية تحت محراث العلم والثقافة الغربية » ويقول فى صفحة ١٨ من الكتاب نفسه « فتقطعت عند الكثيرين من أبناء الشرق العربى أوصال العقلية القديمة » .

وقد تكون العلة فى هذا التكرير الواضح فى كتابته ضعف محصول اللغة عنده كما أسلفت ، وقد يكون له سبب آخر غير ذلك . ولكن الذى لا شك فيه أن هذه الظاهرة فى أسلوبه تدل دلالة قاطعة على عدم مواتاة الفيض التعبيرى عند الكاتب .

ومن أساليبه الخاصة المتكررة عنده والغالبة فيما يكتب ما يأتى « تموج الإحساس . طغت موجة وسط هذه الموجات . استقوت على عجلة الزمن »

* * *

وفى كتابته فيض غزير من الألفاظ العلمية الخاصة التى تستعمل فى العلوم الطبيعية أو الرياضية ، ولا شأن لها مطلقاً بمباحث الأدب والنقد ،

---

(١) كتاب الزهاوى الشاعر ص ٢٢ .

وعلة ذلك أنه كان على العقل ، على الدراسة ، ثم اتخذ الاشتغال بالمباحث الأدبية غاية له بعد ذلك ، فانساب إلى كتابته الأدبية سيل عريض من ألفاظ كانت تشغل ذهنه فى علم الرياضة والطبيعة وغيرها .

ومقالاته وكتبه مملوءة بهذه الألفاظ ، ونذكر هنا على سبيل المثال بعضاً منها . فهو يقول فى كتابه عن مطران (ص ١٠٨) « لأن الأصل فى التعصب انطلاق الشحنات المفرغة من الأعصاب » .

ويقول فى الكتاب نفسه ص ١١٢ « وهذا الجو يفعل فعله فى النفوس فعل مجال مغناطيسى فى برادة الحديد » . ويذكر كثيراً « التعادل » « والتقبض » « والتمدد » « والطيوف » « وعالم الجزئيات » « والدقائق » « والذرات » ويسمى قوى الحب (جاذبية) .

أما التحقيق العلمى فى مباحثه واتباعه وسائل علماء المشرقيات فى بحوثهم ، واهتمامه بالمصادر وذكرها ، والتعويل عليها دائماً للاستشهاد ، فذلك كله معروف عن كتابته . وهى وسائل تحتاج بغير شك إلى كثير من المعاناة والصبر والزمن

وقد انتفع رحمه الله بكثير من الأبحاث التى كانت دائرة فى السنوات العشر الأخيرة فى الصحف العربية : « كالمقتطف » ، و « أبولو » ، و « الهلال » و « السياسة الأسبوعية » ، و « الرسالة » . وكان يرجع إلى هذه الأبحاث مستشهداً على ما عالجه هو نفسه من المباحث . ونظرة واحدة إلى هوامش مقالاته وكتبه تؤيد هذا الكلام .

لقد أصبح أدب أدهم الآن فى ذمة التاريخ ، فليكتب عنه المنصفون ليكشفوا النواحى الغامضة من أديب عاش عيشة الغموض ومات ميتة الغموض ، بعد أن ترك خلفه آثاراً جليلة جريئة فى عالم النقد الحديث .

فخرى أبو السعود

؟ — ١٩٤٠

فى يوم من أيام شهر نوفمبر سنة ١٩٤٠ ، والحرب العالمية الثانية مندلعة اللهيب فى عامها الثانى ، والطلاب والمدرسون مقبلون على العام الدراسى الجديد بنفوس تتهيأ للكفاح فى عهد جديد من حاضرها ، وأوراق الخريف تتساقط واحدة إثر أخرى استعدادا للشتاء الذى يعرى الأغصان من كسائها الأخضر ، وفى حديقة من حدائق دار أنيقة صغيرة فى رمل الإسكندرية ، أطلق شاعر ورجل من رجال التعليم رصاصة من مسدسه على رأسه ، فوقع على كرسيه الطويل فى حديقة الدار جثة لاحراك فيها .

وكانت هذه الموتة المفجعة التى اختارها الشاعر تحت أغصان الشجر العابثة بها رياح البحر فى الخريف ، مثاراً للحديث هنا وهناك .

وقدمت مجلة « الرسالة » نعى الفقيد فى هذه السطور :— (تنعى الرسالة إلى قرائها أديبا من صفوة أدباء الشباب هو الأستاذ فخرى أبو السعود ، الشاعر الكاتب ، والمترجم المعلم . برم رحمه الله بالحياة فى ساعة من ساعات الضيق الكاربة ، فأطلق على رأسه المسدس ، وهو جالس على كرسيه الطويل ، فى حديقة داره بالإسكندرية ؛ وقد كان يعيش وحده فى المدة الأخيرة ، لأن الحرب فصلت بينه وبين زوجته الإنجليزية وولده الوحيد ، وقد شاء القدر القاسى أن يغرق ولده مع السفينة التى كانت تحمل الأطفال الإنجليز

إلى كندا ، وأن تنقطع عنه اخبار زوجته ، ولعل فى هذه الحادثة الأليمة تفسيراً للدوافع الخفية التى دفعت هذا الشاب القوى الفتى إلى الانتحار ، وهو فى سن الثلاثين ، رحمه الله رحمة واسعة ، وعوض مصر عن أدبه وشبابه خير العوض) .

ونعته مجلة « الثقافة » فى الأسطر التالية : (تنعى لجنة التأليف وأسرة الثقافة أحد أبنائها الأعزاء الأستاذ فخرى أبو السعود ، فقد كان رحمه الله مثلا طيباً للجد والنشاط ووفرة الإنتاج وطيب الخلق ، طالما أمد اللجنة بعمله فى الترجمة والتأليف ، والثقافة بمقالاته القيمة ، رحمه الله ، وعوضنا عنه خيراً ، وألهمنا الصبر على فقده) .

وقد أثار انتحار الأستاذ فخرى أبو السعود ، وانتحار الدكتور إسماعيل أدهم قبله بشهرين موجة من التساؤل عن العلاقة بين الأدب والانتحار ، فقد كان هذان الأديبان الشابان من أكثر الأدباء المصريين إنتاجا وأوفرهم نشاطاً ، وكان لهما فى ميدان الأدب المقارن جولات معروفة ، وكان لهما من مرجو المستقبل ومرتقب الآمال ما جعل الخسارة الأدبية فيهما جسيمة .

وكان أقل الوفاء من الأدباء والشعراء للشاعر فخرى أن يتفضل كاتبان فاضلان فى « مجلة الرسالة » و « مجلة الثقافة » بالحديث عنه ، وعرض أدبه فى معرض أنيق ، والترجمة له فى إيجاز ، والاستشهاد بنماذج من شعره على الشاعرية الأصيلة الكامنة فيه . تلك الشاعرية التى زاد الفجيعة فيها أنها كانت فى الرياض زاهرة ، وما أصدق أبا تمام حين يقول :

إن الفجيعة فى الرياض نواضراً لأجل منها فى الرياض ذوابلا

ولقد زاملت الأستاذ فخرى أبو السعود فى انجلترا ، وفى مقاطعة من

أجمل مقاطعاتها اسمها « ديفونشير » ، وفى مدينة من أقدم مدنها اسمها « إكستر » على ضفتى نهر « إكس » القصير الجميل ؛ أيام كنا عضوين فى بعثة تعليمية لوزارة المعارف ؛ والناس يعرفون فى الغربة أكثر مما يعرفون فى أوطانهم ، لأن أخلاقهم تظهر على حقيقتها ، وطبائعهم تبدو على أصلها . فرأيت من أخلاق فخرى أبو السعود ذلك النوع الصلب الذى لا يتكسر على زمن . . ورأيت من نشاطه مالا يحد منه جو ولا وهن ؛ ورأيت فيه عزلة عن الناس ، وعزوفا عن الفضول من القول ، فما كان دائما إلا فيما عناه وهمه ، وعن غير ما يعنيه فهو بمعزل . . ورأيته وهو عضو فى بعثة للغة الإنجليزية يجيد الأدب العربى ، ويعرف من مصادره وموارده كثيرا مما لا يعرف من كان فى مثل ثقافته المدرسية . ورأيته يحفظ شعر «البارودى» حتى لا يكاد يند عنه منه بيت واحد ، ورأيته يعلم من تاريخ مصر الحديث ومن دقائقه الخفية بين مزدحم التيارات الأجنبية مالا يعلمه الكثيرون . . وعرفت مقدرته فى الإنجليزية ، وهى مقدرة شهد له بها أساتذته من الإنجليز وشهد له بها قبل ذلك تفوقه فى امتحان المسابقة الذى عقدته وزارة المعارف المصرية لاختيار عضوين فى بعثة اللغة الإنجليزية إلى جامعة إكستر .

تخرج فخرى أبو السعود فى مدرسة المعلمين العليا سنة ١٩٣١ ، واشتغل أياما بالصحافة ، ثم معلما بالتعليم الحر ، فلما نجح فى المسابقة سافر إلى انجلترة سنة ١٩٣٢ وعاد بعد عامين ، فاشتغل مدرسا بالعباسية الثانوية أولا ، وبالرمل الثانوية آخرا ؛ ولم يكن بين سفره إلى إكستر وبين مصرعه الأليم غير بضع سنوات ، ترجم فى خلالها كتاب «تس» لتوماس هاردى ؛ ونشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر فى عيون الأدب الغربى ؛ وأمد المجلات الأدبية

كالمقتطف والهلال والرسالة والثقافة بسيل من أبحاثه الجديدة ، ودراساته التوجيهية الأدبية ، وقصائده التى لفتت إليها أنظار القراء .

* * *

ولا شك أن قراء شعره — الذى لما يجمع بعد فى ديوان — قد قرأوه واستمتعوا بما فيه من لذة وجمال ، فهو شعر سائغ المعنى سائغ العبارة . وكل سائغ من المعانى والألفاظ يختلب الألباب ، ويجذب إليه القراء . ولا شك أن فخرى أبو السعود نظم الشعر وهو طالب بمدرسة المعلمين العليا ، ولا شك أن هذا الشعر كان ككل محاولة يتصدى لها من كشف فى قرارة نفسه عن موهبة شاعرية أودعها الله فيه .

فلم يكن شعره أول الأمر قويا ولا أخاذا ، ولم يكن حافلا بالمعانى التى تتكاثر بالقراءة وتتزاحم بالمطالعة ، وتزيدها التجارب فى الحياة والاختلاط بالناس ، والاندماج فى البيئات المختلفة والأوساط المتباينة .

ولكن الشاعر يولد ومعه معزفه . . فهو يعالجه بالنغم ، ويراوحه ويغاديه من حين إلى حين بالمحاولة حتى تتم له الأداة ، وتستوفى له الحدة ، فيدهش الناس بالمطرب من الأنغام ، والعلوى من الإلهام .

وهكذا كان فخرى أبو السعود — رحمه الله — فقد رزق المعزف ، ووهب الناى ، وأعطى القيثارة الخالدة لينقر عليها انفعال نفسه ، ورقة حسه ؛ وينقل على أوتارها تموجات مما يجيش فى صدره ويعتلج فى نفسه ؛ ويطبع عليها مرائى لحظه ، ومشاهد بصره . فينقلها فى أمانة ودقة ، وإحكام وضبط حتى لا تكاد تفلت من مرائيه شاردة ولا واردة .

وسبيل الشاعر إلى إجادة الشعر وإتقان التصوير فيه هو إحساسه وعينه

ولقد كان حظ فخرى منهما عظيما ، ولقد شاهدت ذلك منه رأى العين ، ونحن فى واد ضيق من وديان انجلترة الجنوبية الغربية ، تنبسط على جانبيه سهول فيها النجد وفيها الغور ، وفيها الهضاب وفيها المهاد ، وتلونها شيات شتى من ألوان أبدع الله تصويرها ، وأجمل تقديرها .

وفى هذه البقاع الجميلة كل الجمال ، الفاتنة كل الفتون ، كان يستريح فخرى من عناء الدرس ليسلم نفسه إلى الطبيعة المرحة حينا ، العابسة أحيانا ، لينتزع منها سرها ، ويستوحيها خبيئة نفسها ، ويصل إلى الأعماق منها . وهو لا يكتفى فيما يراه بالنظرة العاجلة ، أو اللمحة الخاطفة ، ولو كان كذلك ما رأينا فى شعره القصير العمر هذا النظر العميق ، وهذه الأفكار البعيدة ، والمعانى الذاهبة إلى أعماق بعيدة الغور .

وهو حين يصور الطبيعة أو يصف منظرا من مناظرها ، يوفى الوصف حقه ، ويعطى الصورة ثوبها الحقيق بما فيه من ألوان وظلال ، فيخيل إليك وأنت تقرأ شعره أنك تنظر إلى لوحة من صنع رسام ماهر ، ويخيل إليك — فى غير مبالغة — أنك تسمع الشجر إذا حف ، والغصن إذا التف ، والأقحوان إذا رف ، كما تسمع فى لوحات شعره الندى إذا تقاطر ، والطير إذا تناجى ، والبحر إذا تلاطم ، والركام إذا تصادم . . ويخيل إليك وهو يصف زهرة أنك تشم العطر إذا تأرج ، والياسمين إذا تنفس . .

وهل هناك صورة للياسمين أصدق وأجمل وأندى من الصورة التى حلاه فيها الشاعر فخرى أبو السعود بقوله :

ندى المحيا إذا الصبح لاح وقد طل ليلا وقد نضرا
كأن أزاهـــره بسمات يلاقى بها العـــين مستبشرا

ونعم السمير إذا الليل جن ولاحت بعيدا نجوم السرى
إذا بث فى الليل أنفاسه وعطر فى الجو ما عطرا
دعانى أن أقضى الليل طرا ثواء لديه . . وأن أسهرا

* * *

ثم يصف رقة الياسمين ، ووشك ذهابه ، وسرعة انفراطه ، فيقول :

وشيك الذهاب إذا نظمه تكامل أوشك أن ينثرا
أعد ضحاياه فى كل يوم وقوعا هوامد فوق الثرى

فأية صورة أرق من صورة الياسمين ، وهو متناثر على الأرض ، مبعثر العقد ، بعد أن كان يزين حوائط البستان ، وينضر جيدها فى عقد منتظم ، وشمل ملتئم ؟!

* * *

وللشاعر ، نخرى أبو السعود ، فى الجبال أبيات ستظل خالدة فى الشعر التصويرى العربى ، لأن قليلا فى أدبنا هم الذين صوروا الجبال ، أو حفلوا بأن يقفوا أمامها لحظات — طالت أم قصرت — ليستشعروا ضآلتهم بالنسبة إلى عظمتها ، ويحسوا أنهم أقزام ضئال وخلق صغير حقير . . بالنسبة إلى جسمها المارد ، وعلوها الباسق ، ويلتمسوا فى قننها المرتفعة ، وقممها المتقلدة من وشاح النجوم ، ارتفاع النفس عن صغائر الدنيا وسفاسف الحياة . . ويحاولوا أن يستلبوا منها سر الوجود ، واكتناه المصير الذى أعيا عليها . . فمضت السنون وهى بكم لا تبين ، وصم لا تسمع . .

اسمعه يقول فى الجبال الشواهق :

قامت سوامق فى الفضاء وفوقها من يانع الأدواح سام سامق

وتفردت فى وحدة . . فكأنها   لما تلاقت فى الخلاء أصادق
وكأنهن من الأنيس نوافر   أو من ضجيج الحاضرات أوابق

وفى قصيدة أخرى يصف الروابى المتسامية ، وقد حجبت الأفق وأشرفت على الكواكب ؛ فيقول :

قلل تسامت فى الجواء وحجبت   أفق السماء إلى الكواكب تومى
انى رفعت الطرف قصر شأوه   إشراف مرفوع السموت جسيم
وكأن خطوى فى دروب وعورها   نمل يدب على سراة أديم

ثم يصف وحدته فى تلك الروابى ، واستيحاشها منه — كأنها نافرة من الإنسان — وإنكارها هيئته :

وكأنما أنكرن ظاهر هيئتى   وكأنما قد راعهن قدومى
وأنا أغمغم بينهـا بقصيدة   عربية الألفـاظ والتنغيم . .

ويخلص من ذلك إلى حنينه إلى حرارة وطنه ووهج شمسه فى أبيات رقيقة .

ولقد زار الشاعر مرة حديقة الحيوان ، فأوحت إليه بقصيدة رائعة ، احسن فيها التصوير ، وأحسن التفلسف ، وكشف فيها عن معانى الرحمة والحب التى كانت تضرب بين أحناء نفسه . أما حسن تصويره فلأنه أخرج لنا فى القصيدة لوحة جامعة لحديقة الحيوان ، لا يستطيع رسام أن يأتى لنا بها مجموعة فى لوحة واحدة ؛ فهنا عرين الأسد ، وأسراب الطير الملون ، وأوكار الثعابين الرقش ، وجماعات الظباء . . قد تجاورت هذه الأعداء فى غير عداوة ، وألفت بينها مرارة السجن ووحشة الغربة . فيقول :

تجاورت الأعداء لاحرب بينها   وكف أذى ناب وشرة مخلب
وفل شبا ثاراتها وحقودها   على رغم طبع فى النفوس مركب
حوتها جميعا غربة لا ترى لها   إيابا إذا ما آب كل مغرب

أما تفلسفه أمام شريعة الحياة ، التى تسلط القوى على الضعيف حفظاً للحياة واتقاء للسغب فيظهر فى الأبيات الآتية من القصيدة نفسها :—

وكم من ضعيف آمن السرب وادع دهته دواهى الراصد المترقب
وكم من رضيع ليس بالدافع الأذى يفرق من أم حنون ومن أب
شرائع سنتها الحيـــاة لأهلها ومن عف عن تلك المآكل يسغب

* * *

وله قصيدة عنوانها السفينة ، أجاد فيها الوصف ، وأتقن الصورة ؛ وكان رقيقا جدا حين صور موقف الوداع والرحيل فى قوله :

يودعها بالشط حرى جوانح ويرقبها فى البعد أفئدة جذلى
فمن راحل بالشط غادر أهله إلى راكب قد يمم الصحب والأهلا
ولما قضوا حق العناق وكفكفوا غوارب دمع أو أزالوه فانهلا
وأرسل بالقبلات فى الجو مرسل ولوح بالمنـــديل آخر مخضلا
تهادت بأهليها تشق طريقها من اليم ، لم تنكل ولا استثقلت ثقلا ..

ثم يصف النار التى تدفعها ، وعقل الربان الذى يديرها بقوله :

يخوض بها فى بارد الماء جاحم من النار تصلى منه أحشاؤها مهلا
يدبرها فى رأس جؤجئها امرؤ خبير بأوضاع الطريق فما ضلا

***

وكان الشاعر فخرى أبو السعود على تزمته ووجومه أحيانا ، يتهلل للنكتة إذا سمعها ، فإذا أصابت منه موضعا أصبح لا يكاد يمسك نفسه من الضحك ، ولعل هذه العبوسة التى كانت كامنة فيه ، كانت تنفس عن نفسها أحيانا ببعض الشعر الفكاهى ، الذى كان يصور به من حين إلى حين مناظر مضحكة ، تثير ضحك الكثيرين منا . ومن صوره الفكهة الصادقة صورة فى

اعمى ينغم فى القرآن ويرجع الأنفاس به ، ويدير يديه على عارضيه . . .
وكلما زاده السامعون استحسانا ، زادهم من حركاته ونغماته ، ومط من عنقه
ورفع صوته ! ! ويقول فيها : —

فى حلقومه ناى رخيم	تخف النفس من طرب إليه
إذا مارجع الأنفاس فيه	وقد دارت يداه بعارضيه
سما بك صوته صعدا ، وألقى	إليه الحفل طرا مسمعيه
إذا زادوه مدحا زاد زهوا	وهز من التخايل منكبيه
ومال ترنحا يمنى ويسرى	وصعر فى التنغم أخدعيه

***

لقد كان نخرى أبو السعود شاعرا حسن التصوير ، زاهى الألوان ،
وصف الطبيعة ووقف قلمه عليها فأبدع الأداء وأحسن الوصف . ومن
الغريب أنك لا تعثر فى شعره المبعثر هنا وهناك إلا على القليل جدا
— بل النادر — من الشعر الغزلى . أما المديح فقد حاوله مرة — أو مرتين
على الأصح — فى جريدة الأهرام ، ولكنه سكت عنه بعد ذلك سكوتاتاما ،
كما يسكت اليوم سكتته الأبدية فى مغفرة الله ورضوانه العظيم .

محمد إسعاف النشاشيبي

قضى محمد إسعاف النشاشيبي يوم الخميس ٢٢ يناير سـنة ١٩٤٨ — ١١ ربيع الأول سنة ١٣٦٧ وحيدا فى أحد مستشفيات القاهرة التى كان يحبها حبا جما ، والتى كان يفد إليها كل عام من فلسطين ، فترتقب ندوات الأدب والعلم مجلسه ، حيث يكون الصدر فيه محدثا وراويا ، كأنما وعى تاريخ هذه الأمة العربية كله فى صدره يرويه كأنه يقرأ عن كتاب ، ويقصه كأنه يتلوه من صحيفة . فقد خصه الله بذاكرة قوية وحافظة لم تنل منها الشيخوخة إلا قليلا .

وكانت زيارة النشاشيبي للقاهرة هذا الشتاء هى آخر زياراته ، فهل كان يعلم وهو يودع فلسطين المجاهدة فى سبيل ربها وحقها وأرضها أنه وداع لغير عودة ، وأنها رحلة لغير رجعة . وأنه تركها والبأس يغلى فيها ، لا هربا من الجهاد إذا دعا داعيه ، ولا استسلاما للنجاة ، ولكنه تركها مستشفيا بطب مصر الآسية ، ومستمتعاً بسماء مصر الدافئة الضاحية . ولكن الطب خانه هذه المرة فلحوناه :

والناس يلحون الطبيب وإنما خطأ الطبيب إصابة الأقدار

كان مجلس النشاشيبي فى ندوة فندق « الكونتننتال » مجلساً يملأ السمع

والبصر والفؤاد ، ولو أن الرجل فى ذاته كان ضئيلا فى جسمه نحيلا فى شكله . ولكنه كان يفرع الرجال الطوال بعوارفه ومعارفه ، كأنما كان الشاعر العربى يتحدث بلسانه فى قوله .

إذا كنت فى القوم الطوال علوتهم   بعارفة . . حتى يقال طويل

ولا أذكر أنى تخلفت عن مجلس النشاشيبى فى « الكونتننتال » فى السنوات الأخيرة إلا قليلا ، مما ألحت به ضرورات لم أستطع لها دفعا . وكان أحب إلى نفسى أن أبتدر مكانى فى الندوة حيث تتحلق الحلقة وتتسع الدائرة ، ويأتى زائر آخر يتفسح بكرسيه فى المجلس فينفسح له ، ثم نأخذ بأطراف الأحاديث بيننا ، كل على قدر ما وهب الله له من موهبة الكلام ، فإذا النشاشيبى يوجه الحديث فى المجلس ويديره ، وإذا به يصل الحديث بالقديم والحاضر بالماضى ، وإذا هذا الرجل الضئيل المنزوى يتحرك كأنما مسته شحنة من كهرباء . . . فتشيع الكهربائية فى عينه اللامعة ، وفى صوته الجهورى ، وفى إلقائه الذى يهتز فيه ويضطرب ويقوم ويقعد ، كأنما يريد أن يجسم المعانى بهذه الحركات الانفعالية التى لم أشهد لها ضريبا فيمن سمعت من الخطباء .

على أن هذه الجوانب الشخصية من إسعاف النشاشيبى ليست غرضاً لى فى هذا المقال ، فعند كل أديب اتصل به سيل منها لا ينقطع . وهى جوانب لم يفتقدها إلا الذين دانوه وأحسوا أنهم ودعوها إلى يوم النشور . . وما تعطلت دورة الأرض ، ولا تعوق مسير الحياة ، ولا خسف القمر لموت مخلوق . . حتى الأنبياء على جلال رسالاتهم . فالحياة ماضية ، وهذه ندوتنا تنعقد كما هى ، فإن الناس لا يموتون لموت واحد من البشر . . ولكنها

عطلت من النشاشيبي وأصبحت منه خلاء . ونحن من السابقين على الأثر .
فلم يبق إلا الجانب العام من حياة الرجال ، وهو أبقى على الأجيال .

* * *

لقد أسهم النشاشيبي في المكتبة العربية ببضعة من الكتب ، تمتاز جميعها إلا كتابه «الإسلام الصحيح» بصغر أحجامها وعظم أقدارها . وكلها تدور حول الفكرة العربية التي ملكت على الرجل منافذ حسه . والعربية عند النشاشيبي تتمثل في اثنين : لغة العرب ورجال العرب . فأينما قلبت كتبه فلن تجد فيها غير «عربي» يشيد به النشاشيبي ، ويرفعه إلى مراتب الخلود ، وغير لغة يهون على النشاشيبي أن يموت قبل أن يشهد يوم مماتها . وحسبك أن تستعرض كتبه — أو تقرأ عناوينها على الأقل — لتعرف مبلغ صدق هذه النظرية . فمن كتبه : — «كلمة في اللغة العربية» و «قلب عربي وعقل أوربي» و «العربية وشاعرها الأكبر» و «واللغة العربية والأستاذ الريحاني» و «العربية في المدرسة» . ومن كتبه في أبطال العربية والإسلام : — «البطل الخالد صلاح الدين والشاعر الخالد أحمد شوقي» و «العربية وشاعرها الأكبر أحمد شوقي» و «مقام إبراهيم» يقصد به البطل العربي المجاهد : إبراهيم هنانو .

لقد حصل النشاشيبي في العربية ملكة سليمة قوية لم تأته عفواً ولم تهبط إليه اعتباطا . ولكنه نالها بعد الكد والجد ، والقراءة والحفظ ، والبصيرة والفهم ؛ ويقول في ذلك بعبارته اللطيفة : و (إني لا أدري كيف يبغون أن يبلغ الفتى ويفصح ، ويبذ الأقران ويبرع ، ويبطش في العلم بأرحب باع ، ويحل منه في القبل اليفاع ، وهو لم يدأب ولم يشق ، ولم يطل وقوفه في

الشمس ليطول وقوفه فى الظل ، ومن الذى أنبأهم أن الإجادة فى المقال قريبة المنال) [1].

وأكاد أجزم أن غرض النشاشيبى من كتابه «كلمة فى اللغة العربية» هو حث الأدباء على السهر فى التحصيل ، وحض الشباب على الدأب فى قراءة التراث العربى ، حتى لا يجىء آخر الزمان أديب مفتون أو شاعر مجنون أو كاتب ضعيف ، فيزعم لنفسه أدبا أو شعرا ، وهو معطل الأداة قليل المحصول عديم المعرفة بالأصول . ويظن المسكين أن المكانة الأدبية تنال بألفاظ تسود بها الصفحات .

وإذا كانت العربية صعبة كما يشهد الذين نفذوا إلى أعماقها من أبنائها ، فإن النشاشيبى كان يرى (أن الصعوبات فى اللغات دليل خير ودليل سمو) [2] ومن أجل هذا سهر من أجل العربية . وعنى نفسه بها طول حياته ، ونبش — تقريباً — كل كتبها ؛ حتى لم يكن يند عنه كتاب أو يشذ عن محصوله بيت من الشعر ، أو طرفة من الحديث أو حادثة من التاريخ .

ولا أدل على عناء النشاشيبى فى سبيل العربية وتعبه فى تحصيلها، من أنه لم يكد يفلت من يديه كتاب من كتبها إلا قرأه وحفظ منه وروى عنه . ولقد بدا ذلك جليا فى مجموعة «نقل الأديب» التى كان ينشرها فى مجلة «الرسالة» على فترات تتقارب حينا وتتباعد حينا آخر ، حتى بلغ مجموع ما نشر منها إلى عدد ١٩ يناير سنة ١٩٤٨ (٩٦٩) نادرة ؛ جمعها على طول العمر كله واختارها من بين مئات من الكتب من امثال «عيون الأخبار»

---

(١) «كلمة فى اللغة العربية» صفحة ٢٢ . مطبعة بيت المقدس .

(٢) المصدر السابق ص ٢٣ .

و « الحيوان » وشرح نهج البلاغة » و « معجم البلدان » و « خاص الخاص » و « اليتيمة » و « تاريخ الطبرى » و « نزهة الألباء فى طبقـات الأدباء » و « الأغانى » و « سيرة ابن هشام » و « البيان والتبين » و « نهاية الأرب » و « محاضرات الأدباء » و « النجوم الزاهرة » و « الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب » و « تاريخ بغداد » « وعيون الأنباء فى طبقات الأطباء » و « ثمار القلوب فى المضـاف والمنسوب » و « نفح الطيب » و « بدائع البدائه » و « الكنايات » و « وفيات الأعيان » و « الروضتين » و « الضوء اللامع »

ولا يظنن ظان أن هذا الاختيار الحـافل من تراث زاخر بالأخبار والنوادر والطرائف مطلب يسير أو عمل هين ، ولكنه شيء يدل على ذوق مختاره أولا ، وعلى أهدافه ومراميه ثانياً ، وعلى مدى نيته من الانتفاع به ثالثاً ؛ ولعلها حيرة أية حيرة أن تقف فى روضـة مزهرة لتختار أطيب مافيها شكلا ولوناً وعرفاً . . وقديماً عبر الشاعر عن مثل هذه الحيرة بقوله :

تحير فى الرياض فليس يدرى أيجنى الروض أم يجنى الأقاحا

* * *

ولكن النشاشيبي وقف فى روضة الأدب العربى والتاريخ العربى الحافل بأمجاده وحكاياته .. فلم يتحير فى الرياض ، ولكن هدته بصيرة عربية وفطرة عربية وهمة عربية إلى أن يقطف أطيب ما فى الرياض ؛ وهو فى ذلك ليس متزمتاً ولا متوقراً ، ولكنه قد يخلع التوقر أحياناً فيروى أطيب الفكاهات وألذ شعر المتاع ، حتى ليسأل سائل كيف يروى النشاشيبي فى « نقله » قول سعيد بن حميد :

تمتع من الدنيـــا فإنك فانى وإنك فى أيدى الحوادث عانى

ولا يأتين يوم عليك وليلة   فتخلو من شرب وعزف قيان
فإني رأيت الدهر يلعب بالفتى   وينقله حالين تختلفان
فأما التي تمضي فأحـــلام نائم   وأما التي تبقى لها فأماني [١]

وحتى ليسأل سائل آخر كيف يروى النشاشيبي « في نقله » قول حنين ابن إسحاق « انه اتفق له هذه اللفظة الوجيزة الشريفة البديعة التي لم أسمع للبلغاء مثلها في الجمع بين التجنيس والطباق والترصيع مع حسن المعنى وجودته وصحته وهي : — قليل الراح صديق الروح وكثيره عدو الجسم »[٢]

نعم ! كان لأسعاف النشاشيبي مثل هذه الروايات في « نقله » وكثيراً ما كنت أعدها عليه . . ولكنه نشر كثيراً من فضائل النفس العربية حتى خيل إلى أنه كان يتحدى بها نفوس الناس جميعاً من غير العرب . وكأنه كان يتعمد ذلك تعمداً في « نقله » ولا أدل على ذلك من هذه الملحة التالية : —

تذكروا يوماً بحضرة محمد بن إسماعيل من ملوك بني نصر في الأندلس معنى قول المتنبي :

أيا خدد الله ورد الخـــدود   وقد قدود الحسان القدود

وقول امرىء القيس :

وإن تك قد ساءتك مني خليقة   فسلي ثيابي من ثيابك تنسل

وقول إبراهيم بن سهل الإسرائيلي :

إني له من دمي المسفوك معتذر   أقول حملتـــه من سفكه تعباً

فقال بديها على حداثته : — (بينهم ما بين نفس ملك عربي، وشاعر عربي

---

(٣) نقل الأديب : مجلة الرسالة العدد ٧١٨ ص ٣٩٩ .
(٤) مجلة الرسالة ص ٣٠٢ عدد ٧١١ .

ونفس يهودى تحت الذمة . . وإنما تنفس النفوس بقدر همها) [١]

وهذه الموازنة الخلقية بين فضيلة النفس العربية والنفس اليهودية كانت تظهر فى النقل من حين إلى حين .! فقد نشر فى الرسالة سنة ١٩٤٦ عدد ٦٦٧ بعنوان « وأبناء اليهود » هذه الطرفة التالية : — (قال الصفدى : كان أبو البركات بن ملكا يهودياً وأسلم ، وكان كثيراً ما يلعن اليهود ، قال مرة بحضور ابن التلميذ : لعن الله اليهود . فقال : نعم وأبنـــاء اليهود، فوجم أبو البركات لذلك وعرف أنه عناه . .)

* * *

أما تعصب النشاشيبى للعربية لغـة وجنساً فقد كان يبين دائماً من كلماته وخطبه ومقالاته، فقد كتب كلمة فى مجلة الرسالة عن « اللغة العامية والحروف اللاتينية» بأمضاء « السهمى» [٢] حمل فيها حملة من نار على الدعاة للحروف اللاتينية ، ولم يكن فى هذه الحملة النارية غير زائد على كلام قديم للشيخ إبراهيم اليازجى فى مجلة « الضياء » .

وقد بانت هذه الروح قوية فى الكلمة التى عنوانها « لبنان والعربية » التى كتبها بمناسبة إنعام رئيس جمهورية لبنان عليه بوسام الاستحقاق المذهب حيث قال : (وإنا أمم اللسان الضادى لعرب ، وإن لغتنا هى العربية ، وهى الإرث الذى ورثناه ، وإنا لحقيقون ، والآباء هم الآباء واللغة هى تلك اللغة، بأن نقى عربية الجنس وعربية اللغة — نقى العربيتين ما يضيرهما أو يوهنهما) [٣]

---

(١) مجلة الرسالة عدد ٧١١ ص ٢٠٢ .
(٢) الرسالة عدد ٧٣٠ سنة ١٩٤٧ .
(٣) مجلة الرسالة عدد ٧٢٧ سنة ١٩٤٧ .

ولقد منى الجنس العربى بمحنة اليهود كما منى بهم قبل الإسلام وإبان انتشاره ، فصبر العرب لهم وصابروا ورابطوا لأنهم يؤمنون بأن الله مع الصابرين ، وقد لا أعرف أن النشاشيبى اشترك مع المجاهدين بمال لأنه لا يمالن بمكرمة ، أو اشترك معهم بسيف لأن ثلاث علل قاسية قد اصطلحت عليه فهدته فى آخر العهد هدآ . ولكننى أعرف أنه كان يوجه قلمه فى كل مناسبة ، ولسانه فى كل فرصة ، وخاصة حين أعلن قرار تقسيم فلسطين . فإذا « نقل الأديب » كله فى شهر ديسمبر سنة ١٩٤٧ يدور حول الجهاد والجلاد والاستشهاد ، وإذا النفس العربية الكريمة المجاهدة تظهر فى مثل هذه الرواية الشعرية عن «عمرو بن براقة» حيث يقول :

كذبتم وبيت الله لا تأخذونها
مراغمة ما دام للسيف قائم
متى تجمع القلب الذكى وصارما
وأنفا حميا تجتنبك المظالم

وإذا « نقل الأديب » كله فى هذا الأسبوع الثالث من ديسمبر ١٩٤٨ يحمل هذه العناوين «أمثال» فى الشجاعة العربية : «أصيب زوجها وأخوها وأبوها » و « الجنة تحت البارقة » « نحن والله أهل الحرب » «إلا بحيث ترى المنايا سودا » « فعليكم بالجهاد » « عن أحسابكم ذودوا » كذبتم وبيت الله لا تأخذونها » نساؤهم كرجالهم » « فأنا أرابط حتى أموت » .

وقد برع النشاشيبى فى اختيار العناوين لكل نادرة من نوادر « نقل الأديب » ليكون العنوان أدل على الغرض منها وأنفذ إلى القصد إليها . وكان يتخير العنوان أحيانا من النص نفسه . وترى ذلك واضحا فى كتابه

« البستان » الذى جمع فيه — لتلاميذ المدارس — أنضر ما فى الروضة العربية من ورود .

وكذلك لم يكن توفيقه فى عناوين « النقل » بأقل من توفيقه فى اختيار « النقل » نفسه .

ولم يكن تعصب النشاشيبي للعربية غفلة منه عما للثقافة الأوروبية من قيم . فقد كان يعرف الفرنسية ويعرف أحسن ما فيها للعقل والعلم والحضارة وكان يرى أن الاكتفاء بما نحن فيه لا يهيئنا — كأمة لها ماض مجيد — أن نقتعد مقاعـــد الغرب اليوم فى المزدحم العالمى ، وكان يرى أن الأخذ بأسباب العلم الصحيح — كما فعل الغرب اليوم — هو الطريق الموصل بالعرب إلى استعادة مجدهم . وكان يعالن بذلك فى مجالسه وفى كثير مما يكتب حتى كان كتابه القيم — (قلب عربى وعقل أوروبى) الذى يقول فيه — (تلكم مدنية الغرب فالخير كل الخير فى أن نعرفها ، والشر كل الشر فى أن نجهلها ، وإنا إذا عاديناها وهى السائدة الساطية استعلتنا ، وإنا إذا نابذناها ونبذنا عليها حقرتنا ، وهى مدنية قد غمرت الكرة الأرضية . فليس ثمة عاصم وإن أويت إلى المريخ) [١] ويقول فى موطن آخر (فالعربى الذى يكره إلينا هذه المدنية — يعنى الغربية — ويثلب علمها ونظامها وفنها ، ويسخر من روادها لا يروم ـ وحياتكم ـ أن نحيا فى هذا الوجود أو أن نسود . بل يريد أن نبيد أو أن نعود فى الناس مثل العبيد) [٢] .

---

(١) قلب عربى وعقل أوربى . ص ١٣ .

(٢) المرجع السابق . ص ١٥ .

وقد يظن من يرى تعلق النشاشيبي بقديم العرب وجنوحه إلى الغريب من الأساليب وميله إلى رواية الاخبار أنه رجل قديم النزعة رجعى الفكرة، ولكنه - رحمه الله - كان جامعا بين القديم والجديد . حتى لقد استوى منه مزاج غريب خاص يجمع بين عربية القلب وغربية العقل . . . . .

وما أحوجنا فى هذه الأيام إلى قلوب عربية فى عقول — لا فى عقليات — أوروبية .

أحسن الله إلى إسعاف النشاشيبي قدر ما أحسن إلى العروبة لغة وجنسا



أنطون الجميل باشا

١٨٨٧ — ١٩٤٨

فتشت عن مصدر حديث العهد منا أرجع فيه إلى حياة أنطون الجميل قبل أن زفه لبنان الأشم إلى مصر الوادعة المطمئنة المرتفعة الأهرام : فلم أجد إلا سطرا أو سطرين لا تشفي غلة باحث ، ولا تسد حاجة دارس ، وإذا « بمعجم المطبوعات العربية » لسركيس» يقول عنه ولا يزيد : (محرر جريدة البشير ومدرس البيان في كلية القديس يوسف في بيروت ومنشيء مجلة الزهور بالقاهرة) وإذا «بتاريخ الآداب العربية في الربع الأول من القرن العشرين» لمؤلفه الأب لويس شيخو اليسوعي لا يعدو أن يقول عنه في ثلاثة أسطر (محرر البشير والزهور ، نشر « في بيروت » البحر المتوسط » وفي مصر « أبطال الحرية » و « منتخبات الزهور » و « السموءل أو وفاء العرب » و « الاقتصاد والنظام في المنزل » و « تعريب كتاب السيدة دوبوك ـ الفتاة والبيت ») وإذا بتاريخ الصحافة العربية » للفيكونت فيليب طرازي يشير إليه في كلمة واحدة على أنه كان محررا في صحيفه « البشير » السورية في ذلك الزمان . أي في العقد الأول من القرن العشرين .

ومؤرخ الأدب معذور إذا وجد غموضا واضطرابا في نشأة الأدباء والشعراء الذين يترجم لهم في عصور بعيدة العهد منا ، ولكن أي عذر لنا

نحن المحدثين ونحن نترجم لأدباء أعزة علينا قريبين منا ، فنروح نكشف النقاب عن حياتهم الأولى فلا نجد المراجع تسعفنا أو تمدنا بما نشتهى من إحاطة بحياتهم ونفوذ إلى عماق نشوئهم .

ولو أن الأديب أو الشاعر يترجم لنفسه على طريقة الـAutobiography عند الغربيين لاستراح المترجمون من كثير مما يلقونه من العنت . وقد صنع ذلك الشاعر محمد الأسمر حين ترجم لنفسه فى مقدمة ديوانه « تغريدات الصباح » فعرض نفسه كما صنعه الله وكما مرت عليه الحياة ، فأراح بذلك السائلين — بعد عمر مبارك — عن نشأته ومحيطه الذى عاش فيه .

وإذا صح ما ذكر أن أنطون الجميل ولد فى بيروت سنة ١٨٨٧ فإنه يكون أصغر من تولوا تحرير « البشير » سنة ١٩٠٨ — أى أنه عهد إليه بتحرير هذه الصحيفة المعتدلة المتزنة وهو فى الحادية والعشرين من عمره . ويكون كذلك أصغر الأساتذة الذين تولوا التدريس فى كلية القديس يوسف ببيروت ، لأنه اشتغل بالتعليم قبل اشتغاله بالتحرير . وأظن ما ذكر أنه نزح إلى مصر سنة ١٩٠٧ يحتاج إلى شيء من التصحيح ، لأن الثابت من سجلات صحيفة البشير أنه تولى تحريرها سنة ١٩٠٨ وأن الانقلاب العثمانى حدث فى العام نفسه ، فتكون هجرته إلى مصر بعد ذلك التاريخ ؛ والراجح أنها كانت فى سنة ١٩٠٩ .

ولا شك أن مواهب أنطون الأدبية والخلقية قد ظهرت فى أول حياته وجذبت إليه الأنظار ممن يقدرون قيم الرجال . ويدل على ذلك اختياره لتحرير صحيفة البشير ، فقد كانت — كما يقول مؤرخ الصحافة العربية — من أرقى الجرائد التى يركن إلى صحة أخبارها ، وصفاء مبادئها وإخلاص خدمتها

للآداب والعلم والوطن وكانت من أقدم الصحف اللبنانية، أنشأها الأب أمبروسيوس مونو رئيس الآباء اليسوعيين فى سورية سنة ١٨٧٠ وكان غرضها دينياً أول الأمر، وعبارتها ركيكة كبقية صحف ذلك العهد، وكان لا يقرؤها إلا جماعة الكاثوليك لأنها لسان حالهم . فلما تولى الأب سليمان غانم رياستها والأديب خليل البدوى تحريرها ١٨٨٢ — ١٨٩٠ ظهر تجديد فى عباراتها واتجاهها الأدبى، حتى صارت مقروءة من المسيحيين وغيرهم. وجرت العادة أن يتولى إدارتها أب من رجال الدين، وتحريرها نابغ من رجال الأدب . فإذا رأيت فى إدارتها الأب أنطون صالحانى والأب هنرى لامنس والأب لويس معلوف، رأيت فى تحريرها يوسف البستانى وخليل البدوى ورشيد الشرتونى وأنطون الجميل، الذى أسلم تحريرها بعده إلى الخورى بولس طعمة الذى كان من كتاب مجلة المشرق المحققين .

° ° °

وكانت هجرة أنطون الجميل إلى مصر طلباً للحرية كما نزح إليها كثير من الأحرار اللبنانيين. فوجد فوق ثرى مصر السماء التى تتردد فيها أغانيه حرة طليقة من القيود . ومصر كانت — ولا تزال — ملجأ الأحرار ممن تتسع البقعة الكريمة من الأرض لأحلامهم وآمالهم . فانطلق أول نغم له بالحرية فى مسرحية صغيرة أسماها « أبطال الحرية ». تولت مطبعة المعارف بالفجالة طبعها على نفقتها سنة ١٩٠٩ ؛ وجعلت شعارها العلم التركى بهلاله الواحد ونجمته الواحدة، وتحتها الكلمات التى تمخضت عنها الثورة الفرنسية : — الحرية ، المساواة ، الإخاء . وقد كان أنطون الجميل معجباً بهذا الانقلاب العثمانى الذى كان الدستور نتيجته ، ومعجباً بأبطال هذا الانقلاب، وخاصة

« نيازى » و « انور » اللذين كانا بطلى مسرحيته .

والمسرحية فى ذاتها صغيرة الحجم بسيطة الحوادث ، ليس فيها ما فى المسرحيات من براعة الحوار وحبكة الحوادث ، ولكن فيها حسن الإنشاء وجودة السبك ، والاعتماد على العنصر الخطابى . ولكنها على الرغم من بساطة الفن المسرحى فيها لقيت ترحيباً كثيراً من الصحافة العربية والتركية والأوروبية ، وأثنت عليها مجلة « اجتهاد » التركية ، وترجمت قسماً كبيراً منها نشرته مع صورة للفقيد العظيم .

وقد مكن تضلع أنطون الجميل من الفرنسية أن يلفت إليه أنظار الصحافة الفرنسية ، فاشتغل محرراً فى جريدة « البراميد » التى كانت تصدرها دار الأهرام وكان ذلك أول اتصال للفقيد بهذه الجريدة .

وإذا كانت الصحافة قد جذبت أنطون الجميل إليها فى جريدة « البشير » بعد اشتغاله بالتدريس ، فإنها جذبته من جديد فى مصر إلى صحيفة « البيراميد » ثم جذبته ثالثة إلى إنشاء مجلة أدبية ، فكانت مجلة « الزهور » التى ظهر أول أعدادها فى أول شهور « آذار » أو مارس سنة ١٩١٠ . فكان ذلك توافقاً لطيفاً بين اسمها وبين شهر الربيع الذى تفتحت فيه للحياة . .

ولما عمل موظفاً فى الحكومة المصرية ابتعد عن الميدان الصحفى ، إلا ما كان له من بحث أدبى هنا وهناك . ولكنه حن إلى الصحافة أو هى حنت إليه ، فأسندت إليه رياسة تحرير « الأهرام » فى سنة ١٩٣٢ ، وما زال فيها حتى فجأه الموت فى صباح الثلاثاء ١٣ يناير سنة ١٩٤٨ وهو عائد من عمله الذى فنى فيه ، كما تفنى الفراشة حول الضوء اللامع ، حين يغريها بلهيبه البراق ونوره الوهاج .

وعجيب جداً أن يتولى « الجميل » ثلاثة ألوان من الصحافة في ثلاثة عهود مختلفة من عمره، فيجيد كل لون ويبرز فيه وتنبغ له فيه شئون . فقد تولى الصحافة الدينية في صحيفة « البشير » اللبنانية ، وتولى الصحافة الأدبية في مجلته الشهرية « الزهور » ، فكانت روضة من رياض الأدب الرفيع النزيه العفيف في ذلك العصر ، وتولى الصحافة السياسية في جريدة « الأهرام » ، فكان فيها سياسياً من الطراز الذي سماه « حسان بن ثابت » الشاعر المخضرم بالطراز الأول

* * *

لقد صدق القول المشهور : « كل ميسر لما خلق له » . ومكلف الإنسان ما ليس من طبعه متطلب جذوة النار في فيض من الماء . فقد أراد (الجميل) أو أريد له أن يكون « معلماً » أول الأمر ، ولكنه لم يمض في الشوط إلى نهاية ، ولم يجر في هذا الميدان إلى غاية . وقد أراد « الحجاج بن يوسف » قبله أن يكون معلماً ، فأرادته الأقدار أن يكون حاكما من طراز شديد . وأراد « حافظ إبراهيم » أن يكون ضابطاً في الجيش، فأرادته الأقدار أن لا يمضي في الميدان إلى آخره ، وجعلته صاحب لسان لا رب سنان . ولم تكن الصحافة عند « الجميل » سياسة فحسب،أو لعباً بالورقة الرابحة في ميدان يكثر فيه اللعب بالأوراق،والاصطفاق بالأرزاق في الأسواق ، ولكن الروح الأدبية كانت تمشي معه في الصحافة جنباً إلى جنب فهو أديب مشرق العبارة واضح الفكرة حسن العرض ، أعانته على مهنته الصحافية سليقة أدبية وثروة مذخورة، من البصر بالأساليب العربية التي تعرض الحقائق في ثوب محكم النسج رقيق الحاشية .

وما أشبه « الجميل » في الصحافة بملاح ماهر يعرف كيف يمخر بسفينته

عباب بحر مضطرب لجى، يغشاه موج من فوقه موج ، فهو يداور الريح . ويداور الموج،ويحتال على هذا مرة وعلى ذاك أخرى ، ولا يفقد اتزانه فى وسط العاصفة حتى تمر بسلام . ولهذا لم يعرف بتحزب ولم يرم يتعصب ، بل كان يمقت الحزبية مقتاً شديداً، ويرى أنها سبب ما نحن فيه من بلاء واضطراب . وكان يرى الحزبية قيداً للحرية . وقد أشار إلى ذلك فى مقدمته التى كتبها لديوان الشاعر « ولى الدين يكن » حيث يقول : (كنت أود أن ألم بالدور السياسى الذى لعبه الفقيد فى الآستانة ومصر ، ولكنى أخشى أن أقع مرغماً فى العيب الفاشى بالناس . وهو أن يقسموا موتاهم حسب أحزاب أحيائهم . فحسبى أن أقول إنه كان حراً فى سياسته، كما كان حراً فى كتابته)

* * *

والحديث عن مقدمة « أنطون الجميل » لديوان الشاعر ولى الدين يكن، يسوقنا إلى الحديث عن ناحية أدبية عند هذا الأديب الكبير . فقد اشتهر ببضع من المقدمات كتبها وقدم بها بين يدى جماعة من الشعراء والكتاب ، فكتب مقدمة تحليلية لولى الدين يكن، فى أول ديوانه الذى طبع بمطبعة « المقتطف والمقطم » سنة ١٩٢٤ ، وكتب مقدمة لديوان الشاعر « إسماعيل صبرى باشا » الذى طبع بلجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٨ . وهذه المقدمة هى الكلمة التحليلية التى ألقاها فى تأبين الشاعر سنة ١٩٢٣ . وكتب مقدمة لديوان « شاعر البرارى » الذى عنوانه «بين أحضان الطبيعة» والذى طبع سنة ١٩٤٢ . وكتب مقدمة لديوان الشاعر « محمد الأسمر » الذى عنوانه « تغريدات الصباح » والذى نشرته « دار المعارف للطباعة والنشر» سنة ١٩٤٦ وكتب مقدمة لكتاب « ما قل ودل » للكاتب أحمد الصاوى محمد . وهى

كثرة دفعت بعض الكتاب إلى تسمية الفقيد « بكاتب مقدمات الكتب » وما كان عيباً أن يتولى الجميل تقديم الأدباء أو إنصافهم من زمانهم ، فقد عرف بالنصفة فى الرأى والاعتدال فى الحكم، والرقة فى النقد إلى حد لا يجرح المنقود ولا يعنف عليه . ولكنه نقد رفيق رقيق ، ولا أنسى أنه كان يأخذ على السهولة فى عمل الشعر ويحذرنى منها « لأن السهولة فى الغالب « زلقة إلى الأخطاء » ؛ كما كتب — رحمه الله — فى مقدمته لديوانى. وهذا نقد رفيق لم يغضبنى بل حفظته يدا أعتدها « للجميل » .

واسمع نقده الرفيق لبعض ألفاظ الشاعر « الأسمر » فى مقدمته لديوانه « أما إذا ترك عالم الأحلام والأمانى وعاد إلى عالم الحقائق المجردة، فإنه لا يتورع عن اقتناص اللفظة الواقعية ؛ وإن كان الشعراء قد تواضعوا على نبذهـا من لغة الشعر » . ثم يمثل لذلك بقول الأسمر فى ديوانه :

واخلعوا الأرسان لستم (حـمـرا) واطرحوا النير فلستم (بَقَرا)

أليست هذه النعومة أو الـ « Finesse » هى أهم خصائص الأديب الناقد الذى لا يتخذ النقد هراوة غليظة يضرب بها رؤوس المنقودين، فينفر الناس منه ومن نقده الثقيل الشديد كالرصاص والحديد ؟؟

* * *

ولم يكن «أنطون الجميل» كاتباً أديباً فحسب ، ولكنه كان خطيباً عرفته منابر الأدب فى القاهرة فى كثير من المناسبات . وما عرفته يرتجل الكلام على المنبر أو يقوله على البديهة ، كما يفعل الخطباء المرتجلون. ولكنه كان يعد كلامه إعداداً ويلقيه من فوق أعواد المنبر ، إلقاء فصيحاً رشيقا بينا فى تؤدة وأناة ، حتى يستطيع سامعه أن يتابعه فلا يمل . وما كان أبرعه وهو

يضفى الفكاهة الحلوة فى خطابه فيثير فى السامعين عاصفة من الضحك ويشيع فيهم جوا من المرح .

ألقى مرة حديثا أو محاضرة فى قاعة الجمعية الجغرافية الملكية، يوم ١٦ أبريل سنة ١٩٣٦ عنوانه «صانعو الجريدة »، فجمع عن الصحافة وأوعى ولكنه كان يرسل الفكاهة من حين إلى حين ، فذكر من أنباء التطبيع أو التصحيف فى الطباعة أن عبارة «تجديد شباب القضاء » قد حرفها العامل إلى « تجريد ثياب القضاة »

وكان يتخير فى خطبه ومحاضراته أطرف المناسبات مما توحى به بديهة حاضرة أو خاطر سريع . خطب مرة فى تأبين الشاعر إسماعيل صبرى باشا وكان الحفل فى ليلة من ليالى التمام للقمر ، فابتدأ الكلام قائلا : — (إذا رأينا القمر ساطعا فى كبد السماء — كما نراه فى هذه الليلة — لا نتساءل من أين أشرق على الدنيا . . .) . وحاضر مرة فى الجمعية الجغرافية عن الصحافة فقال عن الصحفيين الجوالين المتنقلين أنهم يضربون فى كل جهة من المدينة، وفى كل مدينة من القطر . . . وما أشد ما تنطبق عليهم الآية الكريمة المنقوشة أمامكم فى صدر هذه القاعة « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها » . وقد لفتت نظره هذه الآية منقوشة على جدار القاعة فاستغلها لموضوع محاضرته .

كان « الجميل » كثير التدقيق لما يكتب كثير التدقيق فيما يطبع . وكان يحدثنى أنه يود أن يرى الكتاب العربى خاليا من أخطاء الطبع . وقد أخذ نفسه بهذا حين أصدر مجلة « الزهور » سنة ١٩١٠ ، فهى المجلة العربية التى كاد ينعدم فيها الخطأ المطبعى ، وتحاكيها فى ذلك مجلة « الضياء » للعلامة

الشيخ إبراهيم اليازجي . وقد ظهرت هذه الدقة في كثير من نواحيه . فقد كان دقيقا في مجلس الشيوخ حينما كان مقررا للجنة المالية ، وكان دقيقا في التعبير حين يعالج مسألة سياسية في الأهرام ، وكان دقيقا حين يورد الإحصاءات وكان دقيقا حين يستشهد بالشعر . فيتحرى أصح الروايات فيه وينسبه إلى قائله نسبا صحيحا مهما كلفه ذلك من عناء في البحث عن قائله . ولا أظن التوفيق خانه في نسبة شعر إلى شاعر ، إلا مرة واحدة في المقدمة التي كتبها لديوان « ولى الدين يكن » ، فقد نسب بيتين إلى «ابن الرومى» وهما من شعر « مهيار الديلمى » في قصيدته البائية التي يقول فيها :

لا تخالى نسبا يخفضنى أنا من يرضيك عند النسب

. . .

ولا أعرف من أنطون «الجميل» أنه نظم شعرا أو حاول أن ينظمه، ولكنه كان في مجموعه قصيدة شعرية متساوقة النغم . وإذا كان الوزن في القصيدة العربية ركنا من أركانها ، فقد كانت حياة « الجميل » متزنة في كل نواحيها ، فما عرف عنه إسراف في شيء أو مبالغة في أمر ... اتزن في الأدب فكان أديبا وناقدا خطير الرأى، واتزن في السياسة فكان رجلا معتدلا يحبه رجال الأحزاب وقد فرح كل حزب منهم بما لديه . . . واتزن في علاقاته مع الناس فأحبه الكبير والصغير . ولا أعرف أنه أسرف في شيء إلا حين أسرف على نفسه بالعمل حتى بات ضحيته . فكان مستجيبا لدعوة « يوسف كونراد» الكاتب الإنجليزى حين قال « اعمل حتى تموت » Do or die . ومن عجب أنه لم يقل الشعر على حين نبغ فيه ثلاثة من رفاقه في عهد التلمذة بلبنان وهم « شبلى ملاط » و « بشارة الخورى أو الأخطل

الصغير » والمرحوم « وديع عقل » الذين تغنى آثارهم عن أخبارهم .

على أن جيله من الرفاق قد أخرج جماعة من الأدباء هم : « مسعود درويش » و « إبراهيم المنذر » و « شكرى القرداحى » و « إبراهيم سليم النجار » و « يوسف البستانى » .

ولكن هؤلاء الرفاق تفرقوا ومشت بهم مناكب الأرض أو مشوا فى مناكبها . فدعت أسباب الحياة « أنطون الجميل » إلى مصر ، وادخره الموت فى ثراها .

ومن كانت منيته بأرض   فليس يموت فى أرض سواها

أعلام من الغرب



هنرى دافيد ثورو

كاتب الطبيعة والعزلة والإحساس

١٨١٧ — ١٨٦٢

فى مارس سنة ١٨٤٥ حينما اقترض هنرى دافيد ثورو فأسا من صديقه الأديب الأمريكى النابه « ألكوت » ، واخترق الغابة إلى غدير (والدن) كان يمشى إلى تحقيق أمل طالما صبت نفسه إلى تحقيقه .

وكانت ذكرياته الأولى ترجع دائماً إلى هذه البقعة ، التى تبعد ميلا عن القرية المتواضعة التى ولد فيها ، لأنه يذكر وهو صغير أن جدته احتملته وطوفت به فى تلك الغابة ، فود لو أتاحت له الأيام أن تكون تلك الغابة الهادئة مستقرا له ومقاما .

وكبر الصبى ، وساقه الشوق القديم الملح إلى الغابة ، ودعاه الهوى إلى الغدير — غدير والدن — فأخذ يتردد عليه صائدا ، أو سابحا فى الصيف ليبرد بمائه الرقراق حرارة جسمه ، أو منزلقا فى الشتاء على جليده المتجمد ؛ ولقد فتن جمال الغدير وهدوء الغابةوعزلتها قلبالكاتب ؛ فكانيختلفإليهما من حين إلى حين . وما زال كذلك حتى عقدت كثرة التردد ألفة بينه وبين هذه البقعة الجميلة من الأرض فحبب إليه المقام فيها فأقام . .

فى جامعة « هارفارد » التقى ثورو بشاب يدرس الأدب القديم . وقد

اختار له كوخا على ضفاف غدير هادىء . . لعل عزلة المكان تعينه على المضى فى دراسته ، فود « ثورو » لو أتيح له أن يجد مكاناً مثل هذا المكان تطمئن إليه نفسه . وفى ذلك كتبت إليه « مس مارجريت فلر » سنة ١٨٤١ قائلة : — (أود أن تخبرنى عما إذا كنت على عادتك من التردد إلى ذلك الكوخ المنفرد ؟ لعلك تكتب إلى عزيز شاكسبير ، وهل كنت تقرؤه فى ذلك الهدوء الجميل ؟)

ليس هذا الكوخ المنفرد هو الذى قضى الكاتب فيه أيام عزلته ، وإنما هو أول كوخ اتخذه فراراً من القرية المضطربة المختلط هواؤها بأنفاس البشر ، استعدادا لكوخه الأخير فى « والدن » .

ولد هنرى دافيد ثورو فى كونكورد من مدن أمريكا الشمالية سنة ١٨١٧ ، فى بيت متواضع ، من أب اتخذ صناعة أقلام الرصاص مرادا لعيشه ، ومن أم مرحة طروب اسمها «سنثيا» . وبعد إتمام الدراسة الثانوية دخل جامعة هارفارد ، فلم يكن فيها نابها ولا ذائعا ، وإنما كان فيها طالبا فى غمار الطلاب ، فاكتفى بالحصول على درجتها الجامعية . ودخل ميدان الحياة العملية صانعا للأقلام مرة ، ومعلما مرة أخرى ، وصاحب جريدة أخيرا

وكان فى صناعة التعليم زميلا لشقيقه وحبيبه « جون » فى إحدى مدارس كونكورد . وفى صيف سنة ١٨٣٩ بنى هو وأخوه جون قاربا ، وقاما برحلة نهرية أسفرت عن أول كتبه الأدبية : — (أسبوع على نهرى كونكورد ؛ وميريماك) .

لقد كانت صداقة ثورو الأولى — بعد تركه الجامعة — مع شاب نابه من قريته اسمه « رالف أمرسون » . فكان الود بينهما وثيقا طويل الأمد .

ولقد بلغ من وثوق الصلة بينهما أن عاش ثورو فى بيت صاحبه ثلاث سنوات ، يساعده فى تنسيق الحديقة ويدير معه شئون البيت . وكان ثورو يصنع الأقلام ويبنى الأسوار ويمسح الأرض . ولا يبالى العمل الحقير ما دام شريفا . وظل كذلك حتى فاجأ جيرانه وأهل قريته — وهم عمليون لا يسبحون فى سموات الخيال — بفراره إلى الغابة للعيش هناك وحيدا منفردا فى كوخ متواضع حقير . .

لم يصطحب « ثورو » معه إلى الغابة إلا بدنه الصحيح وعقله الرجيح ونفسه الهادئة ، كأنما وطن العزم على أن يستمتع بالغابة إلى حد بعيد . . وكانت نضارة شبابه وصحة بدنه واستواء تركيبه أكبر عون له على العيش فى الغابات . فهو ابن ثمان وعشرين . قصير بدين ، مليء نشاطا وحيوية .

ولقد وصف بقلمه شبابه الأول فى آخر أيامه فقال : (لقد كانت حياتى متاعا ، وفى الشباب قبل أن تهد الأيام أحاسيسى أستطيع أن أذكر أننى كنت متوقد الحس مشبوب العاطفة ، ولقد كانت متاعب الشباب وتكاليفه حلوة إلى كرغائبه ولذائذه) . وقال : (ليس النبوغ ألا توفر الحياة واكتمال العافية حتى نستطيع أن ندرك الجمال فى كل شيء ، حتى فى هذه الحبات من التوت نطعمها ، وفى خوار البقر حينما يردد أصداءه الجبل الهادىء الوقور قبل حلول المساء . . وحيث الندى المتأرج بعطر النسيم . وهناك قوة لا تزول وصفاء هادىء ، يخيل إلى المرء معهما أن هذا الصباح المشرق دائم إلى الأبد . كل منظر أو صوت ، وكل أريج أو طعم ، يسكر الإنسان بخمر الصحة والعافية)

كان ثورو حاد الحواس لأنه استعملها فى الأحساس بجمال هذا العالم .

ولقد قويت حاسة الشم فيه حتى أصبح يميز بين الأزهار فى ظلمة الليل البهيم بروائحها لا بأشكالها . . وكان يذوق الأشياء التى يعتقد النـاس خطرا فى تذوقها . . ولما ضعفت عينه من طول اختلاف السنين وتطاول العمر لم تضعف فيه قوة الإبصار . وكان صديقـــه « إمرسون » يدعو عينه « بالعين المجهرية » .

أما الصوت فكان له تأثير عميق فى نفسه ، فهو يفرح إذا سمع نباح الكلب أو خوار البقر أو مرور الريح على الشجر ، وهو يطرب إذا سمع أسلاك البرق ترن رنينا . أو أصغى إلى البعوض يطن طنينا . وكثيرا ما لذ له أن يستمع إلى صوت واحدة من خشاش الأرض .

هذه الأصوات المختلفة كانت تجعله يقضى الليل قائما مستمعا ، أو كما يقول هو عن نفسه : (مغمورا فى أمواج الصوت المتلاطمة) .

وكان يقول : (أنا أحمد الله على الصوت . الصوت دائما يصعد ، ويجعلنى دائما فى صعود .) ويقول : (لقد كانت حياتى بالأمس متقطعة لا اتصال فيها ولا عمق فى معناها ، ومنذ الساعة التى أرهفت فيها سمعى عادت إلى حريتى ، وانتابنى شعور روحانى) .

ولا تنس حاسة اللمس فقد كانت قوية فيـه . وكان يقول : (بدنى كله يستطيع أن يلمس . !) ولقد عود يديه العمل . فكان نجارا وبناء وفلاحا ومساحا وعاملا فى مصنع . وكان فى كل ذلك مجيدا . كان يستطيع أن يصنع قاربا أو يقيم سورا أو يبنى بيتا أو يرفع مدخنة ، أو يزرع حقلا أو يصنع قلما . . وكان ذلك سبيله إلى كسب عيشه وإقامة صلبه .

وخلق الميل إلى العزلة فى نفس ثورو ميلا إلى الانتفاع بالتجارب ،

وأتاحت له أيامه فى كونكورد وهارفارد أن يوسع معارفه فى الأدب الكلاسيكى ، وأن يكتسب محبة وشغفا بأبدع ما أخرجه الأدب الإنجليزى على مر السنين .

ولم يكن مع ذلك متوقد الذكاء ولا مكبا على الدرس . وإنما هى طريقة هادئة اتخذها ووصل بها إلى ما يريد . وأضاف إلى حبه للأدب الإنجليزى حبا آخر فأغرم بالكتب المقدسة ، ولا سيما كتب الهند ، ووجد لذة فى مطالعة تاريخ أمريكا وخطط مدنها وخاصة مدن « انجلترا الجديدة » New England واهتم بقراءة أخبار المستعمرين الأولين .

وكيف يقاسى العزلة أو يتحمل مرارة الوحدة من امتلأت خزانة قلبه بهذا التراث الفكرى العظيم ؟

كان ثورو الطفل يجد سرور نفسه فى الأزهار والطيور والحيوان والأشجار والجبال والغدر والحقول . فلما كبر تحول ذلك كله إلى عاطفة شعرية لازمته طول حياته .

اسمعه يقول : (أيتها الطبيعة الغالية ! كم أتذكر الآن — بعد نسيان قصير — غابات الصنوبر . إنى أتهالك عليها كما يتهالك الجائع على كسرة من الخبز) .

وكأنما أحست هوام الأرض وبغاث الطير بعطفه عليها ... فاطمأنت إليه .. لقد كانت الطير تحط على كتفيه ، والسمك يجرى بين أنامله ويمس راحته .. والزواحف تلتف حول رجليه ، والجرذ يدور حوله كأنما يداعبه فى اطمئنان . وما أجمل رضاه بأن يعيش عيشا ساذجا بين هؤلاء الأصدقاء المتواضعين .

كان ثورو رحالة عظيما لا يدانيه عظماء الرحالين . ولكن رحلته كما

قال هو لم تتجاوز أرض قريته «كونكورد» . . فهو لم يركب بحراً ، ولم ينشر قلاعا . ولكنه مع ذلك عرف لذة المخاطرة وذاق حلاوة الاستكشاف والمغامرة . . إنه استكشف كونكورد قريته الصغيرة ! إنه ركب بحارا بعيدة المدى مجهولة الشواطىء عميقــة الأغوار : ورجع إلى الميناء محملا بعجائب الكنوز . . . إنه ذاق اللذة التى ذاقها خرستوفر كولمب ورجاله حينما دفعتهم الأمواج الغربية إلى أرض نائية بعيدة .. إنه أحس بما أحس به المستكشفون الذين وقفوا صامتين على قمة فى « داريان » ينظرون بعين الدهشة والعجب إلى عظمة المحيط الهادى . .

لم يكن ثورو مخاطرا فحسب بل كان ثائرا . إنه ثار على الكنيسة وأبى أن يدفع لها ضريبتها .. إنه ثار على الحكومة وأبى أن يدفع لها ضرائبها .. وأخيرا ثار على المجتمع لأنه وجد فى ازدحام أنفاسه رائحة الكراهة والنفور. ولما سجنوه فى ثورته الجامحة زاره فى السجن صديقه «إمرسون» وقال له : لماذا أنت هنا ؟ فكان رده عليه : ولماذا أنت لست هنا ؟ وكأنه يقول لصاحبه القديم : فى مثل هذا الوقت وفى مثل هذا الظرف يكون السجن للأحرار من الرجال . .

والآن نصل الحديث عن قرية كونكورد التى ولد فيها ثورو . فكانت وحى إلهامه الأول ، والمنظر الذى تفتحت على جماله عيناه الطفلتان .

فى حرب الملك فيليب لم يستطع الهنود أن يتغلبوا على هذه القرية مع أنهم أحرقوا جاراتها الصغيرة . وتقول خرافة تاريخية إن رئيس الهنود أطل على القرية من هضبة مجاورة ثم قال : « لن نستطيع أن نغلب هذه القرية الفاتنة . إنها محبوبة الروح العظيم » .

ولا تمتاز هذه القرية بمعدن أو منجم .. حتى جليدها الأبيض الناصع لم يسلم من الحصى الأغبر فى طياته النقية الطاهرة . . وإنما تمتاز بغاباتها وحشائشها وهدوئها السائد . وفى ظل هذا الهدوء نشأ «إمرسون» «وثورو». ولقد كان إمرسون صديق كاتبنا وأستاذه ورفيقه فى الغابه يرتاح إلى هذا الهدوء ، الذى لا يقطعه إلا خرير الماء وخوار الأبقار وثغاء الشاة وتمتمة النسيم .. وكان يقول : (إن هذه الأبقار الجاثمة تحت ظل هذه الأشجار تبدو لى كأنها سابحة فى بحار من الأفكار العظيمة) .

وفى هـــذه القرية أيضا يقول مستر بروكس Brooks مؤرخ الأدب الأمريكى : — (كانت هذه القرية مدرسة لدراسة الطبيعة البشرية . يستطيع المرء أن يتعلم فيها شتى أنواع المهن بالتحدث إلى صانعها أو بدالها . وقد تجمع فيها تاريخ البشرية وتكرر . حتى لترى العالم مصغرا فى أحد أركانها المتواضعة . نعم ! يبدو فيها العالم الكبير مصغرا بماضيه ومستقبله) .

نشأ الصديقان إمرسون وثورو كزهرتين نديتين فى حوض واحد . وكانت إحدى الزهرتين أكبر من أختها وأشد صبغا . وكانت الثانية أنفذ رائحة وأسطع أريجاً . . وكان ما بينهما من المسافة يأذن للنسيم بالمرور على كل واحدة فى طلاقة وحرية . .

كان ثورو مثل أمرسون يخرج إلى الغابة كل يوم ومعه اوراقه يدون فيها مشاهده ومرائيه .. ومعه عينه المجهرية يشاهد بها ألواناً شتى من حشرات الأرض وهوامها . ولم يكن ينظر إلى الطبيعة فحسب . . بل كان ينظر فيها ، ويرى خلالها ويستشف فى إدراك ووعى كل ما وراءها . .

إنه كان يحب الوادى وهو مغمور فى بحار الضباب الكثيف ، حيث تبدو

فيه الأشجار كأنها السفن فى غمر المحيط . وما كان أحب المطر إلى نفسه وهو يتساقط كالسيل المنهمر ، وصاحبنا واقف تحت شجرة ينظر إلى اوراقها المتناثرة فى بلل تحت قدميه ، أو يفحص لحاءها المتقشر . .

وكانت غدران والدن walden كما يصفها هو بقلمه (بلورا على سطح الأرض .. ولو قدر لها أن تتجمد وتصقل لحملت —كالأحجار الكريمة — إلى الأباطرة لتزين رءوسهم . ولكن سيولتها وكثرتها جعلتها قليلة القيمة)

هذا هو هنرى دافيد ثورو الأمريكى ، هدتنى إليه الكاتبة الأمريكية إيفلين ميلر Evelyn Miller يوم أن التقينا على نهرى الشير واللوار بفرنسا ؛ فى مدينة تور سنة ١٩٣٤ . فسمعت فى صوتها صوت الطبيعة الجهير . . .

يطل على الدنيا من مرقبه

جايمس رسل لويل

١٨١٨ — ١٨٩١

لم تحتل أمريكا قبل بزوغ شمس القرن التاسع عشر مكانا رفيعا فى عالم الأدب العالمى . فقد كانت قبل ذلك طفلة فى الوجود ، لا ماضى يتصل به حاضرها ، ولاقديم يرجع إليه حديثها . ولما شبت عن الطوق وكادت تستوى على قدميها شغلتها حروب استقلالها .

ولم يجرؤ أحد فى تلك الأيام أن يثنى على شاعر أمريكى أو يقدر مواهبه . ولعل شعراء كثيرين ظهروا فى هذه الفترة ، إلا أنهم كانوا مغمورين كشعراء ماقبل العصر الجاهلى فى الأدب العربى . حتى جاءت مجلة (أدنبرة) الأمريكية فتكفلت بتقديم الشعراء والكتاب الناشئين إلى قرائها .

ولعل أغنى مقاطعات الولايات المتحدة بالكتاب والشعراء الطبيعيين هى مقاطعة ولايات «انجلترا الجديدة» . فهناك على الصخور العبل بولاية «هامشير الجديدة» وعلى شاطىء نهر «ميريماك» الجميل ، كانت الحياة زاخرة بالحركة الدائمة . وكانت تتجاوب فى أجواء هذه الولاية أصداء مباغتة ، ترسلها أجراس المصانع وجلبات المعامل المشيدة حديثاً ، وكانت الجلبة تزداد كل يوم تبعاً لازدياد حركة التعمير والبناء .

وسرعان ما تعالت فى سماء هذه المنطقة أبراج الكنائس . وتزاحمت

فى الأرض الفضاء القرى والمدائن . . . وأخذت هذه الولاية الناشئة سبيلها فى الحياة الجديدة للعالم الجديد بسرعة ونماء .

ومن عجب أنه بجانب هذه الحركة المادية الصناعية البازغة لم تظهر حركة عقلية تسايرها وتحاذيها . فهنا النهر الجميل الغنى بمناظره الساحرة . . ولكن ليس هناك على شاطئيه شاعر . .

وهناك الغابة الكثيفة أو الخفيفة، ولكن ليس بين أغصانها المتعانقة عين ناظرة متأملة . . .

وهناك أجناس متباينة من الخلق . ولكن ليس فيهم مؤرخ يقص تاريخهم أو يسجل حياتهم .

وكأن أصوات هذه الضوضاء العاجة ، والجلبة الصاخبة ، والمشاغل المادية حركت بعض العقول من سباتها ، ونبهتها إلى جمال الهدوء فى ظل الأدب ، وإلى متعة السكون الحالم فى خمائل العلم . فانتشرت المدارس وظهرت الجرائد . لأنه لا ينتظر لهذه الجماعة المندفعة فى تيار المادة ، أن تعيش بغير مدارس تأوى إليها فلذات أكبادها . ولا بغير صحف تتبادل التراث الفكرى بينها . فامتلأت مدن « بوستون » « وكامبريدج » بمدارس النحو Grammar School . وكانت هذه المدارس على ثقل برامجها وقدم طرائق التعليم فيها وقسوة المدرسين بها، صاحبة الفضل الأول فى تغذية الروح الأدبية بهذه المقاطعة .

وتتابعت السنون، وأنجلترة الجديدة تمشى فى سبيل النهضة العلمية الأدبية بخطى سراع . ولم يبزغ القرن التاسع عشر حتى كان فيها جماعة من الرياضيين والعلماء أمثال « يوسف ستورى » و « وليم برسكوت » و « بكرنج »

المستشرق العربي ، واللغوى الذى أجاد عشرين لغة ، ما بين شرقية وغربية و « بلودتش » الرياضى .

وأخذت شهرة « انجلترة الجديدة » New England ترتفع بسرعة عجيبة فى عالم الأدب ، وأتاحت لها الأقدار السعيدة أن يجتمع فيها فى النصف الأول من القرن التاسع عشر جماعة من أعلام الأدب الأمريكى ، ولدوا فيها وشبوا ونشأت بينهم وشائج وثيقة . ووضعوا الثروة الأولى فى كنز أمريكا الأدبى كما وضع الجاهليون الثروة الأولى فى كنز الأدب العربى . وأصبح هؤلاء الأدباء نجوما ساطعة فى سماء الأدب العالمى ، يقرأ لهم ويحفظ عنهم ، ويعتد بهم : وفرضوا على العالم — وكان بالأمس القريب مغضيا عن أدب أمريكا — أن يستمع إلى إلهام شعرائها ووحى كتابها ، وإنتاج أدبائها . وعلى رأس هذه الجماعة الأدبية العالمية الممتازة « لونج فيلو » و « أمرسون » و « هنرى دافيد ثورو » و « دانا » الابن ، و « جايمس رسل لويل » و « إلكوت » .

* * *

وحديثنا هنا عن جايمس رسل لويل . وقد لززناه فى قرن مع « هنرى ثورو » ، لأنهما شربا من نبع من الطبيعة واحد . فهما ابناها الغارقان فى بحرها اللجى ، الراشفان من حلاوة خمرها . وإذا كان « ثورو » قد خرج إلى غابة « والدن » وإلى غديرها ، وعاش فيها أكثر من عامين بعيداً عن الناس ، مؤتنسا إلى طيرها السابح ، وسمكها السابح ، وعطرها الفائح ، فإن « لويل » اتخذ من شباك غرفة مطالعته مرقبا ، يطل منه على حديقة مجاورة يلاحظ أشجارها ، ويراقب أطيارها ، ويدون أخبارها وآثارها .

نشأ « لويل » فى كامبريدج الأمريكية ، وهى مهد كثير من الأدباء . فكان

أذكى شبابها وأكثرهم توقد ذهن، وحضور بديهة. وقد أدرك هو نفسه هذا الذكاء فداخله شيء من الزهو والغرور. وكانت نيران الفتنة لاتنطفىء بينه وبين أترابه. إلا أن شيئا من خفة الروح الكامنة فيه كان يلطف حرارة هذه النيران.

ولقد بدأت طلائع نزوعه الأدبي تظهر في صباه، فهو ميال إلى الكتب نهم إلى قراءتها، وهو محب للأزهار هائم بها، وهو يضيف إلى ذلك ملامح السرور البادية على وجهه، حينما تراه يقرأ أو تسمعه يتكلم أو تشاهده يدخن؛ ولكن شيئا من كسل الشعراء لازمه. فهو يستطيع أن يستلقى على ظهره أياما طويلة، غارقاً في أحلام لا انتهاء لها، أو سابحاً في ديوان من الشعر؛ وطالما عاودته نوبات غريبة كان يغيب فيها عن حسه ويذهب إلى عالم بعيد. وما كان أكثر هذه النوبات حينما يتفتح شهر يونيو في أمريكا الشمالية عن عاصفة من أزهار الصيف. و «لويل» يشبه «دانا» الابن في معاودة هذه النوبات.

* * *

هناك في منزل ريفي كبير نشأ «لويل». وهو منزل يطل على غياض واسعة وحقول مترامية، يضمخها في الصيف رائحة الهشيم الذي يلقطه «لويل» عابثاً به بين أطراف أصابعه. وكانت عمته «مس مارى لويل» تقرأ له في الحقل أشعار «شكسبير» فينام على أوزانها كأنها ترانيم الطفولة عند المساء. وكانت هذه العمة أديبة ضليعة، فهي تجيد اثنتي عشرة لغة، أضافت إليها مؤخرا لغة المجر وبولندة.

ولقد ساعدت الظروف مجتمعة على تنشئة «لويل» تنشئة أدبية، فعمته

كما عرفت أديبة لغوية ، وأبوه قارىء نهم ، يملك مكتبة تزخر بنفائس الكتب ؛ وشباب «كامبريدج» من أتراب «لويل» ولداته اشتهروا بذوق أدبي خاص ؛ والطبيعة من حوله ساجية جميلة حتى فى ساعات عبوسها . والظروف كلها مواتية فلم لا يقرأ ؟ ولم لا يفهم ما يقرأ ويستوعبه ؟ ولم لا يعلق تعليقات فطنة واعية على كتاب هذا أو ديوان ذاك ؟ وفوق هذا كله فأن الطبيعة أمامه كتاب مفتوح . فلم لا يقلب طرفه فيها ليستوعب ما فى ذلك السفر العظيم ؟

وهذه خزانة أبيه عامرة بالكتب . فاليوم لأفلاطون ، وغدا لأرسطو وبعد غد لسنكا الحكيم . وكانت طلاقة لسانه فى اللاتينية لا تقل عنها فى الإنجليزية . فإذا بدأ الكلام لم تنبهر أنفاسه ولم يحتبس لسانه . وكان دقيق النظرة كما كان دقيق الفكرة . وكذلك شأن شعراء الطبيعة وأدبائها . فما مرت حادثة فى حديقة إلا سجلها وعلق عليها ، والتمس لها عند العلم والعقل تأويلا وتفسيرا . ولا قامت معركة بين طائرين إلا شاهد حوادثها وعرف تفاصيلها . ولاحظ غراب ليشرب إلا عد كم من المرات بلل ريشه ونفض جسمه ، وكم من المرات ألقى منقاره . وكان أبوه يأخذه إلى مخزن الغلال يراقب الطيور المهاجرة قبل أن تشد رحالها وتزمع رحيلها . وكان لا يبالى أن يقف الساعات الطوال يستمع إلى تغريدة من طائر إلى أليفه . . ولم يبال أيضاً أن يسهر الليل كله ليسمع طائر الكوكو وهو يغنى ، كما تدق الساعة السويسرية . !

ومن شباك غرفته المطلة على الحديقة ، نعم من ذلك الشباك العتيق ذى الطراز الأول كتب «لويل» كتابه «من شباك غرفة مطالعتى» وكان أول فصول الكتاب وصف بديع لمعارفه وأصدقائه فى الحديقة ، ... ومن غير

طيور الحديقة أولى بصداقة «لويل» وبمعرفته الوثيقة ؟؟

فقد وصفها وهى تختلس حبات التوت أو تلتقط حبات «الفراولة» . ووصفها وهى تحط جماعة وتطير جماعة ، كأنها مجموعة إنسانية منظمة . ووصف جماعة منها وهى تغنى : (كعباد النار حول النار . . فى غير انسجام ولا تساوق . .)

وليس الكتاب كله صورة للطبيعة أو وصفا للحديقة . ففيه فصول تناول فيها ترجمة الذين قرأ لهم أو عرف أدبهم . فهناك فصل ممتع عن «أبراهام لنكولن» وآخر عن «جايمس برسيفال» وثالث عن «هنرى دافيد ثورو» معاصره . ورابع عن «تشوسر» الإنجليزى ، وخامس عن «بوب» . فهو نوع من كتب النقد الأدبى تجلت فيه مواهب «لويل» ومميزاته الأدبية وسعة اطلاعه ووفرة قراءته .

ولقد تتلمذ «لويل» على «أمرسون» وتأدب بأدبه ، وكثيرا ما ذهب إلى «بوستون» ليسمع محاضرة منه أو يثير مناقشة معه ؛ وكثيراً ما أخذه «أمرسون» إلى «صخور الشاطىء» يقطعان الطريق فى حديث طويل ؛ ولقد أعجب التلميذ بمعلمه وأحبه واستشهد بكثير من عباراته . وكان أحبها إليه قول «أمرسون» : — (أن غرفة العقل قد غطيت جدرانها وحوائطها بكتابة غير مستبينة ولا واضحة ؛ فإذا شئت أن تجعلها واضحة للقراءة فاستعن بلهب شمعة . !)

قلنا أن «لويل» كان ذكيا ، ولكن هذا الذكاء الخارق لم يقعد به عن العمل والنشاط ، فكان دءوباً كالنحلة — إلا فى ساعات كسله السحرى — صابراً على الجهد المتصل والعمل المستمر ، وكان فيه ميل إلى القديم ، ولم

يكن ميلا إلى الجمود أو الرجعية . وإنما هو ميل إلى الاعتزاز بالماضي والاعتداد بالتراث . . فطراز بيته قديم ، ومقاعده عتيقة الطراز ؛ وهو يحن دائماً إلى القديم من وده ، والأول من صداقته . ويؤثره دائماً على الطريف .

ولكن « لويل » كان متناقضاً فى ظواهره . وقد حير تناقضه هذا كل من اتصل به . فهو حار القلب تارة وبارده أخرى . وهو صوفى فى بعض أشعاره ولذائذى فى بعضها . وهو يعطيك الحلاوة من طرف لسانه إذا لقيته ، وإذا غبت عنـــه راغ كما يروغ الثعلب . . كان غريباً فى مناقشاته ومحاوراته . فهو حريص دائماً على أن يكسب الموقعة ولو كان خاسراً . حريص على أن يكون الظافر فى حومة الجدل ولو لم يكنه . وقد يتخذ من حركات يديه ووجهه ما يعينه على هذا الظفر المجلوب . فإذا انتصر على خصم ابتسم ابتسامة ماكرة ، ثم اعتذر عما بدا منه فى أثناء الجدل بأنه صنعه لأول مرة فى حياته ! ولم يكن بين « لويل » « ولونج فيلو » الشاعر معرفة حتى سنة ١٨٤٦ ، فقد قرأ كل منهما لصاحبه ولكنهما لم يتلاقيا . وفى ذلك العام جمعت الاثنين غرفة واحدة هى غرفة « لويل » المعهودة . وبالطبع دارت بينهما الأحاديث وطال الكلام ، وكانت حركة منع الرقيق موضوع الحديث ؛ ولا تعجب إذا تحمس «لويل» لمنع هذه الرذيلة الإنسانية . فالدم الديموقراطى يجرى فى شرايينه وأوردته . وزوجه الشابة « ماريا هوايت » شاعرة رقيقة الحس مرهفة الشعور حرة الفكر ، وهى فوق ذلك تلميذة « مارجريت فولر » إحدى حرائر أمريكا وأنصار الحرية فيها .

هذا هو « لويل » الكاتب ، أما « لويل » الشاعر فقد أجاد أنواع الشعر كلها . فمن أغان وأهازيج إلى ملاحم . وله دواوين — لولا خشية الأطالة —

لنقلنا أسماءها هنا . ولكنها فى مستطاع من يريد الحصول عليها .

وكان شعره يمتاز باللون الزاهى والذوق الموسيقى، والمهارة التكوينية أو إجادة الوصف . ولا يقل فى شاعريته عن « تنسون » أو « هود » أو غيرهما . ولكن شهرة هؤلاء غطت على شهرته ، ففاتوه فى ميدان الشعر بشوط بعيد . ولعل مما طوح بشهرته فى الشعر أنه كان مقلدا متبعاً ولم يكن أصيلا مبتدعا . حتى لقد سماه بعضهم « شاعر الظلال » . إشارة إلى أنه فى أغلب أشعاره ظل لمن قرأ لهم . .

ولا ننسى الشهرة التى نالها معاصره الشاعر الأمريكى الشهير « لونج فيلو » فقد كانت عاملا من عوامل إخفاء كل من ظهر من الشعراء فى وقته . وفى هذا المعنى يقول الشاعر العربى :

فى طلعـــة الشمس من ذا يبصر القمرا ؟ ؟

إدجار والاس

١٨٧٥ — ١٩٣٢

لعل قصصياً لم يصادفه بعد الصيت وذيوع الاسم كما صادف إدجار والاس ، فإنه يعد بحق أغرب الظواهر الأدبية في العصر الحديث .

لقد كان في يده قلم تنصب منه القصص الشائقة انصباباً . ويتدفق الفن القصصي تدافقاً . وتتكاثر المقالات ، وتنشر المسرحيات القصيرة ، ويترامى إلى قرائه العديدين فيض واسع من فنه الصحفي الذي برع فيه البراعة كلها ووفق إليه التوفيق كله . وكان هذا الفيض العريض لا ينقطع ، بل يزيد على الأيام ، ويقوى مع تقدم السنين .

وليس عجيبا أن يحذق إدجار والاس هذه الفنون الكتابية ، وأن يحرز فيها اسماً انفرد به . فقد كانت كتابته تمتاز بطابع من السهولة تجرى في غير عنف . ولذلك وفق في تحرير الأخبار ، وإنشاء القصص المسلية ، والمغامرات والمفاجآت ؛ وهي ألوان من الكتابة لا تحتاج إلا إلى خيال خصيب ، ولا تحتاج إلى عبقرية خارقة .

ويظهر أن هناك شبها غريباً بين خيال إدجار المسرف وبين طبيعته المسرفة . فما عرف عنه في حياته أنه ادخر قرشا، أو اقتصد دانقا أو احتوت له خزانة مالا . بل كان على غاية من السرف والتبذير . وكانت مصارفه فوق

موارده — ولهذا عاش مدينا ومات غارقا فى الدين . على الرغم مما أغل له فنه من إيراد ، وما جلبه له قلمه من مكسب عريض .

كان يغامر ويقامر ، ويلهو ويلعب . يبعثر بالشمال ما جمع باليمين . فلم يحسب للفاقة حساباً ، ولم يبال من الزمان صداً أو أعراضاً ، بل كان يعيش للساعة التى هو فيها ولم يفكر فى لحظة واحدة من وراء الغيب الذى يتعبنا جميعا بالتفكير فيه والاستعداد له . وكان كل ما يقض عليه مضجعه ويطيل عليه ليله تفكيره فى نجاحه الأدبى الذى كان يرجوه لنفسه .

وقد بدأ أسراف والاس جلياً فى كل شىء تناوله . فهو مسرف فى الخيال إذا خال . ومسرف فى الفكر إذا فكر ، ومسرف فى المال إذا أنفق . وزاد عليهن جميعا أسرافه فى اكتساب القراء ، فقد كان قصارى الأديب فى مطلع القرن العشرين أن يكسب بضعة الألوف من القراء . ولكن إدجار والاس طمع فى اكتساب الملايين منهم ، وفاز أخيراً بانتزاع الثناء من ألسنتهم والإعجاب من نفوسهم . وانتزاع الثناء من الناس ليس مطلباً يسيراً ولا مراداً هيناً .

ولد هذا العبقرى لقيطاً فى قرية « جرينتش » الإنجليزية ، ولم يعرف له أب ينتمى إليه أو والد يحنو عليه . ولكن أمه (بولى ريتشاردز) كانت ممثلة من الدرك الأسفل . أظلمت أمام عينيها جوانب الحياة ، واعتمدت على راتب ضئيل من أحد مسارح لندن .

واحتملت الأم طفلها على ذراعيها الواهنتين ، وقصدت به إلى كنيسة كاثوليكية لتنصيره ، وأخفت اسم والده الحقيقى الذى لا يعرف سره أحد غيرها . . .

وأتيح لهذا الطفل اللقيط الشقى امرأة طيبة القلب ، فتكفلت بإرضاعه والقيام عليه ، وكان حب هذه المرأة للأطفال وغرامها بهم وعطفها عليهم ، لا يقل عن حب زوجها الفقير «فريمان» ، الذى كان يكسب قوته اليومى من حمل الأسماك على ظهره . والتنقل بها فى أسواق البيع والشراء .

وبين جدران منزل متواضع نشأ الطفل نشأة متواضعة ، إلا أنه كان ملحوظاً من «فريمان» كأحد أبنائه ، يلعب معهم ، ويذهب إلى المدرسة الأولية كما يذهبون ، ويتكلم اللهجة اللندنية كما يتكلمون .

واستطاعت مسز « فريمان » أن تجد لهذا الطفل الجديد — بعد أن يبلغ الحلم — عملا فى إحدى المطابع . وما زال ينتقل من مطبعة إلى أخرى فترات قصيرة متقطعة حتى أتاحت له مصادفة جديدة أن يعمل فى البحار طاهياً أو ملاحا أو خادما لرئيس الملاحين .

ويظهر أن هذه التجربة الجديدة أخصبت خيال الفتى وفتحت أمامه آفاقاً واسعة من التفكير . وفى الحق أنه لم يكن ملاحا ماهرا ولا طاهياً جيدا ، ولكنه كان دائماً يرنو إلى الأفق البعيد من فوق السفينة، كأنه يستطلع الغيب أو يستشف ما وراء الغمام . فلم يحسن الملاحة ، ولم يجد الطهى . فغضب عليه رئيسه وسخط عليه الملاحون زملاؤه ، لأن طعامه لم يكن سائغاً عندهم ولا شهياً لديهم .

ولقد قست عليه الأقدار مرة فى بحر الشمال والسفينة تخترق العباب . فإذا بالموج يضطرب ويعلو ويسفل ، وإذا بالريح تعصف ويسمع لها زفير ، كنار جهنم تكاد تميز من الغيظ ، وإذا بالجو يبرد فتصطك الأسنان ويبرد الدم ويكاد القلب يقف ، وتكاد النفس تزهق ، فيصاب الغلام بالهدام

ولكنه يتصبر ويتجلد ، ويبدى للشامتين من زملائه البحارة أنه لريب الدهر لا يتضعضع ...

عاف الغلام هذه الحياة المرة القاسية . ولم يستطع على البحار صبرا ، فانسل إلى لندن مختفياً فى عربة توزع الخبز . وصادفته المدينة الكبيرة الصاخبة فلم يجد من يعطف عليه فيها ، ولا من يؤويه ، ولا من يطعمه من من جوع . وكان ينام إلى سقيفة فى إحدى موانيء لندن ، أو جدار فى أحد مخازنها . وعاش أسابيع طويلة لم يطعم فيها إلا الماء القراح والخبز القفاز ..

وبلغ الشاب الثامنة عشرة بعد أن طال عليه الهجود فى الشقاء والاستسلام إلى الأحلام ، فلم يفق إلا على الفقر يحيط به ، والبؤس يتهدده ، وأدرك أنه صار غرضاً للأحداث ومرمى للأقدار ، وأحس فى قرارة نفسه أنه يستطيع أن يغير مجرى الأمور لو نفض عن نفسه الغبار ، وأزاح عن قلبه الغشاوة ، وفتح عينيه على المعرفة .

وكلما أمعن الحظ فى الإساءة إلى والاس زاد هو محاولة مع الأقدار ومصاولة لها ، فما يئس ولا جزع ، بل طرق كل باب ، وولج كل مدخل ؛ وفتنته الجندية فتطوع لسبع سنوات ، على الرغم من توسل مسز فريماز وإلحاحها عليه ودموعها الكثيرة التى كانت ترسلها قطرة أثر قطرة .

ويظهر أن الحياة العسكرية قد وافقت صاحبنا ووجدت محلا فى نفسه . فقد وجد فى الطعام ملاءمة ومناسبة .. ! ووجد فى العمل المستمر راحة قلبه ... واستحال جسده الناحل العليل إلى جسم ملفوف العضل مكتنز اللحم .

وفى « ألدرشوت » ، تلك المدينة العسكرية المعروفة بتعاليمها العسكرية

ومدارسها العسكرية استطاع « والاس » أن يختلس المسافة إلى لندن كل يوم اختلاسا.

وفتنته هذه المرة لندن العريقة بمسارحها وملاهيها ونواديها ومراقصها ومشاربها .. وليلها الذى تحييه ألوف من الناس فى الشراب والصحاب ..

وكان يميل دائماً إلى استماع الأغانى ، والمحاورات والروايات القصيرة المضحكة فى ملاهى لندن ، وكان يحفظها لأول مرة ، ويتغنى بها ، ويرددها على زملائه فى المعسكر ، فيعجبون لها ويستزيدونه منها ، وهو يحسن الأداء ويتقن النقل فطارت شهرته بين الجنود والضباط ، وأغراه هذا النجاح بأن يصطنع هو حوارا أو يؤلف غناء أو ينشىء قصة فزادت شهرته بين زملائه .

والشهرة دائماً تغرى بالشهرة ، فزاد طمع الشاب فيها — وهو كما أسلفنا مغامر مسرف فى كل شىء — فألف للمغنى الشهير « أرثر روبرتس » أغنيته وأرسلها إليه فتقبلها هذا قبولا حسناً وغناها فى مسارح لندن .

ولاحظ عليه الضباط انصرافاً عن الجندية وروحها ، وميلا إلى حياة اللهو التى لا تلائم أبطال الدفاع ، وحبا فى الفرار إلى لندن كل ليلة لسماع أغانيه . . . فضيقوا عليه كل سعة . وأوصدوا أمامه كل باب . ولم يأذنوا له بمبارحة المعسكر .

وضاق الشاب ذرعاً بهذه المعاملة التى اعتبرها إهانة لفنه وكبحا لحريته فانسل فى إحدى الليالى ومعه بعض المال المدخر إلى لندن . . وكان هذا المال بدأ يتجمع فى يديه ثمناً لأغانيه التى يبيعها للمغنين على اختلاف درجاتهم . وعلم رؤساؤه بانسلاله ، وصوروا عمله فى أشنع صورة يجيزها لهم

قانون الجندية ، وحكموا عليه بالسجن أياماً فى العمل الشاق .. ولكن طبيب المعسكر كان فيه نزوع إلى الشعر وميل إلى الأدب . فابتسم للجندى السجين ، وحياه تحية التقدير والإعجاب فعفا الرؤساء ، وأسدل على هذا الحادث ستار من النسيان .

وتوالت بعض الشهور ، وترقى « إدجار والاس » إلى صف أعلى ورتبة أرقى وحصـــل على (شريط) يزين ذراعه القوية ، وجاء فى النشرة الرسمية أنه انتقل محارباً فى جنوبى أفريقية ؛ وكانت تغلى فيها مراجل ثورة يوشك أن يكون لها ضرام . . .

ففرح الشـاب لأنه وجد فى الحرب مجالا لإظهار ما يظنه موهبة عسكرية ، وأحب رؤية تلك الحياة الجديدة على ما فيها من أخطار جسام وأهوال عظام . . . إلا أن أمله خاب حينما علم أنهم عينوه فى مستشفى « سيمونس تون » . . ماذا يصنع هناك فى مستشفى يفد إليه المرضى والمشوهون والضعفاء . إنه لن يكون له عمل هناك غير توزيع الأغذية على المرضى ، والاحتفاظ بالعهدة الصحية تحت يده ؛ وذلك عمل لا يستحق عناء الرحلة الطويلة فى البحار الجنوبية .

ودع صاحبنا لندن ، وودع معها الجزيرة البريطانية ، وودع مع ذلك كله يومى بؤسه وسعادته . فقد كان له فى لندن — كما لكل إنسان فى العالم — يومان من سعادة يختلف عليها البؤس ، وبؤس تختلف عليه السعادة .

وركب البحر هذه المرة . . إلا أنه لم يكن بحاراً ولا طاهياً كما طوحت به الأقدار مرة فى بحر الشمال . . ولكنه كان جندياً . . كان جندياً حرموه شرف النزول فى الميدان ، وأرادوه أن ينزل فى مستشفى ، هناك يقوم على

مخازنه ومرضاه . . . وفى هذا المستشفى أعدت غرفة للتهـذيب والدين والوعظ . . . وقام عليها القس « وليام كالديكوت » .

واستطاع إدجار والاس أن يجد فى مكتبة هذه الغرفة تسلية لنفسه . فكان يقضى معظم أماسيه الهـادئة على حفيف ورقات الكتب تعبث بها أصابعه . .

ولم يكن والاس يحسن اختيار الكتب لمطالعاته . لأنه حديث عهد بالأدب ، ولأنه كان حاطب ليل . لا يميز السرو من الصفصاف ، ولا الحطب من القصب ، إلا أنه وجد فى السيدة (ماريون كالديكوت) زوج القس هادياً له يبصره بكل سمين من الأدب ، ويدله على اللباب ، ويزيح عن عينه القشور . وكان فى هذه السيدة ذكاء نادر ، وكان بها ولوع بالأدب وشغف بالمعرفة .

ولما عرفت أن والاس شاعر وأنه ينظم بعض الأغانى أمالت أذنها إلى شعره ، وأصغت إلى أناشيده ، وشجعته بكلماتها الساحرة على المزيد .

وعاش والاس فى جنوبى أفريقية وفى بيت القس كالديكوت عيشة فتحت أمام عينيه آمالا واسعة فى الأدب . فقرأ كثيراً واستفاد كثيراً . وقد وجد فى عطف السيدة زوج القس مشجعاً له على القراءة وحافزاً على مداومة الاطلاع . والحق أن هذا الأديب الشعبي المحبوب مدين لهذه السيدة بكثير مما انتفع به فى قراءاته الأولى .

وكان للقس بنات رزقن جمالا . ووهبن معرفة ، وأوتين حظاً لا بأس به من العلم فأحب (والاس) إحداهن « إيفى » . . . أحب فيها الخجل والخفر ، وأحب فيها السذاجة التى لا حد لها ، وكانت تصغى إلى كل ما يقرأ

من آثاره ، ويزيده لحظها نظراً كلما زاد تلاوة . . . وقد غلبها الحب فآمنت بأدب والاس ، وبالغت فى تقدير مواهبه . . وخاصة عندما نجح فى أن يتقاضى ثمنا لما ينشره فى صحف جنوبى أفريقية .

وأخذ والاس يمشى إلى طريق الشهرة وهو شائك ، فلا يبالى بما يعترضه،وزادت شهرته حينما نشرت له صحيفة « التيمس » الأفريقية شعراً يحيى به شاعر الأمبراطورية العظيم « رديارد كبلنج » بمناسبة زيارته . وقد دهش النقاد لبراعة القصيدة ، وزاد من دهشتهم أنها صادرة من جندى صغير فى الجيش البريطانى ... ومن هذه اللحظة بدأت العلاقات بين والاس وبين شاعر الأمبراطورية . وكأنما لمست هذه التحية الشعرية مواطن التقدير وعرفان الجميل من قلب « كبلنج » فأثنى على والاس فى حفل حافل أقيم لوداع الشاعر ، إلا أنه نصحه بعدم احتراف الأدب ، (لأن الأدب يجب أن يؤخذ خليلة لا زوجة) .

ولكن هذه النصيحة من شاعر الإمبراطورية لم تصادف من أذن والاس سميعاً ، على الرغم مما كان فيها من إخلاص الشاعر وحسن نيته . واستمر والاس على عقيدة منه قوية بأن المستقبل يعد له شيئاً ، ويهيء له أمراً ، وأن « الكتابة » وحدها هى التى ستصل به إلى أفياء هذا المستقبل المنشود والأمل البعيد . وظل يفضى كل يوم بأحلام هذا المستقبل إلى كل من اتصل به أو تحدث إليه،من النواب والمحررين وأساتذة المدارس . .

وفى مايو سنة١٨٩٩ استطاع والاس أن يخلص نفسه من قيود الجندية ، وعاش بعد الخلاص مدنياً حراً فى بيت القس « كالديكوت » الذى وافق على خطبته لابنته «إيفى» . وفى أكتوبر من السنة نفسها حينما أعلنت حربُ

البوير فى جنوبى أفريقيـة ، إختير والاس مراسلا حربياً لشركة « روتر » الإخبارية . وهنا أحس أن طلائع أمله المنشود قد بدأت تتحقق . .

والحق أن النجاح يتبعه النجاح ، وما يزال المقبل مقبلا ما لم يعثر . . . وكذلك كان والاس . فاستمر الحظ فى الإقبال عليـه والابتسام له هذه المرة ، وطارت شهرته فعين مراسلا لجريدة « الديلى مايل » اللندنية بجانب عمله فى « روتر » . وأخذ يمنى نفسه — عندما تنتهى الحرب — بالعودة إلى انجلترة ليطبع المختار من شعره .

ولم تطـل الأيام حتى عاد الغريب إلى ارضه ، ولـكنها كانت عودة اليائس المنكوب ، فقد ماتت مسز « فريمان » التى ربته فى لندن صغيراً ، واحتضنته فى الساعة التى لم يجد فيها حضن أمه . ولم ينتشر ديوان شعره — كما كان يرجو لنفسه — على الرغم مما بذله فيه من عناية وما أحاطه به من كبرياء . . .

إلا أن الله شاء أن يعوض عليه ماخسر ، فقد قابله المستر مارلو رئيس تحرير « الديلى مايل » وعرض عليه أن يعود إلى جنوبى أفريقية مراسلا للصحيفة ما دامت الحرب لم تضع بعد أوزارها .

وعاد والاس إلى مدينة الكاب ، وتزوج «إيفى كالديكوت» ابنة القس . . وعاشا معاً فى ضاحية من ضواحى المدينة فى منزل صغير مؤثث ، وكذلك كانت حياته موزعة بين هدوء البيت وصخب المراقب العسكرى .

ولقد كان لما يكتبه والاس وما يبرق به إلى لندن قيمة إخبارية خاصة رفعته إلى الرعيـل الأول من المراسلين وعقدت له مكاناً علياً . إلا أن وزارة الداخلية اللندنية لم تعجبها صراحة هذه الأخبار التى كان يعلق عليها

العدو . فضيقت على المراسلين جميعاً . ولكن والاس بقى على الرغم من ذلك كله مصدراً موثوقاً به لأخبار حرب البوير . فاتسعت آفاق شهرته .

ولما عاد السلام إلى جنوبى أفريقية عين والاس رئيساً لتحرير جريدة الديلى ميل الأفريقية بمرتب قدره ألفا جنيه فى العام .. ولم تبلغ سنه حينذاك السابعة والعشرين .

وهكذا انتقلت به الأقدار من حال إلى حال ، فعاش عيشة الأمراء ، وملأ قصره بألوان من الخدم . وكان يرتاد حلبات السباق ، وينفق عن سعة . وما فكر لحظة واحدة فى شبابه لهرمه ، ولا اقتصد من غناه لفقره .

وعاد إلى لندن هذه المرة والأقدار عابسة والدنيا ساخرة . فاشتغل محرراً عادياً فى الديلى مايل اللندنية . ولكن روحه ظلت محتفظة بقوتها وحيويتها كما كان يفعل دائما فى الحدث العظيم . .

وهنا فى لندن أو فى مزدحم الطرق ومفترق السبل ، عثرت عليه أمه التى طوحت به — بعد خطيئة أخطأتها — إلى كنيسة صغيرة وهو طفل صغير . وكان والاس دائماً ينكر أمومتها له . وهنا يقسو والاس على أمه ؛ فلا يغفر لها خطيئتها ، ولاينسى لها عار إثمها على الرغم مما ألح عليها من طول العمر وسوء المصير . . .

وهنا لا يرحم النقد والاس ولا يغفر له هذه القساوة . فقد كان أولى به أن يرق لها فى آخر أيامها ومعدود لحظاتها . وكان أولى أن يكون بجانبها حينما لفظت أنفاسها فى مستشفى (برادفورد) وهى تعمل ممثلة محطمة فى فرقة من فرق لندن التمثيلية المتنقلة .

ولم يكد « والاس » يحاسب نفسه على موقفه هذا من أمه حتى عاودته

الهموم وثقلت عليه وطأتها ، وكأنما كان دائماً فى خصام عنيف مع ضميره وعاطفته .

وأخذ ينمو فيه وخز الضمير وعذاب العاطفة وألم الإحساس ، لأنه ضن على أمه الشقية البائسة فى ساعات نزعها بكلمات الغفران . . . ولأنه لقيها فى لندن أخشن لقاء ، ولأنه قسا عليها — لخطيئتها — فذهبت من هذا العالم الشقى تحمل بيديها خطأ البشر ونقص الإنسان ، إلى حيث تجد فى ساحة الرحمن الفسيحة الصفح والغفران . . .

وعاد الحظ ثانية يبتسم للكاتب . . وجاءت الدنيا مقبلة عليه ، ونسى أمه الشقية . . وضاعت مع ذرات جسمها الهامد ذكرياتها الشقية فى نفسه ، وعمل محرراً فى أكثر من صحيفة ، واتجه بكتابته إلى القصة ، وساعدته أسفاره المتعددة ورحلاته إلى أفريقية ومجاهلها وغاباتها وأنهارها ، على أن يلون قصصه بلون زاه بديع الصور جم المشاهد .

كان الاضطراب والتناقض يسودان دائما حياة هذا الأديب المغامر . فهو فى التحرير اليوم كما كان فى الجندية بالأمس . . . لم يحفل بقانون ، ولم يبال بعرف ولم يخضع لما تواضع عليه الناس ، فهو يحب أن يعيش ، ولو تعرض لنقد الناس وصار هدفا لكلامهم . . .

وهو فى حياته الزوجية كذلك متناقض مضطرب . . على الرغم من إخلاص زوجته له . وتفانيها فى حبه وقيامها على راحته . فتراه يتخذ الفتاة « دايزى » صديقة له . . . ويستر ذلك بأنه يدعوها صديقة الأسرة . . . ويتخذ الفتاة « فيوليت لنج » كاتبة له ، وهى فى الحق خليلة ، ولم تطل هذه الحالة حتى اتخذها زوجة له بعد زوجته الأولى « إيفى » .

وفى الحق أن زوجته إيفى ، وابنة القوم الذين وجهوه إلى الأدب فى مستهل حياته لم تكن راضية عن سلوكه الأخير . وقد لاحظت عليه إسرافاً فى الملاذ واندفاعاً نحو الشهوات . وحاولت — وهى ابنة قسيس — أن تكبح قليلا من شهواته الجامحة . وحاولت كذلك — وهى مثال الزوجة الصالحة — أن تصرفه عن حياة الإباحة والفوضى ، والسهر والمقامرة ، فلما استعصى عليها العلاج وعز الدواء ، ورأت أن المقام معه شاق لا يطاق طلبت الطلاق . فانفصل ما كان بين الزوجين من رباط . . .

كان والاس كما أسلفنا القول مسرفاً فى ماله كما كان مسرفاً فى خياله . لقد تحقق له الحلم الذى كان يحلم به ، ووصل إلى الشهرة التى كان يطمع فيها .

أما إسرافه فى ماله فيبدو جلياً فى كثير من وجوه إنفاقه . فهو — إذا استغنى — يبعثر المال من غير حساب . وهو إذا افتقر غارق فى الدين ...

ولقد بلغ من سعة إنفاقه أنه كان يدفع كل شهر مائة جنيه ثمناً لمحادثاته التليفونية العادية . .

ولقد أغرم بمراهنات الخيل وسباقها ، واقتنى منها الجياد الصافنات . وبلغ عددها فى سنة ١٩٣٠ واحداً وعشرين جواداً ، كان ينفق عليها مرتبه من مجلة ستار Star . وكان هذا المرتب يبلغ ثلاثة آلاف من الجنيهات كل عام

وأغرم بالمال فى يديه ، لا ليجمعه بل ليوزعه ، وقد ساقه غرامه هذا إلى محاولة كثير من المغامرات ، فقد غامر فى جنوبى أفريقية ، وغامر فى الكونغو ، وغامر من قبل وهو جندى صغير فى إحدى فرق لندن العسكرية

وقد دعى إلى هوليود والمرض يلح عليه ، والإعياء يدب فى جسمه ، فلم يتردد فى قبول هذا العرض الجميل المغرى ، لأنه كان دائماً كثير المطامع

كثير المغامرات . إلا أن هذه المدينة الجميلة المرحة الصاخبة لم تستطع أن تجذبه إليها أكثر من شهور .

وزاد المرض عليه إلحاحاً ، وظهر إلى جانب مرض السكر ، مرض صدرى عنيف ، فلم يستطع مواصلة العمل هناك . وأعلنت صحافة أمريكا فى حروف كبيرة ولوحات عريضة مرض الكاتب المسرحى الشعبى المحبوب .

وعادوا به إلى انجلترا — مسقط رأسه — على ظهر الباخرة وهو على سرير المرض الخطير . وكان يصحبه فى هذه الرحلة صديقه « والتر هاستون » .

وأغمض « والاس » عينيه إغماضة كانت إغماضة الأبد ، ونام النومة الأخيرة ، وقد تناثرت على سريره أكاليل من الأزهار قدمها ركاب الباخرة . ولفوه فى علم البحار الإنجليزى . . وأرخوا على جسده فضل ردائه ، ونثروا حوله الأزهار . .

ووصلت الباخرة إلى ميناء « سوثهامبتون » الأنجليزى وقد نكست علمها حدادا ، وردت عليها أعلام الثغر حدادا بحداد . . .

ودقت أجراس لندن الحزينة معلنة فى صليلها الجهير ، خفوت صوت الكاتب القصصى المغامر الكبير . . .

المصادر والموارد

لتراجم الكتاب

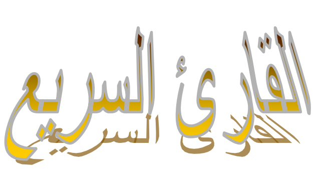
اسم الكتاب	اسم المؤلف
الآثار الفكرية . طبع بولاق سنة ١٣١٥	أمين فكرى باشا
الآداب العربية فى القرن التاسع عشر . بيروت	الأب لويس شيخو اليسوعى
أدب اللغة العربية . المطبعة الحسينية	محمد حسن نائل المرصفى
إرشاد الألبا إلى محاسن أوربا . المقتطف	أمين فكرى باشا
الإسلام والتجديد فى مصر . الاعتماد . مصر	ت آدمز ، وترجمة عباس محمود
أعيان البيان . القاهرة سنة ١٩١٤	حسن السندوبى
البعثات المصرية فى عهد محمد على . صلاح الدين	الأمير عمر طوسون
تاريخ آداب اللغة العربية . الهلال س ١٩٣٦	جورجى زيدان
تاريخ الأستاذ الإمام . المنار سنة ١٣٢٤ هـ	السيد رشيد رضا
تاريخ التعليم فى عصر محمد على . الاعتماد . مصر	أحمد عزت عبد الكريم
تاريخ الجبرتى . طبع بولاق . سنة ١٢٩٧ هـ	عبد الرحمن الجبرتى
تاريخ الحركة القومية . القاهرة سنة ١٩٣٠	عبد الرحمن الرافعى بك
تاريخ الصحافة العربية . بيروت سنة ١٩١٣	الكونت فيليب طرازى
تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسى	جايمس هنرى برستد
تخليص الإبريز إلى تلخيص باريز . بولاق	رفاعة رافع الطهطاوى
تراجم أعيان القرن الثالث عشر . القاهرة	أحمد تيمور باشا
تراجم مشاهير الشرق . الهلال . سنة ١٩١٠	جورجى زيدان
التعليم فى مصر . مطبعة المعارف س ١٩١٧	أمين سامى باشا

اسم الكتاب	اسم المؤلف
الخطط التوفيقية . بولاق سنة ١٣٠٦ هـ	على مبارك باشا
ديوان الأشعار بحميد الأشعار . مصر	السيد على الدرويش
ديوان السيد على أبى النصر . بولاق س ١٣٠٠ هـ	
ديوان محمد شهاب الدين . مصر س ١٢٧٧ هـ	
ديوان محمود سامى البارودى . دار الكتب	
ديوان محمود صفوت الساعاتى . المعارف	
شوقى على المسرح . بيروت سنة ١٩٣٦	إدوار حنين
عبد الله فكرى . عصره وحياته وأدبه	محمد عبد الغنى حسن
عصر إسماعيل . القاهرة سنة ١٩٣٢	عبد الرحمن الرافعى بك
عنوان المجد فى تاريخ نجد . بغداد سنة ١٩١١	ابن بشر الحنبلى
قمبز فى الميزان . مطبعة المجلة الجديدة القاهرة	عباس محمود العقاد
الكتاب الذهبى للمحاكم الأهلية س ١٩٣٧	
كنز الرغائب فى منتخبات الجوائب م الجوائب	أحمد فارس الشدياق
كنز الجوهر فى تاريخ الأزهر م . هندية	سليمان رصد الحنفى
لمحة فى تاريخ الأزهر . القاهرة سنة ١٩٣٦	على عبد الواحد وافى
مجلات الثقافة ، والرسالة ، والكتاب والمقتطف ، والحديث بحلب	
مجلة المجمع العلمى العربى . مجلد ٤	
مرآة العصر . المطبعة العمومية سنة ١٨٩٧	إلياس زخورة
معجم المطبوعات العربية . سنة ١٩٢٨	يوسف أليان سركيس

فهرس هجائى

بأعلام هذا الكتاب

عددنا « ال » التعريفية ، و « ابن » و « أب » زائدة على العلم ؛ فيبحث عن أبى الطيب مثلا فى حرف الطاء ، وابن الساعاتى فى حرف السين ؛ وهكذا .



ب

س

ش

ص

ط

ع

ف

فهرس الكتاب

أعلام من الشرق

أعلام من الغرب

استدراك : ورد فى ص ٨٢ تاريخ ميلاد الطويرانى خطأ وصوابه ١٨٥٠

(تم بحمد الله طبع هذا الكتاب فى مطبعة الاعتماد سنة ١٩٤٩)